الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قســـــم: التاريخ

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل : D.HM/3C/03/13

انعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني(633-962هـ/1235-1555م)

أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في: التاريخ.

تخصص: التاريخ الوسيط.

إعداد الطالبة: حسيبة عمروش

تاريخ المناقشة: 2018/12/13

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	عيساوي محمد	أستاذ محاضر صنف"أ"	محمد بوضياف-المسيلة	رئيسا
02	مفتاح خلفات	أستاذ	محمد بوضياف-المسيلة	مشرفا ومقررا
03	سيدي موسى محمد الشريف	أستاذ	علي لونيسي- البليدة2	عضوا مناقشا
04	ربوح عبد القادر	أستاذ محاضر صنف"أ"	زيان عاشور- الجلفة	عضوا مناقشا
05	قمعون عاشوري	أستاذ	حمه لخضر- الوادي	عضوا مناقشا
06	شاكي عبد العزيز	أستاذ محاضر صنف"أ"	محمد بوضياف-المسيلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 1439-1440هـ/2017-2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــــداء

إلى روح أستاذي الفاضل الدكتور/ مزيان وشن .

إلى والدي ووالدتي اللذين عايشا مراحل هذا العمل بما كان لديهما من أمل

وترقب ودعاء مخلص.

إلى إخوتي جميعا.

أهدي لهم جميعا هذا العمل.

شكـــــر وعرفـــــان

الحمد الله الذي بفضله تتم الصالحات وجعل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى أتباعه الذين ختم لهم بكمال الحسنات ورفقة الدرجات، رضي الله عنهم وعن أتباعهم إلى يوم الدين

أجد لزاما عليا أن توجه بالشكر والعرفان إلى الأستاذ الفاضل البروفيسور/ مفتاح خلفات الذي أمدني بالشيء الكثير من علمه وخلاصة تجاربه كما زودني بالعديد من المصادر والمراجع كان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى فيما توصلت إليه من إضافات ونتائج جديدة، إلى أساتذتي الذين تكونت على أيديهم طيلة مشواري الدراسي في الجامعة، إلى زملائي في الدراسة و إلى كل من قدم لي المساعدة أو النصيحة في انجاز هذا العمل من قريب أو بعيد.

المقدمة

تعد الحرب من أقدم الظواهر الاجتماعية الضاربة في أعماق التاريخ الإنساني والمتجددة في آن واحد، فمنذ القديم كانت الحرب على مستوى الأفراد ثم العشائر ثم القبائل ثم على مستوى الدول. وواقع الحال ما عانته الدولة الزيانية من ويلات هذه الحروب على مدى تاريخها الطويل فكانت بمثابة لعنة عانى منها المجتمع التلمساني خلال حكم بني زيان، ونظرا لأهمية الظاهرة وفعلها التاريخي على الدولة والمجتمع معا، ارتأيت أن أكشف من خلال ثنايا هذه الدراسة عن ستار هذه الظاهرة وما لها من تداعيات على مختلف الفعاليات الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال هذا العصر.

يناقش هذا الموضوع والموسوم ب "**انعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962هـ/1335-1555م)**" العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع وذلك من خلال إعادة النظر في إشكالية الحرب وانعكاساتها على مستوى أفكار وذهنيات ومشاعر وعادات وسلوكيات الفرد في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وذلك من خلال تصور علمي جديد يتجاوز سرد الأحداث العسكرية والحربية إلى البحث في حقائقها وبناها وتفاعلاتها ومتغيراتها وانعكاساتها على الفرد والمجتمع وتحليلها للوقوف على مدى تأثر المجتمع بها وتفاعله معها.

-إشكاليات الموضوع

في سياق هذا الجهد عمدت إلى طرح إشكالية محورية حول هذا الموضوع: ما هي انعكاسات الحروب والحصارات على مجتمع المغرب الأوسط خلال العهد الزياني وكيف تعامل معها؟

تفرعت عنها مجموعة من التساؤلات:

- ما هي انعكاسات الحروب والحصارات في بنيات مجتمع المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ؟
- كيف أثرت الحرب على وجدان الفرد ومشاعره وعاداته وسلوكياته؟

ما هي أهم المظاهر الديموغرافية والاجتماعية والدينية والاقتصادية التي خلفتها هذه الحروب وكيف تصدى لها إنسان المغرب الأوسط؟

- ما هي أكثر الفئات التي تضررت أكثر في سلسلة الحروب والحصارات التي شهدها العهد الزياني؟
- هل أفصحت لنا المدونة الوسيطية بما فيه الكفاية حول انعكاسات الحرب على مختلف الفعاليات الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني؟
- ما هي الأساليب التي انتهجها الفرد الزياني لمواجهة مثل هذه الظروف؟

- ما مدى فعالية الدور الذي جسده الولي في أوقات الحروب؟ وما هو الدور الذي جسده العمران المقدس كالزوايا والأضرحة كأحد مقدسات مجتمع الأولياء زمن الحروب؟
- ما هي الفئات الفاعلة في مثل هذه الظروف؟ وما هي الأدوار التي قامت بها؟
- ما هي الموارد المالية التي كانت تمول خزينة الدولة الزيانية؟
- هل كانت الدولة الزيانية تمتلك دور صناعة حربية متطورة نافست بها غريمتيها المرينية والحفصية؟ وماهي أنواع الأسلحة التي كانت تصنعها؟ وهل كان الصناع والحرفيون الذين تولوا هذه الصناعة من الوافدين أم محليين؟
- ماهي تركيبة (عناصر) الجيش الزياني ؟ وهل كان الجيش يتكون من عناصر محلية فقط أم أنه تضمن عناصر أجنبية ضمنه؟
- كيف أثرت الحرب على النخبة ؟ وما هي الأدوار التي اضطلعوا بها ؟

-أهمية الموضوع

يعود اختياري لهذا الموضوع بالضبط لعدة أسباب مهمة، كانت دافعا أساسيا للقيام بهذا العمل، وذلك من أجل سد الثغرات التي يشهدها تاريخ الأفكار والذهنيات في العهد الزياني وبخاصة في فترات الحروب والحصارات التي شهدها العهد وذلك حسبما يقتضيه موضوع الدراسة.

أولا: تكمن أهمية الدراسة على هذا الموضوع في كون أن تاريخ الأفكار والذهنيات في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني يحتوي حقولا بكرا هي بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة، فقد ظل حلقة من حلقات التاريخ المنسي ولم ينل الحظ الأوفر من الدراسة والبحث المعمق ولم تسبر أغواره بشكل دقيق. في حين أن مثل هذه المواضيع تستحق الوقوف عندها ودراستها خاصة إذا أردنا بناء نسق تاريخي متكامل حول مغربنا الأوسط، والحاصل أن هذا الموضوع ما تزال تعتريه المحدودية، ولا يزال الغموض والإبهام يكتنف جنباته، فبالتالي فأنا أروم بهذه الدراسة إلى سد بعض الثغرات التي أرى أنها في حاجة ماسة إلى دراسة وترميم من خلال تسليط الضوء على تلك العلاقة الحتمية القائمة بين الحرب والمجتمع، وتتبع كافة الإفرازات والانعكاسات ودراستها وتحليلها من أجل تدارك ذلك النقص.

ثانيا: لاشك أن المتأمل في الدراسات التاريخية عن المغرب الأوسط خلال العهد الزياني يلاحظ أن معظمها انصب على معالجة الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية والديموغرافية بل وأفاض

الحديث عنها، في حين تم إسدال ستار من الصمت والتهميش على جوانب أخرى رغم ما تكتسيه من أهمية تاريخية حيث بقيت بعض القضايا الخاصة بهذا التاريخ بعيدة عن مناطق الضوء.

ورغم أن هذه الكتابات وإن استطاعت أن تبين مدى حضور ظاهرة الحرب وما لها من تداعيات على مستويات عديدة، لكنها في مقابل ذلك أهملت الحديث عن تلك الآثار التي خلفتها الحرب على المستوى الذهني والنفسي والسلوكي لدى الفرد الزياني، وقد يُعزى هذا الأمر إلى شح المادة التاريخية حول بعض القضايا من جهة ومن جهة أخرى لقلة الباحثين الذين انكبوا على دراسته بل وضربوا صفحا عن هذا الموضوع.

ثالثا: فيما يخص اختيار الفترة الزيانية كحقبة زمنية للدراسة فذلك لم يكن بمحض الصدفة؛ بل جاء نتيجة كون هذه الفترة شهدت حروبا عديدة عبر تاريخها الطويل الذي يزيد على ثلاثة قرون، حيث كانت الحرب سجالا بينها وبين جارتيها الحفصية والمرينية.

وانطلاقا من هذه الأسباب جاءت هذه الدراسة لسد هذا النقص، ولقد حاولت فيها أن أتحرى الدقة العلمية ما استطعت.

-المنهج المتبع

فيما يتعلق بالمنهج المتبع، فقد تم اعتماد طابع توليفي لمختلف المناهج، ومنطلق البحث في هذا الموضوع هو مقاربة تاريخية وفق أدوات المؤرخ بداية بتوظيف المنهج التاريخي الذي يقوم على استخراج المادة التاريخية المتناثرة في الأجناس المصدرية المختلفة، أما المنهج المقارن فذلك من أجل المقارنة بين المصادر المختلفة التي أرخت لحروب العهد الزياني وكذا المقارنة بين بعض الظواهر والأحداث المتغيرة خلال حقب العهد الزياني، وكان لزاما عليا التسلح بالمنهج التحليلي والاستنتاجي على اعتبار الضرورة الملحة والملزمة بتحليل بعض الأفعال والسلوكات للأفراد التي جاءت كرد فعل نتيجة الضغوطات المستمرة للحروب والحصارات التي شهدتها المرحلة للوصول إلى استنتاج بعض المواقف والقضايا الناتجة عن هذه الظروف، وكذا رصد طبيعة العلاقات بين الأطراف المتحاربة والوقوف على أسباب الصراع الدائر بينها، مع الاستعانة بالمنهج الإحصائي حيث تم إدراج بعض الإحصائيات المتعلقة ببعض القضايا التاريخية الخاصة بمرحلة البحث مع إدراج جداول ذات أغراض مختلفة.

-عرض الموضوع

اعتمادا على ما تم الحصول عليه من المادة الخبرية المستقاة من مختلف المصادر التاريخية الوسيطية، وانطلاقا من الرؤية المنهجية التي تعاملت بها في معالجة هذا الموضوع تم تقسيم هذا العمل إلى **مقدمة** و**ثلاثة فصول وخاتمة**.

وكان **الفصل الأول** تحت عنوان: **"موارد الدولة الزيانية وأهميتها في تمويل الحروب"** ضم هذا الفصل مبحثين خصصت منه **المبحث الأول** للحديث عن أهم الموارد الاقتصادية والبشرية للدولة الزيانية وأهميتها في تمويل حروبها، وتمثلت الموارد المادية في الغنائم والجبايات والتجارة الخارجية مع توضيح أهمية "المال" بالنسبة للدولة، أما الموارد البشرية فهي العناصر المكونة للجيش الزياني، كما وضّح هذا الفصل في **مبحثه الثاني** نصيب النفقات الحربية من مال الدولة والمتمثلة في الصناعة الحربية وتجهيز الجيوش بمختلف المعدات من أسلحة وألبسة، كما تطرقت إلى الحديث حول رواتب الجند وكذا الاستعراضات العسكرية التي كانت تُقام في هذه الفترة.

أما **الفصل الثاني** والذي يحمل عنوان: **"تداعيات الحرب والحصار على المجتمع الزياني"**، وضمن هذا الفصل الذي يحتوي على ثلاثة مباحث تناولت فيه تداعيات الحرب على المجتمع على عدة مستويات وهي الاقتصادية والاجتماعية والجسدية والنفسية فكان **المبحث الأول** حول تأثيرات الحرب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وفيه بينت مختلف الآفات والأوبئة التي تعتبر نتيجة حتمية لسلسلة الحروب والحصُر التي شهدها العصر كالمجاعات والفقر؛ حيث عانت منها مختلف الفعاليات الاجتماعية، وتم توضيح المظاهر العامة لهاته الظواهر كالجوع وغلاء الأسعار وغيرها، كما تطرقت بالدراسة إلى الحديث حول الهجرة القسرية التي طالت المجتمع الزياني نتيجة الحروب

وفي **المبحث الثاني** الذي يتناول انعكاسات الحرب على المستوى الجسدي قمت فيه برصد مختلف مظاهر العنف بسبب الحروب التي شهدها العهد الزياني كالقتل والسجن والأسر التي طالت كافة الفئات الاجتماعية دون استثناء، وكان **المبحث الثالث** والأخير فرصة للحديث حول تأثيرات الحرب على المستوى النفسي وفيه تحدثت حول الضغوطات النفسية كالخوف والحرمان التي سببتها ظروف الحرب والحصار التي عايشها المجتمع الزياني.

أما **الفصل الثالث** والأخير والذي يحمل عنوان: **"سلوكات المجتمع الزياني لمواجهة الحرب والحصار"**، والذي يحتوي **على أربع** مباحث فقد تمكن الوقوف في **مبحثه الأول** على مساهمات مختلف

النخب السياسية والفكرية في العهد الزياني والتي اضطلعت بأدوار في غاية الأهمية في المجال السياسي؛ خاصة منها العمل الدبلوماسي المتمثل في بعث السفارات والوفود الرسمية، ومن ضمن الإجراءات المتخذة في هذا المجال أذكر الاستقطاب القبلي وأخذ النصيحة والمشورة في الظروف الحرجة التي عصفت بالدولة الزيانية.

فضلا عن النخبة السياسية والفكرية تجدر بي الإشارة إلى أنه ضمن الشرائح الاجتماعية التي تدخلت هي الأخرى ببعض الأدوار في هذه الظروف حريم السلطان حيث كانت لها مساهمات عديدة هي الأخرى في العمل الدبلوماسي كالمشاركة في المفاوضات السياسية، زد على ذلك المصاهرات ذات الأغراض السياسية.

وفي **المبحث الثاني** والذي يخص الجانب الاجتماعي تطرقت فيه إلى أعمال التضامن والتكافل والتآزر بين مختلف الفعاليات الاجتماعية.

وقد خصصت **المبحث الثالث** للحديث حول سلوكات المجتمع في المجال الاقتصادي والمتمثلة في أساليب تخزين المؤونة تحسبا لظروف الحرب والحصار، وكذا البحث عن أغذية تعويضية لمكافحة الجوع.

أما المبحث **الرابع والأخير** فقد تمكن الوقوف فيه على ظاهرة التصوف والتي تعتبر كإحدى النتائج التي أفرزتها الحرب في هذه المرحلة، والتي صنعت المجال الحيوي لتدخل الأولياء لمنع الحرب أو التخفيف من آثارها، وأعقبت ذلك بالتعرض إلى ظاهرة التبرك ببعض المقدسات كالزوايا والأضرحة وهروب العامة إليها في مثل هذه الظروف، ومن ضمن الظواهر التي وقفت عليها كإحدى سلوكيات المجتمع القيام بدفن أوليائهم في أبواب مدينة تلمسان اعتقادا في قدرتهم على حمايتها من هجمات الأعداء.

وختمت العمل **بخاتمة** تضمنت جملة من الاستنتاجات المتوصل إليها حول موضوع البحث.

وقد دعمت هذا العمل بمجموعة من الملاحق تضم بعض الرسائل المتبادلة بين سلاطين بني زيان مع نضرائهم في الأندلس تعكس علاقات الود والصداقة المتبادلة بين الطرفين؛ أما الملاحق الأخرى فهي عبارة عن بعض الصور للعملة الزيانية.

-دراسة نقدية للمصادر المعتمدة في البحث

فرضت طبيعة الموضوع الاعتماد على أجناس مختلفة من المصادر التاريخية الوسيطية منها كتب التاريخ والحوليات وكتب الرحلة والجغرافية وكتب التراجم والمناقب وغيرها، أخذ ترتيبها انطلاقا من أهميتها

في موضوع الدراسة، كما تم اعتماد مجموعة الدراسات الحديثة التي أمكن الاستفادة منها سواء على المستوى المعرفي أو المنهجي أو التنظيري للموضوع.

أولا: الحوليات التاريخية

1/ كتب الحوليات الزيانية

أ/ المصادر المفقودة

قبل الخوض في عرض أهم العناوين في هذا الغرض يجب التنويه إلى اندثار جزء هام من التراث الفكري للدولة الزيانية، وليس من الشك أنّ الأسباب الرئيسية هي الحروب والصراعات المتوالية بين الدولة الزيانية ونظيرتيها الحفصية والمرينية، فقد تم الكشف من خلال بعض مصادر المرحلة عن عناوين لمؤلفات أُلفت في تاريخ تلمسان –حسب دلالة العنوان- لكنها في حكم المفقود؛ فعلاوة على كتاب "**زهر البستان في دولة بني زيان (760-764هـ/1358-1362م)**" كاتبه مجهول وضعه في ثلاثة أسفار؛ لكن لم يصل إلينا منه سوى السفر الثاني الذي عُثر عليه في شكله المخطوط بمكتبة جامعة جون ريلاندز بمدينة مانشستر بإنجلترا تحت رقم 283 [796]؛ في حين ضاع منه جزءان وهما الأول والثالث، وقد لمسنا ذلك من خلال ما ذكره المؤلف في السفر الثاني عن وجود السفر الأول في بداية حديثه قائلا: "اعلم أنه تقدّم لنا في السّفر الأوّل"[1]؛ أما الثالث فقد أشار إليه في نهاية السفر الثاني في قوله "وهنا انتهى السفر الثاني من زهر البستان في دولة بني زيان. يتلوه السّفر الثالث بحول الله وقوته"[2].

ومن المصنفات الضائعة التي تعود إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري كتاب "**تاريخ تلمسان**" لابن هدية القرشي المتوفَ سنة 735هـ/1334م فقد قال عنه يحي بن خلدون الذي عاصر أبناء ابن هدية[3]

[1]-مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان (760-764هـ/1359-1363م)، تلمسان: الأصالة للنشر والتوزيع، (د.ت)، 4/2.

[2]- مجهول، زهر البستان، 238/2.

[3]- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2014، 426/2.

أنّ **"له تواليف جمة في فنون شتى"**[1] لكن أغلبها مفقودة[2] من بينها كتابه هذا المنسوب اليه.

ومنها أيضا كتاب **"درر الغرر"** الوحيد الذي أشار إليه هو التنسي[3]، ومؤلفه مجهول بالنسبة لنا ويبدو من خلال ما ذكره التنسي أنه عاصر أحداث الحصار الطويل[4].

ومما لا شك فيه أنّ غياب هذا الكم من المصادر سيكون لها تأثير على موضوع البحث والنتائج التي توصل إليها، فعلى سبيل المثال كتاب **"درر الغرر"** مثلا ما دام صاحبه عاش فترة الحصار الطويل فلا بد أنّه أعطى صورة واضحة المعالم لهذا الحصار ومختلف تداعياته على المجتمع سواءً النخبة بحكم قربه من السلطان أو العامة.

ب/ المصادر الموجودة

1-1بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد[5]: لصاحبه أبي زكرياء يحي بن خلدون (743-780هـ/1333-1378م) قام بتحقيقه والتعليق عليه الأستاذ عبد الحميد حاجيات، والكتاب يقع في جزأين خصه للحديث عن التاريخ السياسي والعسكري للدولة العبد الوادية منذ نشأتها إلى سنة 776هـ/1374م أي أربع سنوات قبل وفاته؛ اشتغل يحي بن خلدون في البلاطات الثلاثة بدءً بالبلاط الحفصي سنة 757هـ/1356م بعدها التحق ببلاط أبي حمو موسى الثاني سنة 769هـ/1367م حيث تقلد وظيفة كاتب السر لديه، وبعدها انتقل إلى البلاط المريني في ظروف غامضة لمح إليها في قوله: "ومن فارقته أيده الله لخيالات سوداوية اعْتَوَرَتْني، ونزعات شيطانية تجاذبتني، وسوء بختٍ تقاعس عن إدراك الفخر

---

[1]- ابن خلدون يحيا، أبو زكريا: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011، 154/1.

[2]- من العناوين الموجودة لابن هدية "العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس". "مشرع الخاتم لمشرع الخاتم".

[3]- عبد الجليل، التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، 2011، ص132.

[4]- المصدر نفسه، ص135.

[5]- عنوان هذا الكتاب ذكره صاحب نفح الطيب بصيغة: "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمُّو الشامخة الأطواد". أبو العباس أحمد، المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحساس عباس، بيروت: دار صادر، 1988، 133/7.

برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درَك الخسارة بي"[1]، ليعود مرة ثانية لخدمة أبي حمو سنة 776هـ/1374م.

وقربه من دواليب السلطة مكّنه من الإطلاع على بعض الوثائق الرسمية للدولة، ولهذا يعتبر كتاب بغية الرواد من الكتابات الرسمية للدولة العبد الوادية، كما يعتبر يحي بن خلدون شاهد عيان للعديد من الأحداث التاريخية الخاصة بفترة السلطان أبي حمو موسى الثاني، ولهذا أفرد الجزء الثاني من الكتاب للحديث حول الأحداث الخاصة بهذه الفترة، حيث ينفرد بوصفه للاستعراض العسكري الذي قام به هذا السلطان، بالإضافة إلى خروجه مع الجيش في بعض الحروب ووصفه للأحداث مع تحديد مددها، علاوة على بعض الإحصائيات لعدد الجند الزياني أمدنا ببعض المعلومات وإن كانت قليلة حول أزياء الجند ورواتبه، ولهذا يعتبر كتابه هذا من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث؛ لكن هذا لا ينفي خلوه من بعض النقائص وهي إغفاله عن ذكر بعض الحروب مثل معركتي وادي تلاغ 666هـ/1267م ووادي ايسلي 670هـ/1271م اللتين حدثتا في عهد السلطان يغمراسن ضدّ المرينيين على الرغم من أهميتهما التاريخية، وكذلك الاختصار وهو ما يظهر في حديثه حول الحصار الطويل الذي فُرض على العاصمة تلمسان وما له من تداعيات على السكان، زد على ذلك التستر على بعض النتائج التي أفضت إليها بعض الحروب؛ ولا نستبعد هذا من مؤرخ السلطان الذي تكمن مهمته الأولى في تمجيد ولي نعمته وتخليد أعماله.

2-1زهر البستان في دولة بني زيان (760-764هـ/1358-1362م): **لمؤلف مجهول قام بتحقيقه الأستاذ محمد بن أحمد باغلي، ويعتبر هو الآخر من الكتابات الرسمية للدولة لأنّ صاحبه عاش في بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) حسبما تشير إليه بعض القرائن، وهو السفر الثاني الموجود بين أيدينا؛ أما مجال الاستفادة فعلى الرغم من قصر المدة التي أرّخ لها هذا الجزء وهي أربع سنوات متتالية من عمر الدولة الزيانية، وهي الفترة الممتدة من سنة 760هـ/1359م إلى سنة 764هـ/1363م، لكن المعلومات بشأن هذه الفترة جاءت غزيرة جدا سواءً في الجانب السياسي أو العلمي، فهو يحتوي على معلومات جد مهمة حول شخصية السلطان أبو حمو موسى الثاني ووالده أبو يعقوب.**

[1] - ابن خلدون، بغية الرواد، 230/2.

وتكمن الاستفادة منه أولا في عرضه للأحداث التي تخللت حروب أبي حمو في هذه الفترة بدءً بالإعداد المسبق للحرب من خلال تجهيز الجيش ثم خروجه للحرب، كما احتوى هذا الكتاب مادة مهمة جدا فيما يخص السفارات المتبادلة بين الدولتين الزيانية والمرينية في هذه المرحلة بالعرض والتفصيل الدقيقين.

1-3 كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة 808هـ/1405م، الكتاب له أهمية بالغة في التاريخ السياسي للمغرب الإسلامي والأندلس، بحكم تجول ابن خلدون بين هذه الدول واشتغاله في البلاطات الأربعة، وقد كشف هذا المصنف عن العلاقات السياسية القائمة بين هذه الدول.

وتجدر الإشارة إلى المادة العلمية القيمة التي زودنا بها هذا الكتاب من خلال جزأيه السادس والسابع بشأن العلاقات السياسية والعسكرية بين الدولة الزيانية مع نظيرتيها المرينية والحفصية وعرضه للأحداث السياسية كالسفارات والهدايا المتبادلة بين هذه الأطراف ومع دول المشرق والأندلس، كما كان ابن خلدون دقيقا في نقله للوقائع التاريخية والحروب التي شهدتها الفترة محل البحث نذكر على سبيل المثال حديثه المفصل حول الحصار الطويل وتداعياته على المجتمع، كما زودنا بمجموعة من النصوص حول بعض شرائح المجتمع الزياني كالمرأة والطفل والجند ووضعيتهم زمن الحروب. وانتهى ابن خلدون في تأريخه للأحداث عند سنة 796هـ/1393م.

1-4 كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان[1]: لصاحبه أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني (ت899هـ/1493م)، وهو القسم الخاص بتاريخ بني زيان قام بتحقيقه محمود بوعياد سنة 1985؛ ألّف التنسي كتابه هذا للسلطان محمد المتوكل الذي حكم (866-873هـ/1461-1468م) وكان الغرض الأول من ذلك هو إثبات شرف هذا السلطان، وما يميّز هذا الكتاب هو أنه أرّخ لفترة طويلة تزيد عن سبعين سنة من عمر الدولة الزيانية، حيث بدأ مجال الاستفادة من حيث انتهى كل من يحي وعبد الرحمن بن خلدون، وبذلك تكمن أهميته فيما يخص أخبار القرن التاسع الهجري السابع عشر الميلادي التي ختمها عند سنة 868هـ/1463م، لكنه اعتمد الاختصار المخل للعديد من الأحداث التاريخية ذات الأهمية البالغة وتجاوز عن ذكر بعضها.

[1]- نذكر العنوان الكامل حسبما أورده التنسي في مقدمة الكتاب حيث يقول وسميته: "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان".

2/ كتب التاريخ السياسي للدولتين المرينية والحفصية

تقتضي عملية البحث حول حروب العهد الزياني وما لها من تداعيات على المجتمع إلى الإطلاع على المدونتين المرينية والحفصية نظرا للصلات التاريخية وتشابك الأحداث فيما بينها، وذلك كي أتمكن من الإلمام بالقدر الكافي من المعلومات الخاصة بحروب الفترة محل الدراسة.

2-1كتب الحوليات المرينية

أمدتنا كتب الحوليات الخاصة بالدولة المرينية بمادة مهمة جدا من المعلومات التاريخية التي كشفت عن طبيعة الحروب التي شنها سلاطين الدولة على بني زيان، ويأتي في طليعة هذه المصادر "**الأنيس المطرب**" لأبي زرع الفاسي و"**الذخيرة السنية**" لمؤلف مجهول و" **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**" في جزأيه الثالث والرابع للناصري، والتي جاءت مشحونة بالكثير من الأخبار السياسية والعسكرية، وتظهر أهميتها في تتبع الحملات العسكرية وتحديد مددها نظرا لما تتميز به من الدقة في تحديد تواريخ هذه الحروب، كما أفادتنا بالشيئ الكثير فيما يخص تأثيراتها السلبية على المجتمع الزياني فقد كشفت لنا عن العديد من مظاهر العنف التي مورست على كافة فئات المجتمع الزياني من قتل وأسر وسجن وهروب ونفي، بالإضافة إلى الظواهر الاقتصادية المتفشية بسبب الحصارات كالفقر والمجاعة.

2-2كتب الحوليات الحفصية

وبالمثل تم الاطلاع على كتب الحوليات التاريخية الخاصة بالعهد الحفصي وتجلت في ثلاثة مصادر الأول بعنوان: **"تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"** للزركشي (ت بعد 894هـ/1488م)، والثاني يحمل عنوان: **"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"** لابن قنفذ القسنطيني (810هـ/1407م)، وقد أسعفتنا في الجانب الخاص بالعلاقات السياسية بين الدولتين الزيانية والحفصة والحروب التي تخللت الفترة محل البحث؛ أما الثالث فهو تحت عنوان: **"الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية"** لابن الشماع (كان حيا سنة 861هـ/1456م) وعلى العموم فإنّ هذا الكتاب وُصف بالضعف من ناحية المعلومات والقيمة الإخبارية، وحتى الأسلوب الذي كُتب به حسب رأي المحقق[1]، وهو ما ينطبق على ما رواه من أحداث بشان العلاقات بين الحفصيين والزيانيين وما تخللها من أحداث.

[1] - أبو عبد الله محمد، بن أحمد ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984، ص20. مقدمة المحقق.

3/كتب الرحلة والجغرافية

كانت كتب الرحلة ذات أهمية بالغة في هذا البحث نظرا لتنوع وغزارة المادة التاريخية التي قدمتها لنا وإن كانت متفاوتة من مصدر إلى آخر نذكر في طليعتها رحلة ابن خلدون ووصف إفريقيا.

1-التعريف برحلة ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لعبد الرحمن بن خلدون، قام بتأليفه سنة 807هـ/1404م، وهو كتاب عظيم الأهمية وكانت الاستفادة بشكل مكثف فيما يخص مختلف الأدوار السياسية التي اضطلع بها كمندوب لدى القبائل العربية والبربرية وذلك لسببين؛ أولا من أجل استمالتها وإدخالها في الجيش الزياني في فترة حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م)، ثانيا إرضاخها لدفع الجباية للسلطة الزيانية، وفي سياق ذكره لمشيخته استفاد موضوع البحث فيما يخص الأدوار المختلفة التي اضطلع بها الفقهاء والعلماء أثناء الحروب.

2- **وصف إفريقيا** للحسن بن محمد الوزان الفاسي (كان حيا 957هـ/1550م) ألّفه سنة 933هـ/1526م نقله إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر؛ ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الرحلة للقرن العاشر الهجري 16م لما يحتويه من معلومات قيمة ليس في مجال الجغرافية فحسب، وإنما لاحتوائه على مادة مهمة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لمجتمعات المغرب الثلاثة، وقد استفاد البحث كثيرا في جزئه الثاني حيث تم الوقوف من خلاله على حالة الصناعة والتجارة في العهد الزياني في الفترة المعنية بالدراسة، كما أمدنا بمعلومات وافية فيما يخص الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبعض الفئات الاجتماعية كالحرفيين والفلاحين، وقد أُثريَ البحث بمجموعة وافية من النصوص التي تحدثت حول ظاهرة الفقر المتفشية في المجتمع الزياني بسبب الحروب الخارجية وغارات القبائل العربية، كما أمكن الوقوف من خلاله على حجم الخراب الذي طال بعض المدن بسبب الحروب وهجرة السكان نتيجة لذلك، ويعتبر كذلك كتاب الوزان من أهم المصادر التي نقلت لنا معلومات حول الغزو الإيبيري لمنطقة المغرب الأوسط وما له من انعكاسات على شرائح المجتمع الزياني وبخاصة السلطان والمرأة والأسير،كما استفاد البحث أيضا بمعلومات قيمة حول القبائل العربية والبربرية وأماكن استقرارها وأدوارها المختلفة في حروب العهد الزياني؛ ويعتبر كتاب "**إفريقيا**" لمارمول كاربخال (ت بعد 979هـ/1571م) ضمن هذا النوع من الكتب لكنه نقل العديد من النصوص من كتاب الوزان.

فضلا عن هذين المصدرين فقد تمكن من الاستفادة من مجموعة أخرى من هذا الجنس من المصادر ونذكر منها: "**المغرب في حُلى المغرب**" لأبن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م)، و"**الروض**

المعطار في خبر الأقطار" لعبد المنعم الحميري (ت727هـ/1326)، و"**رحلة العبدري**" لأبي عبد الله محمد العبدري (ت760هـ/1358م)، و"**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**"، لابن فضل الله العمري (ت749هـ/1348م)، و"**فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**" لابن الحاج النميري (ت بعد 774هـ/1372م)، ورحلة ابن بطوطة المسماة "**تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**" لأبي عبد الله محمد اللواتي الطنجي (ت779هـ/1377م)، و"**نُفاظة الجراب في عُلالة الاغتراب**" للسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م)؛ وقد أدى الاختلاف بين مدد الإقامة بين الرحالة الذين زاروا تلمسان إلى تباين المعلومات التي قدموها لنا أحيانا في الوصف وأحيانا في تحديد التواريخ والمدد الزمنية لبعض الأحداث، لكن تمكن الوقوف من خلالها على العديد من القضايا التاريخية الخاصة بمرحلة البحث منها الاقتصادية كالحديث حول المجاعات التي طالت المغرب الأوسط وتأثيراتها على السكان، كما أفادتنا بمعلومات حول العمران المدني وسياسة تخزين المؤن، كما أوقفتنا على حالة الطرق غير الآمنة في مثل هذه الظروف وصعوبة التنقل فيها، وما يعاب على بعض هذه المصادر أنها أطنبت في حديثها على الدولتين المرينية والحفصية مقابل إجحافها فيما يخص الدولة الزيانية.

4/ كتب المناقب

زيادة على أصناف الكتب التي سبق ذكرها تم الاستفادة كذلك من كتب المناقب وفي طليعتها كتابين لابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/1379م) الأول يحمل عنوان: "**المناقب المرزوقية**" تحقيق الأستاذة سلوى الزاهري، وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو الحديث حول بيت المرازقة حيث عرض فيه سيرة أجداده وأعمامه وسيرته الذاتية، والثاني تحت عنوان: "**المسند الصحيح الحسن في مآثر ومعاني مولانا أبي الحسن**" ألفه في مناقب ولي نعمته السلطان أبي الحسن المريني بعد عشرين سنة من وفاته، قامت بدراسته وتحقيقه ماريا خيسوس بيغيرا، بالإضافة إلى كتاب "**التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السّبتي**" لابن الزيات التادلي (ت617هـ/1220م)، بالإضافة إلى كتاب "**مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**"، لأبي عمران موسى بن عيسى المازوني، تحقيق الأستاذ عبد القادر بوباية، وتكتسي المادة المستقاة من هذا الجنس من المصادر أهميتها في الكشف عن سلوك المتضررين من الحرب، وذهنيتهم المتأثرة بالحروب والفتن، حيث تم الوقوف على العديد من النصوص تبين علاقة المجتمع الزياني بالأولياء وإقبال المستضعفين عليهم يلتمسون الحماية منهم ومن الأماكن المقدسة على اختلافها فتمكن رصد الأدوار الإيجابية للأولياء تارة من خلال

الأفعال وتارة أخرى من خلال الكرامة الصوفية، كما رصدت لنا أيضا ظاهرة دفن الأولياء على أبواب تلمسان طلبا للحماية، وتكمن كذلك أهمية كتب المناقب في موضوع البحث في التأريخ لبعض القضايا السياسية كالسفارات حيث انفردت بذكر بعض السفارات المتبادلة بين الأطراف المتصارعة التي لم تأت على ذكرها كتب الحوليات.

5/كتب التراجم

ولم يكن البحث ليغفل استثمار ما قدمته كتب التراجم والطبقات وكان في طليعتها: **"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"** لابن مريم (كان حيا سنة 1025هـ/1616م)، و**"نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج"** و**"كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج"** للتنبكتي (ت1036هـ/1626م)، الذين ترجموا لأولياء وعلماء تلمسان، فتمكن الكشف عن طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية التي أفرزتها الحرب من خلال الوقوف على أعمال التضامن التي قامت بها نخبة تلمسان وموقفهم من الحرب في مرحلة البحث، كما قدمت لنا مادة في غاية الأهمية فيما يخص دور العمران الديني المتمثل في القبور والأضرحة والزوايا وبيوت المتصوفة التي أصبحت ملاذا للناس، كما كشفت عن ظاهرة دفن صلحاء تلمسان إلى جوار أبوابها، ولهذا تعتبر هذه الكتب بحق مكملة لما أوردته كتب المناقب.

6/ كتب الفقه والنوازل

وفي هذا الجنس من المصادر أخص بالذكر كتاب **"المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"** للونشريسي (ت914هـ/1508م)، قام بتحقيقه مجموعة من الفقهاء، فمن خلال بعض النوازل الواردة فيه تمكن الوقوف على انعكاسات الحرب على بعض شرائح المجتمع كالمرأة والطفل والأسير منها ظاهرتا الخوف والهروب بسبب الحروب، كما أفادتنا أيضا بعض الفتاوى حول جواز اتخاذ بعض الأدوات الحربية من الذهب والفظة التي كانت شائعة بين ملوك المغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

7/كتب الآداب السلطانية ومرايا الملوك

وفي مقدمة هذه الكتب نذكر **"واسطة السلوك في سياسة الملوك"** لأبي حمو موسى الزياني الثاني(ت791هـ/1388م)، و**"الشهب اللامعة في السياسة النافعة"** لابن رضوان المالقي (ت783هـ/1381م)، و**"الأحكام السلطانية والولايات الدينية"** و**"نصيحة الملوك"** للماوردي

(ت450هـ/1058م)، أفادتنا فيما يخص أهمية الحرب في تاريخ الدولة من خلال التدبير لها على المستوى المادي والرمزي وذلك من خلال عرضها لمختلف النظريات السياسية المؤطرة للحرب وكل ما له علاقة بها من قريب أو من بعيد، كما تناول أيضا هذا النوع من الكتب مختلف الخطط السياسية ودراسة جهاز الدولة.

أما "**مقدمة ابن خلدون**" فقد كانت لها أهمية بالغة في موضوع البحث وتعتبر المصدر الأساسي في تحليل وتأطير مختلف القضايا التي ضمنها البحث.

8/ المراجع:

أمام ندرة الدراسات السابقة التي تناولت موضوع "**انعكاسات الحروب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط الزياني (633-962هـ/1235-1555م)**". فقد لجأت إلى بعض الكتب الأخرى التي أمكن لي الاستفادة منها سواء على المستوى المعرفي أو على مستوى المنهج والتنظير للموضوع وفي طليعتها كتاب "**الحرب والمجتمع تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية**" لجاستون بوتول ويعتبر كتابه هذا مرجعية هامة لدراسة ظاهرة الحرب، ورغم صغر حجمه إلاّ أنّه استطاع مؤلفه أن يقدم من خلاله دراسة شاملة تهدف إلى التعريف بسوسيولوجية الحرب وتحليل مختلف الآثار والنتائج الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية والسياسية والسكانية على المجتمع، وقد اعتمد عليه العديد من الباحثين العرب أثناء دراستهم لهذه الظاهرة. وكذلك كتاب الأستاذ الدكتور حميد تيتاو الذي يحمل عنوان: "**الحرب و المجتمع بالمغرب خلال العصر المريني (609 -869هـ/1212-1464م)**"؛ والملاحظ أن الكتاب احتوى جزءا كبيرا من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي إلا أنه تضمن فصلا كاملا تحت عنوان "**آثار الحرب في المجتمع والذهنيات بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني**"، إذ تتبع فيه انعكاسات الحرب على سلوك وذهنية المجتمع المريني، فكانت هذه الدراسة بمثابة الأرضية الصلبة التي انطلقت منها للبحث في موضوعي هذا فكانت الاستفادة منه على عدة مستويات خاصة التنظير والمنهج في دراسة الظاهرة، واعتمد البحث أيضا على كتاب "**تلمسان في العهد الزياني**" للأستاذ عبد العزيز فيلالي الذي أثرى موضوع البحث بالعديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي مست المجتمع الزياني في فترات الحروب والصراعات، كما توسعنا في مجال الاستفادة إلى دراسات أخرى للباحث خالد بلعربي التي تضمنها كتابه "**ورقات زيانية**" حيث أنارت العديد من زوايا بحثنا هذا.

كما استفاد البحث أيضا من العديد من المراجع المتخصصة لثلة من الباحثين المغاربة والتونسيين أثناء البحث في ظاهرة العنف التي استفحلت في العهد الزياني، والتي تعتبر نتيجة حتمية للصراع الدائر بين الأطراف المتحاربة، نذكر من هذه العناوين: كتاب "**السلطة والعنف في الغرب الإسلامي**" وكتاب"**النفي والعنف في الغرب الإسلامي**" لحميد الحداد، وكتاب "**الموت في مصر والشام (1250-1517) النكبات الديموغرافية في العهد المملوكي**" لبلقاسم الطبابي وكتاب "**السلطة والعنف والجنس**" لعبد الرزاق عمار وكتاب "**الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**" لمحمد حقي، وكتاب "**من تاريخ التعذيب في الإسلام**" للهادي العلوي، وأخيرا كتاب "**السجن والسجناء**" لمصطفى نشاط.

ولابد أن أشير إلى أنّ البحث استأنس ببعض الدراسات الأكاديمية كالأطاريح ورسائل الماجستير أذكر منها: أطروحة الأستاذ محمد أستيتو الموسومة ب "**الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16و17م** "، وقد عالج فيه ظاهرة الفقر وبحث في تاريخ شريحة منسية وهي شريحة الفقراء، وقد أنارت أطروحة محمد استيتو بحثي هذا خلال دراسة ظاهرة الفقر المترتبة عن الحروب والحصُر التي عايشها المجتمع الزياني، وفي ورسالة ماجستير لسمية مزدور تحمل عنوان: "**المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)**" التي تناولت أزمتي الجوع والوباء في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ويتقاطع موضوع البحث معها في هاتين الظاهرتين كونهما من ضمن النتائج المترتبة على المجتمع بسبب الحروب.

وأمام الثورة الحاصلة في تقدم العلوم المستخدمة في الدراسات التاريخية الحديثة وبالأخص حقل تاريخ الأفكار والذهنيات وجدنا أنفسنا أمام ضرورة ملحة لاستخدامها ومن هذه العلوم: علم الاجتماع العسكري وعلم النفس الحربي، و قد تمكنت من الاطلاع على مجموعة من المراجع المتخصصة منها: **كتاب "علم النفس العسكري**" لعبد الرحمن محمد العيسوي وكتاب "**عندما يكون الأطفال ضحايا الحروب**" لسوسن ماهر وكتاب "**واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل**" لكريستين نصار.

7-صعوبات البحث

لا أنفي مواجهتي لبعض الصعوبات التي واجهتني أثناء القيام بانجاز هذا البحث أذكر منها:

أولا: قلة المتون النصية التي جاءت على ذكر أخبار بعض الفئات الاجتماعية خاصة الفئات المتوسطة والدنيا في أوقات الحروب والنزاعات المستمرة التي شهدها العهد الزياني، وكذا عدم التعرض لبعض الظواهر والقضايا الخاصة بتداعيات الحرب على المجتمع على مستوى الأفكار والذهنيات.

ثانيا: طول فترة حكم الدولة الزيانية التي تزيد على ثلاثة قرون وكثرة الحروب التي عايشتها داخليا وخارجيا ما يستدعي قراءة المدونات الوسيطية الثلاثة الزيانية والحفصية والمرينية زد على ذلك الإطلاع على بعض مصادر التاريخ الحديث التي أرخت للفترة الأخيرة من عمر الدولة؛ مما يعني أنّ المادة التاريخية التي تهم الموضوع مشتتة وجمعها ليس بالأمر السهل.

ثالثا: شكل عزوف الباحثين الجزائريين الولوج إلى دراسة مثل هذه المواضيع ذات الأهمية البالغة في الدراسات الحديثة أحد الصعوبات التي واجهتني في مراحل هذا البحث، حيث لم أجد سوى إطلالات بسيطة في خضم الدراسات المنجزة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية.

وفي الأخير آمل أن يكون هذا العمل إضافة علمية بمنهجية أكاديمية لتاريخ المغرب الأوسط خلال العهد الزياني في حقل تاريخ الأفكار والذهنيات.

وفي الختام أتقدم بجزيل الشكر وأعظم الامتنان إلى أستاذي الفاضل: **الأستاذ الدكتور مزيان وشن** رحمة الله عليه، الذي ما انفك يمدّني قبل وفاته بمعظم هذه المصادر والمراجع حيث جعل مكتبته في خدمتي ورهن إشارتي، ولم يبخل علي بسديد آرائه وبليغ توجيهاته برحابة صدر وطول أناة، وفي الختام فلست أجد من العبارات سوى أن أقول غفر الله لك أستاذي وجعل مثواك الجنة.

الفصل الأول

موارد الدولة الزيانية وأهميتها في تمويل الحروب

المبحث الأول: الدولة الزيانية والحرب، المقوم المالي والبشري.

المبحث الثاني: نفقات الحرب.

المبحث الأول: الدولة الزيانية والحرب، المقوم المالي والبشري

كانت الدولة الزيانية دولة عسكرية مثلها مثل الدول التي حكمت المغرب الإسلامي على غرار المرابطين والموحدين؛ ومما لا شك فيه أنّ الاستعدادات العسكرية المختلفة تتوقف على ميزانية الدولة ومواردها المالية؛ وقد أكد السلطان أبو حمو الثاني (760-791هـ/1358-1388م) في نظريته على "أنّ المال قوة السلطان، وعمارة المملكة"[1]؛ أما ابن خلدون فيجمع هذا في قوله بأنّ "مبنى الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام اولائك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين"[2]. وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن المصادر التي كانت تمول خزينة الدولة لتمويل حروبها خلال مرحلة البحث. **فما هي الموارد المالية والبشرية التي كانت تمول خزينة الدولة الزيانية؟**

أولا: المقوم المالي

تنوعت المصادر المادية التي كانت تمول خزينة الدولة وذلك بفضل إجراءات حاسمة قام بها سلاطين بني زيان من أجل تغطية نفقات حروبهم وتمثلت هذه المصادر في الغنائم والجبايات والتجارة الخارجية.

1-الغنائم

أدت بعض الانتصارات للجيش الزياني إلى الاستحواذ على غنائم الخصم، والحقيقة أنّ هذه الغنائم التي يتم الحصول عليها عن طريق الحرب تكون متنوعة؛ إما أموالا عينية أو أسلحة وغالبا ما تكون عبارة عن غلات البساتين والماشية؛ وأول هذه الغنائم التي يمكن الحديث عنها الموروث المادي الهام الذي تمكن السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)[3] من وضع يده عليها بعد تغلبه على

---

[1]- أبو حمو موسى، يوسف بن يعقوب الزياني الثاني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: محمود بوترعة، جزء واحد، الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع- الجزائر: دار النعمان للطباعة والنشر، 2012، ص196.

[2]- أبو زيد عبد الرحمن، ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط5، دراسة وتحقيق: علي عبد الواحد وافي، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، ص311.

[3]- هو أبو يحيا يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية ولد سنة 603هـ/1206م أو 605هـ/1208م بويع يوم الأحد 24 ذي القعدة سنة 633هـ/1235م اختلف المؤرخون في تحديد عمره حيث حدده صاحب البغية ب 79سنة في حين يذكر التنسي أنه مات وعمره 96 سنة. استمر حكمه لمدة 44 سنة و5 أشهر و12 يوما، وكان آية في الجراءة

السعيد الموحدي (640-646هـ/1242-1248م) وذلك حسبما يشير إليه صاحب البغية في قوله: "فاستولى أمير المسلمين أبو يحي يغمراسن رضي الله عنه على ذخائر الدولة المومنية...وحاز ...جميع المحلات بما فيها من متاع ومال وكراع"[1]، ومن ذلك أيضا نذكر ما حدث في عهد السلطان أبي حمو الثاني بعد استرجاعه لمدينة تلمسان سنة 760هـ/1358م من أيدي بني مرين حيث "أحصى ما غادرته الدولة الذاهبة من متاع وزرع وسلع بحرية وما حوته هدية الملك المتوفى إلى ملك قطلان[2] من خيل عتيقة وسروج مفرغة رُكّبها من ذوب اللجين، ولجم موشية وأسباب مختارة، وفتح بين يديه الكريمتين أعلى الله مقامه، صندوق الأوقاف المنوّعة مفعما ذهبا وفضة"[3].

وفي إطار الصراع المحتدم بين السلطة الزيانية والقبائل البربرية من بني تجين ومغراوة التي بسطت سيطرتها على أقاليم طبيعية هامة غالبا ما ينتهي بإخضاعها والاستيلاء على ممتلكاتها المتمثلة في الغلات المتنوعة من زرع وحبوب وحيوانات وغيرها؛ وبعد هزيمة تجين أمام عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) [4] سنة 686هـ/1287م "اكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعدادا لما يتوقع من حصار مغراوة إيّاها"[5]، كما استولى أبو تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1336م)[6] على

والشجاعة والدهاء جليلا مهيبا متواضعا محبا للصلحاء وأهل العلم ومهتما بالتشييد؛ من آثاره باب كشوط وصومعتي =جامعي تلمسان القديمة والحديثة. وامتاز عهده كذلك بكثرة الحروب والصراع توفي يوم الاثنين 29 من شهر ذي القعدة وكانت مدة حكمه 44سنة انظر التفاصيل حول حياته ابن خلدون، بغية الرواد، 225/1-229. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص115-128.

[1] - ابن خلدون، المصدر السابق، 227/1.

[2]- كان أبو عنان قد أعد هدية ثمينة ليبعثها إلى ملك قطلان لكن الموت سبقه.

[3] - ابن خلدون، المصدر السابق، 37/2.

[4]- هو أبو سعيد بن يغمراسن بن زيان وُلد سنة 639هـ/1241م بويع في أوائل ذي الحجة سنة 681هـ/1282م بعد وفاة أبيه السلطان يغمراسن، وكان شهما مقداما شجاعا حكم لمدة واحد وعشرين سنة توفي عام 703هـ/1303م وفيه اختلاف حول أسباب وفاته. أنظر ابن خلدون، المصدر السابق، 229/1-230. التنسي، المصدر السابق، ص129-131.

[5]- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 2006، 109/7.

[6]- هو أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى ولد سنة 692هـ/1292م بويع بالخلافة يوم الخميس 23 جمادى الأولى سنة 718هـ/1318م، وكان سببا في وفاة والده. تحضرت الدولة في عهده وشهدت نهضة عمرانية لأنه كان مولعا بالبناء والتشييد، عرف أيضا بالشجاعة ودام ملكه 19 سنة. انظر ابن خلدون، بغية الرواد، 238/1-243-244.

أموال تجين ومغراوة بجبل وانشريس سنة 719هـ/1319م[1]، وفي إطار الصراع المحتدم بين السلطان أبي حمو وابن عمه أبي زيان ومن انضم إليه من العرب تمكن جيش أبي حمو من إلحاق الهزيمة بهم عدة مرات فتحدثت المصادر عن الأموال والغنائم الكثيرة التي انتفعت بها خزينة الدولة في هذه المرحلة نذكر منها "واجتاح الناس ما ألفوه بحمزة من الزّرع قائمة والحصيد، وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة والضروع"[2]؛ و"وقع في أموالهم النهب الشنيع"[3] و"سَرَتْ إلى ولده الأمير أبو تاشفين على أموال العرب بالانتهاب والسبي... فأقبل بالمحلَّتين غانما إلى حضرة أبيه، ظافرا من الأمل بما تشتهيه"[4]، و"انقلب الوزير عبد الله بن مسلم بمالٍ وافرٍ من الخراج"[5]، و"نزل ببقود وسط بلادهم وأطلق أيدي النهب فيها فلا تسأل عما استولت عليه من زرع ومتاع وضرع، فليس ذلك مما يحصى ولا يحصر"[6].

وخلال الغارات المتكررة التي شنها السلطان أبو تاشفين الأول على الأقاليم الشرقية كشفت النصوص التاريخية على أموال وغنائم كثيرة تمكن من وضع يده عليها؛ ففي سنة 720هـ/1320م بعث قواده إلى الشرق فعادوا إليه بالظفر والغنيمة[7]، وفي سنة 730هـ/1329م ألحق هزيمة شنعاء بالسلطان أبي يحي الحفصي استولى فيها على ذخائره ومحلاّته[8]، أما السلطان أبي ثابت (749-753هـ/1348-1352م) فبعد تفوقه في حربه على جيش السلطان أبي الحسن (731-749هـ/1330-1348م) في شعبان سنة 751هـ/1350م عاد إلى حضرته "بالظفر الذي لا مثله، والغنائم التي ليس فوقها"[9].

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 239/1.

[2]- المصدر نفسه، 127/2.

[3]- مجهول، المصدر السابق، 199/2.

[4]- المصدر نفسه، 199/2.

[5]- المصدر نفسه، 200/2.

[6] - ابن خلدون، بغية الرواد، 217/2.

[7]- المصدر نفسه، 239/1.

[8]- المصدر نفسه، 242/1.

[9]- المصدر نفسه، 261/1-262.

2-الجبايات

كانت الضرائب والمغارم التي تفرضها السلطة على الرعية إحدى المصادر الهامة التي تمول خزينة الدولة الزيانية نظرا لارتباطها الوثيق باقتصاد الدولة، خاصة في الظروف العسيرة كظروف الحرب حينما تكون الدولة في حاجة إلى مزيد الأموال من أجل عطاء الجند وأرزاقهم وتجهيز الجيوش "فلا جيش إلاّ بمال ولا مال إلاّ من جباية، ولا جباية إلاّ بعمارة"[1]، ويبين ابن خلدون (ت808هـ/1405م) ذلك في قوله:" فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية ... فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البيعات، ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ... زيادة الجيوش ...."[2].

لكن دفع الضرائب لم يكن مقبولا من مختلف القبائل ولذلك قامت مواجهة بين السلطة والقبائل التي كانت ترفض دفع الضرائب وخير دليل على ذلك الحرب التي شنها السلطان أبو حمو الثاني (760-791هـ/1358-1388) سنة 778هـ/1376م على سالم بن إبراهيم كبير قبيلة الثعالبة المستبد على مدينة جزائر بني مزغنة وخراجها، فقد رفض دفع الجباية اللازمة للسلطة، ومن أجل ذلك لم يتورع السلطان أبو حمو في شن حرب ضدّ إبراهيم من أجل تحصيل أمواله[3]، وعندما تيقن هذا الأخير بعدم قدرته على المواجهة أعلن طاعته ورضوخه لدفع الجباية[4]؛ وهذه الحادثة تؤكد لنا حرص أبي حمو على جمع المال وهذا ما دفع لسان الدين بن الخطيب بأن يصفه بأنه "كان جماعا للمال...حلب ضرع الجباية"[5].

ونلاحظ أن سياسة أبي حمو الثاني المالية جاءت بالفائدة الكبيرة على خزينة الدولة ليس على المستوى الداخلي فحسب وإنما الخارجي كذلك، بدليل أنّه استطاع أن يقدم إعانات اقتصادية معتبرة لأهل الأندلس خلال سنوات 763هـ/1361م و 767هـ/1365م، قام صاحب البغية بتقديرها فكانت

1- أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص196.

2- المصدر نفسه، ص295-296.

3- وداد، القاضي: "النظرية السياسية للسلطان ابي حمو الزياني الثاني ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها، مقال ضمن كتاب مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا"، الجزائر: القافلة للنشر والتوزيع، 2011، ص148.

4- ابن خلدون، العبر، 7/163-164.

5- أبو عبد الله محمد، لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي طويل، لبنان: دار الكتب العلمية، 3/287.

الإعانة تتمثل "بخمسين ألف قدح من الزرع، وثلاثة آلاف من الذهب"[1]، والثانية تحتوي "أحمالا عديدة من الذهب والفضَّة ، والخيل المسوَّمة، والمراكب المشحونة زرعا"[2].

وممن كانت له عناية أيضا بجمع الضرائب نظرا لأهميتها هو السلطان أبو تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1336م) ومن موقفه أنه عمد إلى حصار بجاية من أجل إخضاعها، وفي تلك الأثناء كان يستوفي جباية أهلها بعد تشديد الحصار عليهم[3]؛ ومن القرائن التي تثبت لنا ثراء الدولة في عهده هو الإرث المادي الكبير الذي استحوذ عليه السلطان أبو الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م) بعد سقوط تلمسان في يده[4].

3-التجارة الخارجية

كانت تلمسان بماضيها وموقعها ومحتواها البشري وتراكماتها الحضارية مؤهلة لأن تلعب دورا رياديا في الحركة الاقتصادية للمغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة[5]، ومما ساعد على تنشيط التبادل التجاري داخليا وخارجيا هو الموقع الجغرافي الهام لها، حيث كانت ملتقى الطرق التي تربط بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، كما كانت حلقة وصل بين أوربا والسودان الغربي.

لا مشاحة أنّ أمراء بني زيان الذين تعاقبوا على حكم الدولة أولوا عناية فائقة بالتجارة نظرا لما تُدِرُّهُ من أرباح لخزينة الدولة، خاصة على عهد السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م) الذي كان حسب ابن الأحمر رجلا ذكيا تنبّه إلى ما تجلبه التجارة لبلده من خير[6]؛ فأضحت التجارة أهم نشاط اقتصادي في الدولة، استقطبت العديد من التجار من مختلف المدن وهو ما أشار إليه البكري

1- ابن خلدون، بغية الرواد، 107/2.

2- المصدر نفسه، 165/2.

3- ابن خلدون، العبر، 128/7.

4- أحصى لنا الناصري ذلك في قوله: "واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديع الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الأثاث والماعون". أبو العباس أحمد، الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954، 126/3.

5- عبد العزيز، لعرج: "تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية"، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3-4، تلمسان، جمادى الأولى والثانية 1432هـ/ أفريل-ماي 2011، ص28.

6- أبو الوليد اسماعيل، ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط: المطبعة الملكية، 1962، ص17.

(ت487هـ/1094م) حينما وصفها قائلا: "تلمسان إنها قاعدة المغرب الأوسط لها أسواق ومساجد ...ومقصد لتجار الآفاق"[1].

وتقوم شهادة لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م) حول الازدهار التجاري في العهد الزياني يضيف في قوله: "أصبحت التجارة مصدر ثروة الزيانيين وأضحت متاجره فريدة من نوعها"[2]، وحسبنا كذلك ما قاله مارمول (ت1009هـ/1600م) أنّ فيها أغنى تجارة بإفريقيا[3]، وعلى مدينة تستاسة[4] يضيف بأنّها "على درجة كبيرة من الغنى والعمران بفضل التجارة"[5]، وبالمثل فقد اشتهرت مزغان بالتجارة[6] وكذلك مدينة ميلة[7]؛ ومما ساعد على نشاط الحركة التجارية هو موقع تلمسان على شبكة من الطرق تسهل التنقل بين مختلف المدن الداخلية للمغرب الأوسط[8] والأقاليم الخارجية[9].

---

[1]- أبو عبيد عبد الله، البكري: المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب، تقديم: حماه الله ولد السالم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2013، ص164.

[2]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 341/1.

[3]- مارمول، كاربخال: إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الرباط: مطابع المعارف الجديدة، 1989، 302/2.

[4]- مدينة كبيرة عتيقة تقع في سهل خصيب وتبعد عن بجاية بعشرين فرسخا من جهة الجنوب، وهي على الطريق المؤدية من فاس إلى تونس. أنظر مارمول، إفريقيا، 382/2-382.

[5]- المصدر نفسه، 382/2-383.

[6]- المصدر نفسه، 349/2.

[7]- محمد عبد المنعم، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: منشورات مكتبة لبنان، 1984، ص569.

[8]- أما الطرق الداخلية فقد وصف بعضها الإدريسي (493-561هـ/1099-1165م) قائلا: " والطريق من تلمسان إلى مدينة تنس سبع مراحل... والطريق من تلمسان إلى مدينة وهران الساحلية وهما مرحلتان كبيرتان وقيل بل هي ثلاث مراحل... والطريق من مدينة تلمسان إلى مدينة المسيلة من تلمسان إلى مدينة تاهرت أربع مراحل...". الشريف، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2003، ص82-83- 84. أما ابن سعيد المغربي (610-685هـ/1214-1286م) فجاء وصفه للمسالك التجارية في منطقة تلمسان وصفا دقيقا يوضح ذلك قائلا: "إلى أرشغون فرضة تلمسان وحيث ينصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلا. ومنه إلى فرضة هونين اثنا عشر ميلا. وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية...وتقع تلمسان المشهورة حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاثة وثلاثون ميلا". ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1955، ص.

[9]- أما عن المسالك الخارجية فيضيف الإدريسي قائلا: "وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من سجلماسة فالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس، ومن فاس إلى صفرُوى إلى تادلة إلى أغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة...ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب". المصدر السابق، ص81-82.

أ- سجلماسة وأهميتها التجارية

فضلا عما تدره الضرائب والجبايات على خزينة الدولة الزيانية نضيف كذلك مورد آخر وهو التجارة الخارجية مع بلاد السودان في هذه المرحلة حيث تشير الباحثة لطيفة بشاري إلى أهمية مدينة سجلماسة[1] في التجارة الخارجية مع بلاد السودان باعتبارها أهم محطة القوافل الرئيسية في طريق جنوب الصحراء؛ لذلك حرص السلطان يغمراسن على السيطرة عليها لاعتقاده بأنّ ثروة الدولة تكمن في امتلاك أكبر كمية من الذهب، وهو التفكير الذي كان سائدا في العصور الوسطى[2]، ونظرا لأهميتها التجارية فقد كانت محل نزاع بين الدولتين الزيانية والمرينية؛ لأنّ المسيطر عليها تمكنه من تبوء الزعامة كوسيط تجاري بين بلاد السودان وجنوب أوربا الغربية[3].

دخل السلطان يغمراسن بدعم من قبيلة المعقل في حرب ضد المرينيين من أجل السيطرة عليها وبالتالي السيطرة على هذا المعدن الثمين الذي يعتبر من أهم السلع الواردة من هناك إضافة إلى العبيد[4]؛ وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها سنة 662هـ/1264م، ونضيف شهادة بعض المؤرخين على حرص هذا السلطان على امتلاكها والاستفادة من خراجها فقد "كان السلطان يغمراسن يبعث في كل سنة ولدا من

---

[1]- سجلماسة بكسر السين والجيم، وسكون اللام، ثم ألف بعدها سين فهاء للتأنيث، تسمى الآن تافيلالت. وهي مدينة جليلة في جنوبي برّ العدوة متصلة بالصحراء الكبيرة من أعظم مدن الغرب وأشهرها ذكرا في الآفاق، وهي على طرف الصحراء بنيت في سهل على واد زير سنة أربعين ومائة مؤسسها هو مدرار بن عبد الله، لها اثنا عشرة بابا وفيها بساتين =كثيرة تحتوي على النخيل والأعناب وجميع أنواع الفواكه، وهي الطريق الموصل بين تلمسان وبلاد السودان. انظر ابن فضل الله شهاب الدين أحمد، ابن يحي العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2010، ص106. الحميري، الروض المعطار، ص205. حسن، ابن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983السابق، 127/2.

[2] - لطيفة، بشاري: "إسهامات التلمسانيين في المجاليين الإقتصادي والديني بالسودان الغربي"، ضمن كتاب -تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الغني-، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص67.

[3]- محمد، محمد ياسر الهلالي: اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة)، مقال ضمن كتاب التاريخ والفقه أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2002.

[4] - الوزان، المصدر السابق، 122/2.

أولاده لضبطها وحمايتها وضبط خراجها"[1]. لكنه لم ينعم بها كثيرا لأنّ الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني افتكها منه بعد فترة وذلك في 3 ربيع الأول سنة 673هـ/1276م[2].

وممن كانت له أيضا عناية بالتجارة مع سجلماسة السلطان أبو حمو موسى الثاني وذلك من خلال قوله: "لولا الشناعة، لم أنزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء، الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كلّ أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إلينا بما يضمحل عن قريب ويذهب، ومنه ما يغيّر من العوائد، ويجرّ السفهاء إلى المفاسد"[3].

وقد قامت الدولة بعدة إجراءات من أجل تشجيع التجار وتوفير الظروف الملائمة لهم من أجل إنجاح عملية التبادل التجاري، فقد قامت ببناء أبراج المراقبة في النقاط الإستراتيجية، من الطرق الشمالية، كما كانت تدفع مبالغ مالية لبعض القبائل من أجل حراسة هذه الطرق وتوفير الأمن للتجار[4].

يبدو أنّ الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي ستعيشها الدولة الزيانية في القرن العاشر الهجري بسبب فقدانها السيطرة على أهم الموانئ التي تمتلكها الدولة وهما المرسى الكبير وميناء وهران الذين كانا مصدرا لأرباح كبيرة من خلال تجارتها مع دول جنوب أوربا لكن بعد أن سيطر عليها المسيحيون[5] كان ذلك سببا في خسارة عظمى لمملكة تلمسان[6]، هذا الوضع حتّم عليها الرجوع مرة أخرى إلى التجارة مع بلاد السودان لتعويض تلك الخسائر[7].

---

[1]- مجهول: الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية، مراجعة: الربعي بن سلامة والسعيد بحري، قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2012، ص178. علي، ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص408.

[2] - مجهول، الذخيرة السنية، ص179. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص312.

[3]- المقري، نفح الطيب، 7/131-132.

[4]- لطيفة بشاري، إسهامات التلمسانيين في المجالين الاقتصادي والديني بالسودان الغربي، ص68.

[5]- احتل المرسى الكبير بقيادة الدون دييكودي قرطبة يوم 24 جمادى الأولى عام 911هـ/23 أكتوبر 1505م. انظر تفاصيل هذا الاحتلال أحمد، توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص96-102.

[6]- الوزان، وصف إفريقيا، 2/9

[7]- المصدر نفسه، 2/23.

ب- التجارة مع دول جنوب أوربا

استطاعت الدولة الزيانية أن تخوض غمار التجارة الخارجية مع دول أوربا والسودان الغربي رغم الاضطرابات السياسية التي كانت تحدث بين الفينة والأخرى مع جيرانها المرينيين والحفصيين؛ ولكنها حققت ازدهارا عظيما ومداخيل كبيرة، وذلك بفضل المقومات الطبيعية التي تتميز بها والمتمثلة في موقعها الجغرافي الذي يربط الصحراء بالبحر الأبيض المتوسط كما أشرت سابقا؛ زد على ذلك امتلاكها للعديد من الموانئ والمراسي[1] التي كان لها دور كبير في تنشيط المبادلات التجارية مع العالم الخارجي ومنها مرسى هنين[2] والمرسى الكبير[3] ومرسى وهران[4] ومرسى أرشقول[5] ومرسى تنس[6] وكذلك ميناء أرزيو وميناء مستغانم[7].

كما نشطت الحركة التجارية الخارجية مع دول أوربا عن طريق بعض المدن الساحلية مثل مدينة أرزيو التي كانت تضم مرسى يرسو به عدد من سفن النصارى محملة بالبضائع[8]، وكذلك المرسى الكبير[9]

---

[1]- لخضر، عبدلي: التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، ط1، الجزائر: دار ابن النديم للنشر والتوزيع، 2011، ص 80-82.

[2]- هو ثاني ميناء من حيث الأهمية بعد ميناء وهران ويعتبر مدخلا رئيسيا للإمارة الزيانية كما كانت له أهمية تجارية كبرى =مع دول أوربا وخاصة البندقية. الوزان، المصدر السابق، 15/2. وكذلك:
Charles Emmanuelle dufourq ; revue d'histoire et de civilisation du Magreb, no 13, 1969, p30.

[3]- يعتبر المرسى الكبير من أكبر المراسي بالمنطقة لما له من قدرة على استقبال العديد من السفن المختلفة سواء الحربية أو التجارية، وكانت لهذا المرسى أهمية تجارية كبيرة خاصة مع البندقية وجنوة؛ يبعد عن مدينة وهران بحوالي ميلين، وهو اسم لمدينة صغيرة بناها ملوك تلمسان وتعني الميناء الكبير. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص83. الوزان، المصدر السابق، 9/2-31.

[4]- يقع بالقرب من مدينة وهران؛ له أهمية تجارية كبيرة مع دول أوربا لكن بسقوطه في يد الملك الكاثوليكي سنة 1509م، وهو ما سبب خسارة عظمى لمملكة تلمسان على حد تعبير الوزان. انظر المصدر السابق، 9/2.

[5]- يذكر ابن حوقل أنّ مدينة أرشقول لها مرسى في جزيرة لها فيها مياه ومواجن كثيرة للمراكب. ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ، 1996، ص77.

[6]- اختص هذا الميناء بتصدير الحبوب التي كانت تنتجها هذه المنطقة، وهو ميناء صغير أنشأه البحارة الأندلسيون. مارمول، المصدر السابق، 354/2.

[7]- مارمول، المصدر السابق، 350/2.

[8]- المصدر نفسه، 349/2.

[9]- الوزان، المصدر السابق، 31/2.

ووهران التي كانت مهبط التجار القطلونيين والجنويين والبنادقة وكانوا يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة[1]، ومنها كذلك مدينة هنين التي يقصدها التجار البنادقة بسفنهم المحملة بالبضائع وكانوا يحققون أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان على حد قول الوزان[2].

في الختام ما يمكن قوله أنّ أمراء الدولة الزيانية كانوا حرصين على إيجاد المصادر المالية لتمويل خزينة الدولة، على غرار مؤسس الدولة يغمراسن وأبي تاشفين الأول وأبي حمو الثاني الذين كانت لهم سياسة حكيمة في تعمير خزينة الدولة، وليس من شك أنّ ذلك له علاقة وطيدة بكثرة الحروب التي دخلوا فيها والتي تطلبت أموالا كبيرة لتجهيز جيوشهم.

ثانيا: المقوم البشري (الجند)

أولى الزيانيون أهمية كبرى لتأسيس جيش قوي ينافسون به أعداءهم من بني مرين وبني حفص، ولهذا تميز جيشهم بالتعدد والتنوع في مكوناته[3]، حيث تم اعتماد عناصر أجنبية إلى جانب العناصر المحلية؛ فالمحلية تمثلت في القبائل البربرية؛ أما العناصر الخارجية فهي القبائل العربية بالإضافة إلى المرتزقة الأجانب كالأغزاز والأعلاج والوصفان والأندلسيون[4]. **فما هي الأسباب أو الخلفيات التي جعلت سلاطين بني زيان يتخذون هذا الإجراء؟**

1- القبائل البربرية

تعتبر هذه القبائل الدعامة الأساسية في الجيش نظرا لقيام الدولة العبد الوادية[5] على العصبية القبلية وهي عصبية زناتة، ويذكر ابن خلدون (ت808هـ/1405م) أنّ لهذه القبيلة الكبيرة فروع عديدة لا

---

[1]- المصدر نفسه، 2/9-30.

[2]- المصدر نفسه، 2/15.

[3]- حسب تقسيمات الوزان الذي قسم المجتمع الزياني إلى أربع طبقات فقد جعل الجند في المرتبة الرابعة بعد الصناع والتجار والطلبة ثم الجيش في حين نلاحظ أنّ أبا حمو وإن لم يدرجها ضمن طبقات المجتمع الرئيسية لكنه خصهم بجملة من القواعد والنصائح في كيفية الاهتمام بهم وقد قسمهم إلى أربعة أقسام وهي: الخاصة (خاصة الملك) وقبيل الملك وأنصار الملك والمماليك. الوزان، المصدر السابق، 2/21. أبو حمو موسى، واسطة السلوك، ص142-143-144-145.

[4]- حول أصول هذه العناصر وانتقالها إلى المغرب الأوسط راجع ذلك في عبد العزيز، فيلالي: تلمسان في العهد الزياني – دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، الجزائر: موفم للنشر، 2002، 1/172 وما يليها.

[5]- بنو عبد الواد هم فرع ثانوي من بني واسين ويتفرعون إلى عدة بطون ذكرها ابن خلدون وهم: "بنو ياتكين وبنو أولو وبنو رهط ونصوحة وبنو تومرت وبنو القاسم" وكانت مواطنهم تمتد من طرابلس إلى جبل أوراس والزاب. ابن خلدون، بغية

تحصى منها: مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجد يجن وبني ويجفش وبني واسين وبني تيغرس وبني توجين وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم[1].

لقد شكلت هذه الحشود قاعدة الجيش العبد الوادي ونواته العسكرية الأولى، وكان للبعض من هذه القبائل الفضل منذ فترة التمهيد إلى الاستقرار وبداية ملكهم نظرا لحرص أمراء بني عبد الواد على لم شمل هذه القبائل وتوحيدها بداية بمؤسس الدولة يغمراسن الذي عُرف بالجرأة والدهاء السياسي حيث يذكر ابن خلدون سعيه في لم قبيله وتوحيده في قوله: "وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه... واستمال عشيره وقبيله وأحلافهم من زِغْبَة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار"[2]، وعلى نهجه سار السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) الذي كان صارما يقظا حازما داهية[3] حيث يؤكد ابن خلدون ذلك في قوله: "واستبلغ أبو حمو في أخذ الرهائن من أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه، بني عبد الواد... وكان يأخذ الرهن المتعددة، من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط، وتجاوز ذلك، إلى أهل الأمصار، والثغور من المشيخة والسوقة... وأنزلهم في القصبة فملأ تلك القصبة، بأبنائهم وإخوانهم وشحنها بالأمم بعد الأمم"[4]، ويضيف يحي بن خلدون (ت780هـ/1378م) حول سياسة أبي حمو الأول في أخذ الرهائن من خلال قيامه بنقل جالية كبيرة من رهائن الوطن حضرا وبدوا[5]، ورهائن من بطون بني توجين ومغراوة فأطاعوه كلهم[6]، وكذلك الحال في عهد السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت (حكما 749-753هـ/1348-1352م) حيث "استألفوا مغراوة وتجين ...بعد التحالف على المناصرة عند الحاجة"[7]، وقد استمرت هذه القبائل تمثل دعامة الجيش الزياني وقوته في حروب الدولة ضدّ أعدائها من بني مرين وبني حفص لفترة طويلة[8].

الرواد، 207/1. ابن خلدون، العبر، 9/7-10.

[1]- ابن خلدون، العبر، 9/7.

[2]- ابن خلدون، العبر، 93/7.

[3]- المصدر نفسه، 117/7.

[4]- المصدر نفسه، 123/7.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 237/1

[6]- المصدر نفسه، 235/1.

[7]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص150.

[8]- يعج التاريخ الزياني بأمثلة كثيرة حول المشاركات العديدة لهذه القبائل وانخراطها في صفوف الجيش الزياني أثناء حروبه.

وفيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من عمر الدولة وهي فترة القرن 10هـ - 16 م فقد أمدنا كل من الوزان (كان حيا سنة 957هـ/1550م) ومارمول كاربخال (ت 1009هـ/1600م) بمعطيات رقمية حول عدد المقاتلين من هذه القبائل الذين انخرطوا في الجيش الزياني وحاربوا في صفوفه ضدّ الغزاة، نذكر منها ما قاله الوزان حول سكان جبل بني يزناسن الذين يقدمون ما يقارب عشرة آلاف محارب[1]، أما الرحالة مارمول ففي معرض وصفه لبربر زناتة القاطنين في الجبال يشير إلى إمكانية الحاكم في الاستفادة بعدد كبير من المقاتلين الأقوياء من هؤلاء إذ "بإمكانه أن يجمع للحرب عشرين ألفا من أقوياء الرجال الذين تمرسوا بالحرب في ما خاضوه من القتال ضد ملوك اسبانيا وضد العرب. ولهم اليوم من القوة ما جعلهم في قتال مستمر ضد الأتراك وضد الشريف وضد عرب الصحراء"[2]، ويضيف قائلا: "بأنّ أمراء تلمسان في عهد عزهم يتخذون بمدينة المدية حامية تشن الغارات وتدافع عن المدينة"[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ أدور هذه القبائل وحضورها المكثف لم يكن دائما يخدم المصالح الحربية للدولة الزيانية؛ وإنما كانت هناك انشقاقات وحالات العصيان أدت في كثير من الحالات إلى انهزام الجيش واحتلال تلمسان، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الصراع قائم على المجال الذي كانت تستقر فيه هذه القبائل، حيث ظل التنافس حول مواطن هذه القبائل مستمر، وكانت حيازة هذه المناطق بين مد وجزر تارة لصالح السلطة وتارة أخرى لصالح هذه القبائل، وغالبا ما كانت هذه القبائل تعلن ولائها للمرينيين أو الحفصيين عندما تكون تلمسان تحت سيطرتهم كنوع من الانتقام من السلطة العبد وادية.

ومن الأمثلة على ذلك نذكر ما حدث عندما تحالفت القبائل الزناتية من بني توجين وبني راشد مع الأمير أبي زكرياء الحفصي (625-647هـ/1227-1249م)[4] ضدّ السلطان يغمراسن (633-

---

[1]- وصف افريقيا، 43/2.

[2]- الوزان، وصف افريقيا، 351/2.

[3]- المصدر نفسه، 373/2.

[4]- هو أبو زكريا يحيا بن محمد بن الشيخ أبي حفص وُلد بمراكش سنة 599هـ/1202م بويع يوم 18 رجب 625هـ/1227م بالقيروان؛ كان شجاعا كريما نجيبا وكان معدودا من العلماء والشعراء النبلاء، متقشفا في ملبسه ومركبه، توفي ليلة الجمعة 29 جمادى الآخرة 647هـ/1249م ودفن بجامع بونة إلى جانب الولي الصالح أبي مران اليحصبي، وكان عمره 48 سنة وكانت مدة حكمه 22 عاما. أنظر أبو العباس أحمد، ابن قنفذ الخطيب القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص21-22-23. وكذلك ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية، ص54 وما بعدها.

681هـ/1235-1282م) مما أدى إلى سقوط تلمسان في يد الحفصيين في صفر سنة 640هـ/1242م[1].

وكذلك الحال مع السلطان أبي ثابت حينما خذلته بنو راشد في حصاره لوهران من أجل افتكاكها من بني مرين؛ حيث انسحبت من جيش أبي ثابت وانضمت إلى سعيد بن أجانا الذي كان قائما على وهران؛ مما أدى إخفاق هذا الحصار ونجاة السلطان أبي ثابت من الموت[2]، وفي شهر محرم سنة 750هـ/1349م نهض السلطان أبو ثابت مرة أخرى وراسل مغراوة في اللحاق به بمقتضى شروطهم، فلم يجيبوا دعاءه[3].

لقد أدى خداع هذه القبائل وإعلانها العصيان على السلطة وتحالفها في الكثير من الأحيان مع أعداء بني عبد الواد إلى نشوب صدامات عسكرية في غالب الأحيان بينها وبين أمراء بني عبد الواد فكانت حصيلة حروب الدولة مع هذه القبائل كبيرة جدا.

2- القبائل العربية

فضلا عن القبائل البربرية ضم الجيش الزياني كذلك مجموعة من القبائل العربية منها: قبائل بني عامر[4] التي تتميز بكثرة العدد[5] وقبائل بني يعقوب وسويد[6] ورياح[7] الكثيرة الرجال والخيل[8] وسليم[9] والمعقل

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 95/7. ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص19.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 259/1.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، 260/1. ابن خلدون، العبر، 141/7.

[4]- ابن خلدون، العبر، 95/7-158.

[5]- هم أهم فرع من عرب بني هلال يتميزون بكثرة العدد، ويتوزعون في تخوم تلمسان ووهران. الوزان، المصدر السابق، 51/1. ابن الصباح: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار -رحلة المدجن-، تحقيق: محمد بن شريفة، ط1، الرباط: دار أبي الرقراق، 2008، ص242.

[6]- ابن خلدون، العبر، 95/7. ابن الصباح، رحلة المدجن، ص242.

[7]- هم من أعز قبائل بني هلال وأكثرهم جمعا، يقيمون بقفار ليبيا. حول هذه القبائل أنظر ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005، ص118. العبر، 95/7. عبد الله، الحاج ابن الصباح: رحلة المدجن، تحقيق: محمد بن شريفة، ط1، الرباط: دار أبي الرقراق، 2008، ص242. الوزان، المصدر السابق، 52/1.

[8]- ابن الصباح، رحلة المدجن، ص242-243.

[9]- ابن خلدون، العبر، 95/7.

وحصين والثعالبة[1]، وقد كان سلاطين بني زيان غالبا ما يستعينون بهذه القبائل التي كان يضمها مجال المغرب الأوسط في أوقات الخصاصة من الجند في ظل الحروب المتكررة بينها وبين جيرانها التي كانت غالبا ما تفضي إلى استنزاف الجند، فأصبحت هذه القبائل في هذه المرحلة عنصرا أساسيا في معادلة القوة والضعف بالنسبة للجيش الزياني.

ولا تعوزنا الدلائل عن انضمام جموع كبيرة من هذه القبائل إلى الجيش الزياني في حالة الحشد والاستنفار وإعلان الحرب، ومقابل ذلك يستفيدون من أجور وامتيازات متنوعة تقدمها لها السلطة الزيانية، ونلاحظ أن انضمام القبائل العربية بكثافة في عهد السلطان أبي حمو الثاني[2] ومن الدلائل نذكر على سبيل المثال لا الحصر انضمام قبائل بني عامر ورياح إلى جيش السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) سنة 759هـ/1357م وهي الفترة التي كان يسعى فيها لاسترجاع ملك أجداده، فقاومت معه إلى أن تم ذلك في غرة شهر ربيع الأول من سنة 760هـ/1358م[3]، كما ساندته عرب المعقل وبني عامر وسويد والدّيالم والعطاف وحُصين وغريب في حربه ضدّ الأمير أبي العباس الحفصي سنة 767هـ/1365م.

وتجدر الإشارة إلى الأدوار السلبية التي كانت تصدر من هذه القبائل فغالبا ما كانت تنسحب من الجيش أثناء المعركة مما يؤدي إلى الهزيمة، ومن القرائن نذكر خداع قبائل بني عامر وانسحابها من جيش السلطانين أبي ثابت وأبي سعيد في حربهم ضد أبي عنان المريني التي جرت وقائعها في شهر جمادى الأولى سنة 753هـ/1352م مما أفضى إلى هزيمة بني عبد الواد وإلقاء القبض على السلطان أبي سعيد[4]، وكذلك فعلت سويد والديالم والعطاف وحُصين التي تحالفت مع الناصر بن أبي الحسن المريني ضدّ السلطان أبي ثابت في حركته على وهران سنة 750هـ/1349م[5]، ونفس الموقف حدث مع السلطان أبي حمو حيث

---

[1]- خالد بلعربي: "النظام العسكري بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني"، ضمن كتاب –ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني-، الجزائر: دار هومة، 2014، ص16.

[2]- سيأتي الحديث حول سياسة السلطان أبي حمو في استقطاب القبائل العربية في العنصر الخاص بأدوار النخبة في العهد الزياني وذلك في المبحث الأول ضمن الفصل الثالث.

[3]- راجع تفاصيل هذه الأحداث في بغية الرواد الجزء 2 ص20 وما يليها.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 263/1-264. التنسي، المصدر السابق، ص154.

[5]- ابن خلدون، المصدر نفسه، 259/2.

انهزم هزيمة كبرى في قرية الدوسن من بلاد الزاب في أوائل ربيع الأول من سنة 772هـ/1370م بسبب انسحاب قبائل رياح من الجيش[1].

في النهاية انضمام هذه القبائل إلى الجيش الزياني ومشاركتها في الحروب وجمع الضرائب أدى بها إلى الاستحواذ على أغلب أراضي بني عبد الواد التي حصلوا عليها في شكل اقطاعات.

3- الجند المسيحيون

شكل المرتزقة الأجانب قسما هاما من تركيبة الجند الزياني على غرار الدول المغربية المعاصرة لها[2]، وهم عناصر أوروبية مكونة من القطالونيين والأراغونيين والقشتاليين[3]، وحسبما يشير إليه أحد الباحثين[4] فإنّ الحضور المسيحي ضمن جيوش هذه الدول ليس بدعة هذا العصر، بقدر ما هو استمرار لموروث تاريخي تعود أصوله إلى فترة حكم الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي استعمل عدداً من جند الروم في حروبه، وفي جباية الضرائب، كما استخدم الخلفاء الموحدون هذه الفرق في جيشهم على الرغم من تشدد المذهب الموحدي الذي يدعوا إلى الجهاد ومحاربة الكفار.

وعن سبب استقدام هؤلاء يشير ابن خلدون إلى أنّ ملوك المغرب استعانوا بهذه الطائفة لما لها من إستراتيجية وخبرة في القتال؛ حيث تعوّدوا على الثبات في الزحف عكس قتال القبائل البربرية الذي يعتمد على حرب الكر والفر وذلك في قوله: "ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكّده في قتال الكرّ والفرّ، صار ملوك المغرب يتّخذون طائفة من الافرنج في جندهم، واختصّوا بذلك لأنّ قتال أهل وطنهم كلّه بالكرّ والفرّ. والسلطان يتأكّد في حقه ضرب المصافّ ليكون ردءً للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون ذلك الصف من قوم متعوّدين للثبات في الزحف للثبات في الزحف، وإلاّ أجفلوا على طريقة أهل الكرّ والفرّ، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالهم؛ فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتّخذوا جندا من هذه الأمة المتعوّدة الثبات في الزحف وهم الإفرنج..."[5]

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، 2/230-231.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص289.

[3]- خالد بلعربي، النظام العسكري بالمغرب الأوسط، ص20.

[4]- حميد، تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609-869هـ/1212-1465م، الدار البيضاء: منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2009، ص174.

[5]- ابن خلدون، المقدمة، ص289.

ومن خلال ما أشارت إليه النصوص تبين أن حضور الجند النصارى كان في مرحلة مبكرة من تاريخ الدولة الزيانية حيث قام السلطان يغمراسن بضم الفرق المسيحية التي كانت في خدمة الجيش الموحدي مباشرة بعد مهلك السعيد الموحدي ومقتله بتلمسان، يشير إلى ذلك عبد الرحمن بن خلدون في قوله: "كان يغمراسن من بعد مهلك السعيد وانقضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملتة، مستكثرا بهم معتدّاً بمكانهم ومباهيا بهم في المواقف والمشاهد. وناولهم طرفا من حبل عنايته، واعتزّوا به واستفحل أمرهم بتلمسان"[1]؛ استعان بهم إلى جانب القبائل البربرية والعربية كما أشرت أعلاه وذلك مقابل أجور ورواتب معلومة.

وعلى الرغم من محاولة الاغتيال التي تعرض لها السلطان يغمراسن من قبل هذه الفرقة سنة 652هـ/1254م لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة الاعتماد عليهم في فترات لاحقة؛ ففي حربه ضدّ بني مرين في معركة وادي ايسلي سنة 670هـ/1271م كان ممن استجاش بهم فرقة الروم التي تقدر ب 500 فارس لكنهم قُتلوا جميعا[2].

ونلاحظ أنّ مثل هذا الإجراء سيتكرر لاحقا في عهد السلطان أبي تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1336م) الذي استخدم بعض أرباب السيف من النصارى[3]، وكذلك استخدمهم السلطان أبو حمو موسى الثاني وصنفهم ضمن الممالك الخاصة بحراسته[4]، يؤكد ذلك يحي بن خلدون (ت780هـ/1378م) في قوله: "فاستركب الحرم والأموال واكفل بذلك الخصيان والنصارى المستخدمين"[5].

4- الأغزاز (الغز)

وهم قوم من الأتراك عمد سلاطين بني زيان إلى إدخال هذا العنصر في جيشهم، وتشير بعض الدراسات إلى أنّ يوسف بن تاشفين (450-500هـ/1058-1106م) هو أوّل من قام بإدخال الأغزاز إلى بلاد المغرب واستخدمهم ضمن فرقة الرماة في جيشه سنة 454هـ/1062م[6]، ثم استخدمهم

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 100/7.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، 217/7-218. ابن الأحمر، المصدر السابق، ص67.

[3]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 189/1.

[4]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص20.

[5]- بغية الرواد، 142/2.

[6]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص17.

الموحدون فيما بعد في الجهاد ضد المسيحين في اسبانيا لما عُرف عنهم بالشجاعة والخبرة في القتال خاصة الرمي بالنشاب[1].

وحسبما أشار إليه ابن خلدون فإنّ تواجدهم ضمن جيش السلطان يغمراسن كان في مرحلة مبكرة وذلك ارتبط بالبدايات الأولى لهذه الدولة أي منذ سنة 633هـ/1235م[2]، ولعل ما يوضح ذلك ما جاء في العبر حيث أشار ابن خلدون (ت808هـ/1405م) إلى ذلك في قوله: "واستلحق العساكر من الروم والغزّ رامحة وناشبة"[3]، ثم توالى استخدامهم فيما بعد من طرف سلاطين بني زيان ونذكر منهم أبو تاشفين الأول الذي أولى قيادة جيشه لموسى بن علي الغزي[4].

5- الأعلاج والصقالبة

هؤلاء من جنسيات أوروبية مختلفة يجلبون من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وقطلونية وجليقية؛ أما عن طريقة حضورهم إلى الدولة الزيانية فكان إما عن طريق الشراء أو الغارات أو الهدايا[5]، ومما يعزز مكانة هذا العنصر في الجيش الزياني هو توليهم لمناصب حساسة حيث استخدموا في الفرق الخاصة لحرس السلطان[6]، وقادة للجيش نذكر منهم العلج مسامح وفرج بن عبد الله وعلي بن تاكرارت وغيرهم[7]، وعلاوة على دورهم العسكري كانت لهم مهام أخرى داخل البلاط منها القيام بخدمة الحريم.

6- الوصفان

هم من عبيد السودان وتم استقدامهم إلى الدولة الزيانية عن طريق تجارة الرقيق التي كانت مزدهرة في المغرب الإسلامي في تلك الفترة[8]؛ أما فكرة إلحاق العبيد بالجيش النظامي فلم تكن واردة عند سلاطين بني عبد الواد الأُوَل على غرار السلطان يغمراسن الذي استعان كثيرا باللفيف الأجنبي وضمه إلى جيشه،

---

[1]- فيلالي، المرجع السابق، 182/1.

[2]- ابن خلدون، العبر، 93/7.

[3]- المصدر نفسه، 93/7.

[4]- سماه عبد الرحمن بن خلدون موسى بن علي الكردي. وكان موسى هذا قائدا للجيوش في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول ثم في عهد ابنه أبي تاشفين وعرف بالشجاعة، هو الذي بنى مدينة تامزردكث بأمر من السلطان أبي تاشفين. التنسي، المصدر السابق، ص143.

[5]- فيلالي، المرجع السابق، 183/1-184.

[6]- أبو حمو موسى الثاني، المصدر السابق، ص145.

[7]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص19.

[8]- فيلالي، المرجع السابق، 185/1.

لكن هذه الفكرة كانت من ابتكار السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي قام بتربيتهم وتدريبهم وجعل منهم فرقة من حرسه الخاص تكون خلف موكب السلطان أثناء خروجه[1].

7- الأندلسيون

كانت الظروف السياسية والأمنية المضطربة التي شهدتها مدن الأندلس بسبب غارات النصارى عليها إلى سقوطها واحدة تلوى الأخرى وهذا ما دفع بالأندلسيين إلى الهجرة إلى المغرب الإسلامي، فنزل البعض منهم في مدن المغرب الأوسط، ويشير الأستاذ فيلالي إلى أنّ أغلب من استقر بمدينة تلمسان كانوا من الأعلام، وأهل البيوتات ومن وجوه القوم وأعيان الأندلس[2]، فاستعان بهم أمراء بني زيان في العديد من وظائف الدولة كما تم إلحاقهم كعناصر في صفوف الجيش الزياني.

من خلال ما سبق يمكن القول بأنّ الطابع الحربي الذي تميزت به الدولة الزيانية فرض عليها نوعا من التنوع والتعدد في تركيبة جيشها، ومما لا شك فيه أنّ تعرض هذه الفئة إلى القتل المستمر بسبب كثرة الحروب التي خاضتها الدولة هو ما دفع بها إلى الاستعانة بالعنصر الأجنبي لتعويض النقص، كما كان لحضور هذه العناصر في الدول المغربية الثلاثة دور مهم في تحديد موازين القوة بينها.

[1]- أبو حمو موسى الثاني، المصدر السابق، ص145.

[2]- فيلالي، المرجع السابق، 175/1.

المبحث الثاني: نفقات الحرب

عُرف العهد الزياني بكثرة الحروب التي تواترت عليه ومن أجل مواجهة ذلك كان لابد على سلاطين الدولة اتخاذ الإجراءات اللازمة فيما يخص تجهيز الجيوش وإعدادها لمواجهة العدو. **ففيما تمثلت هذه الإجراءات؟**

أولا: الصناعة الحربية

مما لاشك فيه أنّ حاجة الدّولة إلى الأسلحة هو الذي جعلها تهتم بصناعتها وتشييد دور خاصة بها اعتبارا لطبيعة التحديات التي كانت تواجهها بسبب تعدد الخصوم وجبهات القتال نظرا للموقع الجغرافي الوسطي الذي كانت تحتله، وقد استحدثت هذه الدار في عاصمة ملكهم تلمسان، ولعل هذه المركزية تفسر في اعتقادي احتكار الدولة للنشاط الحربي بمفردها، أما عن سكوت مؤرخي البلاط عن الإفصاح حول تفاصيل هذه الصناعة فيعود إلى علاقتها بأسرار الدولة حسبما يذكره أحد الباحثين[1]، وكان يشرف على حراسة وتأمين هذه الدار حرس خاص.

ومن دواعي قيام الصناعة الحربية كذلك بالدولة هو وفرة المعادن اللاّزمة لها منها ما هو معدني ومنها ما هو نباتي ومنها ما هو حيواني، وفيما يخص المواد المعدنية فقد أسعفتنا كتب الرحلة والجغرافيا بأماكن تواجد هذه المعادن فمناجم الحديد كانت منتشرة بالمغرب الأوسط في منطقة تفسرة الغنية بهذا المعدن، ولذلك فهي تضم العديد من الحدادين الذين لا يشتغلون بغير خدمة الحديد ونقله إلى تلمسان[2]، وكذلك جبل ترارة القريب من مدينة هُنين الغني بمناجم الحديد[3]، ويوجد هذا المعدن أيضا في جبل يدوغ في بونة[4]؛ أما التوتياء (الزنك) فإنه كان يتواجد بكثرة بجبل ونشريس[5]، ومن المعادن الضرورية كذلك في صناعة الأسلحة النحاس والقصدير[6] وكذلك الرصاص لكننا نجهل أماكن تواجدها.

---

[1]- الطاهر، بونابي: "الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط من خلال نص المناقب"، مجلة الناصرية، معسكر، ع4، جوان 2013، ص187.

[2]- الوزان، المصدر السابق، 24/2. تواتية، بودالية: "الانتماء لأهل الصناعات في المغرب الأوسط"، مجلة الناصرية، معسكر، ع4، جوان 2013، ص268.

[3]- كاربخال، إفريقيا، 52/2.

[4]- الحميري، المصدر السابق، ص617.

[5]- الوزان، المصدر السابق، 45/2.

[6]- عبد الرحمن، زكي: السيف في العالم الإسلامي، مصر: منشورات مكتبة النهضة المصرية، 1957، ص6.

وبخصوص المواد الحيوانية فتستخلص الجلود من الأبقار والأصواف من الماشية والأوبار من الإبل والماعز، وأما المواد النباتية فتتمثل في الأخشاب. وانطلاقا من هذه المقومات نطرح السؤال التالي: **هل كانت الصناعة الحربية الزيانية متطورة نافست بها غريمتيها المرينية والحفصية؟ ما هي الأسلحة المستحدثة وما هي الأسلحة الموروثة؟ وهل كانت هذه الصناعة محلية أم وافدة؟**

في المجمل يصعب القول أنّ هناك صناعة عسكرية محلية متطورة ومستقلة تماما من حيث التقنية والكوادر المشتغلة في هذا المجال، حيث أنّ الصناعة الحربية الزيانية في بدايتها لم تتجاوز إنتاج بعض الأسلحة الخفيفة والذخائر؛ لذلك سعى بعض سلاطين الدولة خاصة فترة القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي إلى تطويرها من خلال الاستعانة باللفيف الأجنبي المتمثل في الأسرى المسيحيين[1]، والمهاجرين الأندلسيين الذين كان لهم دور كبير في مجال الحرف، وكذلك اليهود[2] الذين عُرفوا بالتجارة ومع ذلك كان لهم نصيب في بعض الحرف.

اعتبرت تلمسان منطقة استقطاب وجذب الأقليات المسيحية وكان يقطنها ما يزيد عن أربعة آلاف نسمة منهم[3] وهذا لخصوصيتها الجغرافية وإمكاناتها الاقتصادية التي سمحت بتنوع الأنشطة وممارسة

---

[1]- تشير بعض النصوص التاريخية إلى تواجد النصارى المسيحيين منذ القرن الخامس الهجري في مدينة تلمسان من خلال الكنائس التي كانت متواجدة هناك وهو ما يوحي إلى أنهم كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية.انظر:
Georges, Marcais , les Villes d art célèbre Tlemcen,Edition lell ,Blida,Algerie , 2003 ,p11.

[2]- شكل اليهود في مجتمعات بلاد المغرب أهم ملة ولكن اختلفت المصادر التاريخية حول تحديد تواجدهم ببلاد المغرب الإسلامي إذ أنّ هناك من يرجعه إلى العهد الفينيقي، لكن بصفة عامة هجرات اليهود كانت خاضعة للظروف السياسية والاقتصادية التي يعيشونها، وأبرز هذه الهجرات كانت من شبه الجزيرة الأيبيرية وجزر البليار وارتبطت بحروب الاسترداد، فقد نزحت جماعة من يهود مايورقة عام 1287م بعدما استولى المسيحيون على الجزيرة، وأضحت الهجرة اليهودية نحو بلاد المغرب أكثر كثافة عقب سقوط غرناطة فكانت هجرة إسبانية عام 898هـ/1492، وتلتها أخرى برتغالية عام 902هـ/1496م. أنظر: عائشة، غطاس: "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م مقاربة اجتماعية اقتصادية"، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، الجزائر، 2000-2001، ص37. وكذلك: فاطمة، بوعمامة: "اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-9هـ/13-15م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة بن يوسف بن خدة، قسم التاريخ، الجزائر، 2008-2009، ص15.

[3]- عبد العزيز، فيلالي: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2012، ص64.

التجارة ومختلف الحرف[1]، واستقر المسيحيون كذلك في بعض المدن الأخرى مثل أرزيو[2] وهو ما يوحي إلى أنّهم استقروا أكثر في المناطق الساحلية.

تضاعف عدد الأسرى الروم في العهد الزياني فأصبحوا يعدون بالآلاف فاستعان بهم سلاطين الدولة في تشييد المصانع[3] التي تقوم فيها العديد من الصنائع ومنها الصناعة الحربية بمدينة تلمسان[4]، ومن الدلالات عن أهمية هذا العنصر هو مساهمتهم في الحياة الحرفية في الفترة موضوع البحث؛ ويشهد على ذلك ما قام به السلطان أبو تاشفين الأول حينما رفض إطلاق سراح الأسرى القطلانيين لحاجته إلى خبرتهم وكفاءتهم العالية في مجال التصنيع وذلك سنة 722هـ/1322م[5]؛ من خلال مخاطبة الملك خاييم الثاني ملك أرغون برسالة يجيبه فيها حول مطالبته لإطلاق سراحهم يقول فيها: "وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أن يكون، كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين، لأن كذا تعلمون أنّ ما عمّر بلادنا إلاّ الأسرى وأكثرهم صنّاع متفنّنون في أنواع جميع الصنائع، ولو طلبتم ما يستغني مطلبكم، وقضينا أربكم، وأما تسريح الجميع يحتاج إليه من أنواع الصنائع..."[6].

ورغبة في الاستكثار قام السلطان أبو حمو الزياني الثاني بتشييد دار الصناعة فمن خلال منطوق الخطاب الذي نجده عند صاحب البغية بأنها "تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم..."[7] ما يوحي إلى استخدام عناصر أجنبية في هذه الدار إلى جانب العناصر المحلية.

---

[1]- سميرة، نميش: "دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني (7-10هـ/13-16م)"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ حضارة المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، جامعة أبو بكر بلقايد، قسم التاريخ والآثار، الجزائر (تلمسان)، 2013-2014، ص38.

[2]- أبو عبيد عبد الله، ابن عبد العزيز بن محمد الأندلسي البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تقديم: حماه الله ولد سالمن بيروت: دار الكتب العلميةن 2013، ص241-253.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، 134/1. فيلالي، دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ص64.

[4]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 216/1.

[5]- فيلالي، المرجع نفسه، 191/1. نصيرة، عزرودي: "الدولة الزيانية ودورها في تفعيل النشاط الحرفي بالمغرب الأوسط"، مجلة الناصرية، معسكر، ع4، جوان 2013، ص245-246.

[6]- عزاوي، أحمد: رجال الإدارة والأعيان في العصر المريني –من خلال رسائل شخصية لابن الخطيب-، الرباط: ربانيت ديور الجامع، ط1، 2010، 302/2-303.

[7]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

وفي إطار مساعي الدولة وتكثيف جهودها في تطوير صناعتها العسكرية؛ عملت على الاستفادة من الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط التي حملت مئات الصناع المهرة الذين ساهموا مساهمة فعالة في تطوير وازدهار المهن في الدولة[1] بفضل تحكمهم في التقنية الصناعية التي تطورت في مدن بلنسية، وإشبيلية، وسرقسطة، ومارداة[2]؛ ولم تقتصر مساهمتهم في الصناعة الحربية فحسب بل ساهم الأندلسيون أيما مساهمة من خلال إقامتهم للعديد من الورشات والمصانع[3] للنجارة، والحدادة، والخياطة، والمعدات العسكرية، وطرز الملابس الجلدية، والقطنية والحريرية، وصناعة الأثاث، والنقش على الأبواب، وصناعة الذهب والمجوهرات، وأدوات الفلاحة، وقنوات المياه[4].

ولقد أشاد المؤرخون بمهارة الأندلسيين في صناعة الآلات الحربية، فقد كانوا- كما يقول ابن غالب الأندلسي- "أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، فهم صينيون في إتقان الصنائع العملية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر في مهماتها"[5]، ونؤكد بشهادة ابن الأعرج على مساهمتهم في تطوير بعض الصناعات بالدولة الزيانية وعلى رأسها الصناعة الحربية وذلك من خلال قوله: "وكان عهد الأندلسيين بها[6] مزدانة بالمصانع المفيدة فما شئت من أطرزة ومنسوجات الحرير والقطن والكتان والصوف، ومعامل الفخار والخزف، وأنواع السلاح..."[7].

---

[1]- أم كلثوم، بن يحيا: "نظرية العمل في الإسلام ودورها في تنمية المجتمع"، مجلة الناصرية، معسكر، ع4، جوان 2013، ص53.

[2]- إلياس، حاج عيسى: "الحرف اليدوية في المغرب الأوسط (تلمسان أنموذجا)"، ضمن كتاب- تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الفني-، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، 37/2.

[3]- أبو العباس أحمد، بن محمد بن القاضي المكناسي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث، (د.ت.ن)، 367/2.

4- جمال، يحياوي: "آثار الهجرة الأندلسية على تلمسان"، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3-4)، أفريل-ماي 2011، ص93.

[5]- المقري، نفح الطيب، 147/3. نقلا عن كتاب ابن غالب في كتابه فرحة الأنفس.

[6]- يقصد بها تلمسان عاصمة بني زيان.

[7]- أبو عبد الله محمد، بن محمد بن الأعرج السليماني: زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 170، ورقة 96-97.

كنت أتوقع أن أجد عددا وفيرا من النصوص في كتب الحسبة[1] تتحدث حول صناعة عتاد الحرب وأدوات القتال، ولكن لم أعثر سوى على نص واحد عند العقباني (ت871هـ/1466م) يتحدث فيه على بيع بعض الأدوات الحربية على نحو الركب واللّجم وقوائم السيوف في أسواق الإمارة "ومن هذا ما تواطأ عليه الناس وأعلن بالنداء في الأسواق وبمحضر الخواص والكافة من بيع الركب، واللّجم، وقوائم السيوف، ونحو ذلك مما هو محلى بالذهب والفضة التي له قدر عظيم بالدنانير والدراهم"[2].

ويؤكد هذا الوزان في معرض حديثه عن مدينة معسكر وسوقها الذي كان يُعقد كل يوم خميس استعرض مختلف السلع والمواد التي تباع فيه فذكر بعض الأدوات التي تستخدم في تجهيز الجيوش كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل[3]. لكن هذا الإجحاف منه فيما يخص الصناعة الحربية الزيانية يقابله إسهاب في الحديث حول الصناعة الحربية بفاس عاصمة بني مرين[4].

ومما اعتمدنا عليه كذلك في هذا الشأن هو ما جاء عن صاحب البغية كما نوهت إليه سابقا عندما تحدث عن اهتمام السلطان أبي حمو الثاني بالصناعة الحربية لأنه يعتبرها رمز قوة السلطان ومملكته، ويتجلى ذلك حينما قام بتجهيز ورشة كبيرة تضم العديد من الحرفيين المشتغلين في صناعة العتاد الحربي على اختلاف أنواعهم "فمن دراق، ورماح، ولجام، وسراج، وخباء، ونجار، وحداد..."[5]، والذين تميزوا بإحكام وإتقان هذه الصنائع، ومما يؤكد لنا حرص هذا السلطان هو تفقده بنفسه لهذه الأسلحة إذ كانت تعرض عليه في كل يوم[6]، ولم يقف عند هذا الحد فقط بل جعلها من إحدى الوصايا التي أوصى بها ابنه أبا تاشفين وذلك في قوله: "يا بني وينبغي أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس ولا تمض فيه

---

[1]- تعتبر كتب الحسبة من أهم المصادر التي تعرفنا بالحرف والصنائع التي تمتلكها أي دولة من الدول الإسلامية وتبين النمط التنظيمي والقوانين التي ينبغي أن يسير عليها الصناع والحرفيون.

[2]- أبو عثمان سعيد، بن محمد العقباني التجيبي التلمساني: تحفة الناظر، تحقيق: على الشنّوفي، منشورات المعهد الفرنسي، 1967، ص139.

[3]- الوزان، المصدر السابق، 26/2.

[4]- نلاحظ إطناب الوزان في الحديث حول الصناعة الحربية المرينية حينما تعرض إلى الحديث حول مختلف تلك الصناعات والمعادن المستخدمة في ذلك، والحرفيين المتخصصين في ذلك وأماكن تواجدهم وعدد دكاكينهم، مع وصف تلك الأدوات المصنوعة بالجودة والإتقان وكذلك الإشارة إلى مساهمة اللفيف الأجنبي في تلك الصناعات. لمزيد الإطلاع راجع الوزان، المصدر السابق، 234/1-235-238-239-240-244.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

[6]- المصدر نفسه، 155/2.

حكما تنفرد فيه بالنظر في مجابيك وأموالك...وما لك من الحاجات في ديار الصناعات مثل النظر في العدد الحربية التي تظفر بها القوة في الكلية..."[1].

ونشير بالذكر إلى أنّ دار الصنعة السعيدة تتوفر على خزائن[2] خُصصت لتخزين هذه الأسلحة كاحتياط تحسبا لظروف الحرب والعدوان ليتم استخراجها وقت الحاجة لإمداد الجيش بها، ومن تلك الأسلحة السيوف، والرماح، والتروس، والدروع، والقوس، والسهام ... وغيرها.

1- صناعة السيوف

تعتبر حرفة الحدادة من بين الحرف التي لها علاقة بالصناعة الحربية نظرا لما ينتجه الحدادون من العديد من أدوات الحرب مثل السيوف والخناجر والدروع والسكاكين والأنصال والسهام بأنواعها المختلفة والأدوات التي تستخدم في الحروب بصفة عامة تعتمد على مادة الحديد[3]؛ ولم تقتصر هذه المهنة على السكان الأصليين فقط وإنما كان للمهاجرين الأندلسيين[4] واليهود دور كذلك في مهنة الحدادة في تلمسان[5]، ونظرا لحساسية هذه الأداة وأهميتها يقوم الحداد باختبار الحديد حيث يقوم بإخراج الخبث منه وذلك بتسخينه والطرق عليه[6] من أجل الحصول على السيوف الجيدة وهي المصنوعة من الحديد النقي[7]، وكانت هذه السيوف بالإضافة إلى الخناجر والسكاكين توضع في أدوات معدة خصيصا لذلك تسمى بالأغمدة توضع فيها لحفظها وللحفاظ على حدتها[8].

---

[1]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص151.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

[3]- عامر، سليمان علي جمال: "الحرف والصناعات اليدوية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في حضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى قسم شبه الجزيرة العربية، مصر، (د.ت)، ص51.

[4]- إلياس حاج عيسى، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط، ص37.

[5]- حاييم، الزعفراني: يهود الأندلس والمغرب، ترجمة: أحمد شحلان، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، 2000، 398/2.

[6]- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، بيروت: دار العلم للملايين، 1996، 556/7.

[7]- المرجع نفسه، 152/7.

[8]- المرجع نفسه، 590/7.

وقد اعتنى أهل المغرب الإسلامي بتدبيج الأسلحة[1]، على عادة من سبقوهم من الأمم[2]، ومن هذه الأسلحة السيف والركاب والسروج إذ عملوا على توشيحها بالفضة أو الذهب للتفاخر بها[3]، ولفرط اعتزازهم بالسيف عملوا تدبيجه بالذهب وأحيانا بالفظة[4]، وفي كثير من الأحيان كان يرصع بالأحجار الكريمة، وكلها مظاهر من الموروث الصناعي الحربي القديم لبلاد المغرب الأوسط الصنهاجي والموحدي[5].

وقد أثارت هذه المسألة جدلا كبيرا بين فقهاء تلمسان ومراكش وفاس حينما استفتى السلطان أبو الحسن المريني حول جواز اتخاذ الركاب من خالص الذهب والفضة[6]، فلم تقتصر إجابتهم حول الركاب فقط وإنما عمّموها على بعض الأدوات الحربية الأخرى كالسيف والرمح والسكين والدرقة والترس ولواحق الفرس التي هي الركاب واللجام والسرج[7]؛ وقد أجمع أغلبهم على جواز تحلية السيف بالفضة والذهب[8] في حين قال بعضهم بجواز تحليته بالفضة فقط[9] أما باقي الأدوات الأخرى ففيها اختلاف[10].

ومن خلال بعض الفتاوى تبيّن لنا أن إقبال السلاطين في العصر الوسيط على مثل هذا السلوك في تدبيج أسلحتهم بالذهب والفظة على غرار من سبقوهم يعكس لنا نواياهم في إبراز سلطانهم وقوتهم من

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

[2]- زيادة على توشيح السيف بالذهب أو الفظة كان العرب يكتبون على نصله الآيات القرآنية والأقوال والعبارات المأثورة والأدعية، تعكس مضامينها تمجيد القوة المتمثلة بالسيف، أو لاعتقادهم في سلطانه السحري. أنظر السامرائي، عبد الجبار: "الأسلحة عند العرب، السيف"، مجلة التراث الشعبي، بغداد، ع2، 1981،، السيف، ص29.

[3]- ابن الصباح، رحلة المدجن، ص93.

[4]- أبو العباس أحمد، الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: جماعة من الفقهاء ، إشراف: محمد حجي، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، 393/6.

[5]- بونابي، الحرف والحرفيون، ص187.

[6]- الونشريسي، المعيار المعرب، 329/6.

[7]- المصدر نفسه، 339/6.

[8]- ممن أفتوا بذلك الفقيه أبو موسى عمران المشدالي استنادا لما جاء في "الكتاب" و"الموطأ" و"كتاب محمد" والفقيه أبو موسى عيسى بن الإمام الحميري. انظر العقباني، تحفة الناظر، ص140-141. الونشريسي، المصدر السابق، 339/6.

[9] - للفقيه أبو موسى عيسى بن الإمام الحميري رأي في ذلك حين أجاز التحلية بالفضة ولا خلاف فيها بينما الذهب فيه اختلاف. للتفصيل حول هذه المسائل أنظر: العقباني، المصدر السابق، ص140-141. الونشريسي، المصدر السابق، 339/6-340.

[10]- الونشريسي، المصدر السابق، 331/6-332.

جهة، ومن جهة أخرى إرهاب العدو وتخويفه منها فتوى المشدالي التي أفتى سنة 740هـ/1339م[1] وكذلك أبو عيسى ابن الإمام[2].

2- صناعة الرماح والسهام والقسي

فضلا عن وجود صناعة السيوف في الدولة نلاحظ وجود صناعة الرماح والسهام والقسي إلى جانبها في دار الصنعة نظرا لاستعمالها الكثيف من طرف الجيش الزياني، وقد كانت الرماح الزيانية ذات جودة عالية مما جعلها مطلوبة من طرف ملوك السودان؛ فأقبلوا على اقتنائها واقتناء بعض الأدوات الأخرى كالسيوف والخيول لتسليح جيوشهم إقتداء بملوك المغرب[3].

3- صناعة الدروع والخوذ

نظرا لحاجة الجيش الزياني لاستخدام الدروع والخوذ في الحروب كوسيلة لحماية نفسه؛ كان من واجب الدولة الزيانية الاهتمام بهذه الصناعة وتوفير الظروف الملائمة لها، وكانت من جملة الحرف التي تضمها دار الصنعة[4].

4- صناعة التروس

نشير بالذكر إلى أنّ صناعة التروس (وتسمى كذلك بالدرقات) قديمة إذ هناك من ينسبها إلى الفراعنة، وهناك من يقول بأنها تعود إلى نبي الله سليمان عليه السلام، وقد ذكر القرآن الكريم أنّ داود بن سليمان عليه السلام كان صانع دروع في قوله تعالى: "**وَلَقَدْ آتَيْنَاَ دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ أعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**"[5]؛ ويعرف صاحب هذه الصناعة بالدرَّاق وكانت من بين الصناعات الموجودة في الدولة والتي كانت تمول الجيش بمختلف هذه الأدوات[6].

---

[1]- أنظر نص هذه الفتوى كاملة في المعيار المعرب، 329/6 - 337.

[2]- فتوى الفقيه عيسى ابن الإمام كاملة في المعيار المعرب، 337/6 - 343.

[3]- لطيفة بشاري، "التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، الجزائر، 1986-1987، ص77.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

[5]- سورة سبأ آية 10-11.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

5- صناعة السروج والألجمة والسيور

كل هذه الأدوات تستخدم في تجهيز الخيل، ويقوم بصناعة كل أداة من هذه الأدوات حرفي متخصص في ذلك إذ يعرف صانع سروج الخيل وغيرها بالسرّاج[1]، ويستخدم في هذه الصناعة الجلد المنمق لكونه أكثر متانة تبعا لطبيعة حركة الفارس على ظهر فرسه أثناء العمليات القتالية[2]، وقد اختص اليهود بتطريز هذه السروج وكانت هذه الأخيرة ضمن الحرف التي أدخلوها إلى المغرب الإسلامي. أما صانع اللِّجام فيسمى باللَجَّام[3]. ومهمته هي صناعة ألجمة الخيل والإبل وغيرهم[4].

وقد انفرد السلاطين وقادة الجيش بامتلاك الطقوم الفاخرة لخيولهم باعتبارها أحد مظاهر العز والأبهة[5] مما جعل الدولة الزيانية تولي عناية بالغة لهذه الصناعة فبلغت صناعة السروج وعُدة الخيل تطورا كبيرا حتى أصبحت مضرب المثل في الغرب الإسلامي وهو ما شهد به مؤرخو وأدباء الأندلس[6] " ...كما يتجهز الفارس من تلمسان كذلك تتجهز العروس من مرسية"[7]، هذا وينبغي التنويه إلى حجم الإنتاج الكبير من هذه المعدات مما أدى إلى تغطية حاجيات الدولة وتصريف الفائض منها وبيعه إلى السودان الغربي[8]؛ كما كانت هذه السلع وغيرها تباع في أسواق تلمسان وبعض المدن المجاورة لها[9].

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 155/2.

[2]- هيصام، موسى: "الجيش في العهد الحمادي (405-547هـ/1014-1152م)"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، الجزائر، 2001/2000، ص52.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 155/2.

[4]- لخضر لعربي، "الحرف وتنظيماتها في مدينة تلمسان الزيانية"، مجلة الناصرية، معسكر، ع4، جوان 2013، ص316.

[5]- مارمول، المصدر السابق، 301/2.

[6]- مزدور، سمية: "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة منتوري، الجزائر (قسنطينة)، 2008-2009م، ص221.

[7]- ابن سعيد المغربي، المغرب في حُلى المغرب، 246/2.

[8]- لطيفة بشاري، "التجارة الخارجية لتلمسان"، ص77.

[9]- العقباني، المصدر السابق، ص140. الوزان، المصدر السابق، 221/2. كاربخال، المصدر السابق، 300/2.

6- صناعة الأخبية والقباب رغم أهمية هذه الصناعة إلاّ أنّنا نجد فراغا محسوسا فيما يتصل بتفاصيلها، لكن على العموم ما يمكننا قوله هو أن الأخبية تُصنع عادة من الجلود[1] أو الصوف، وهي من ضمن الصناعات الموجودة في الدولة[2].

7- دباغة الجلود وصباغتها

وهي أحد أهم الصناعات التي يحتاج إليها قطاع الصناعة الحربية نظرا لاعتماد العديد من الأدوات الحربية وعتاد الخيل على مادة الجلد، وهناك من المؤشرات الكثيرة التي توحي إلى انتشار حرفة دباغة الجلود وصباغتها ضمن الحرف التي كانت منتشرة بالدولة، وإن كانت أقل كثافة من الحرف الأخرى حسبما يشير إليه المازوني[3]، ولكن ما يلاحظ أنّ هذه الحرفة لم تتركز داخل أسواق مدينة تلمسان وإنما كانت تمارس خارج أسوارها لعلة الروائح المؤذية المنبعثة منها[4]، كما أنها تحتاج إلى الكثير من الماء[5]، وتحتاج هذه الحرفة إلى ورشات خاصة يقوم عليها مجموعة من العمال المحترفين لأنها تتطلب مجهودا كبيرا.

وتتمثل هذه الصناعة في تحويل الجلود من مواد أولية إلى أجزاء وقطع قابلة للتصنيع، ويعرف صاحبها بالدباغ، والصباغ هو من يقوم بصبغ هذه الجلود بألوان مختلفة، وتعتبر مدينة العباد[6]، ومدينة دَلِّس[7] من المدن التي عُرف سكانها بالاشتغال بدباغة الجلود، كما تجدر الإشارة إلى التنويه بدور اليهود الذين عرفوا بإتقانهم لهذه الحرفة ومساهمتهم فيها[8].

---

[1]- عامر سليمان: "الحرف والصناعات اليدوية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في حضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى قسم شبه الجزيرة العربية، مصر، (د.ت)، ص205.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، 155/2.

[3]- أبو زكرياء يحي، المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخ بالمكتبة الوطنية بالحامة، مج1، رقم 1335، ورقة رقم 267 ظ.

[4]- ليفي، بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1990، ص66.

[5]- المازوني، الدرر المكنونة، 137.

[6]- الوزان، المصدر السابق، 24/2.

[7]- مارمول، المصدر السابق، 372/2. الوزان، المصدر السابق، 42/2.

[8]- أبو عبد الله شهاب الدين، ياقوت الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، لبنان: دار صادر، (د.ت.ن)، 255/1.

وقد كانت هذه الحرفة تمول القطاع العسكري بمختلف العتاد الحربي مثل الدروع والخوذ والسروج التي توضع على ظهر الخيل وكذلك اللجم، بالإضافة إلى الخيام وأجربة السيوف والسكاكين والخناجر زد على ذلك ملابس الجند المصنوعة من الجلود المختلفة كجلد الماعز أو الأغنام وغيرها.

8- صناعة البارود

على الرغم من أنني لم أتمكّن من الحصول على نصوص تثبت أنّ الدولة الزيانية تمتلك مصانع البارود في هذه الفترة، لكن هذا لا ينفي أنّ هذه الصناعة كانت بالفعل موجودة بالمغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري /14م؛ فهناك من المؤشرات ما يثبت رواجها ليس عند الزيانيين فحسب وإنما عند المرينيين والحفصيين كذلك. **فهل كان الزيانيون على درجة كبيرة من التحكم في صناعة سلاح البارود واستخدامه؟**

عن مستوى هذه الصناعة يشير أحد الباحثين[1] إلى ضعف صناعة سلاح البارود أو المدافع مقابل تفوق الدول الأوربية في هذا المجال، ونظرا لأهميتها وحساسيتها فقد سعى المغاربة إلى امتلاكها من خلال الاستفادة من الخبرة الخارجية سواءً من أسرى الحروب مع الدول الأوربية أو من خبرة العناصر الوافدة كالخبرة الأندلسية أو التركية أو العلوج[2].

يعتبر البارود من أقدم المتفجرات وقد ذكرته المصادر الوسيطية تحت اسم مادة "نفط"[3]؛ وبالعودة إلى الخريطة المعدنية التي سجلها الرحالة والجغرافيون الذين تجولوا في بلاد المغرب وسجلوا ما شاهدوا من ثرواتها المعدنية لم يأتوا على تحديد أماكن هذا المعدن، وعن بداية اكتشافه تضاربت الروايات حول ذلك فقد ذكر أبو زيد الفاسي في شرح منظومته أنّ "حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره

---

[1]- عبد الفتاح، بن عبد الله: "الأسلحة ببلاد المغرب في العصر الوسيط"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس (منوبة)، 2004-2005م، ص98-99.

[2]- عبد الفتاح، الأسلحة ببلاد المغرب في العصر الوسيط، ص99.

[3]- ابن خلدون، العبر، 223/7 . أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص188. أبو القاسم برهان الدينإبراهيم، بن عبد الله بن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق: محمد ابن شقرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص273. لسان الدين بن الخطيب، نُفاظة الجراب في عُلالة الاغتراب، ط1، تحقيق: حماه الله ولد سالم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2014، ص305. والنفط سائل أسود مخضر زيتي القوام يستنبط من بعض أجواف الأرض. قابل للاشتعال. أبو عبد الله محمد، بن محمد بن أحمد ابن سعد العبدري: رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كروي، ط2، دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص51.

بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود"[1]؛ وفي رواية أخرى للشيخ أبو عبد الله بناني يصرح بأنّ حدوثه كان في وسط المائة الثامنة[2]؛ وهذا مستبعد لأنّ ابن خلدون ذكر أنّ المرينيين استخدموا هذا السلاح في حصار سجلماسة سنة 672هـ/1273م[3] أي قبل ذلك بنحو مائة سنة، كما ذكر صاحب زهر البستان بأنّ الجند المرينيين استخدموا النَّفط عندما حاصرهم في وهران من أجل افتكاكها منهم وذلك سنة 762هـ/1360م[4].

أما عن تحكم الزيانيين في الصناعة فلا نمتلك معلومات دقيقة من شأنها أن تميط اللثام عنها؛ يذكر السلطان أبو حمو الثاني في كتابه "واسطة السلوك" ضمن باب أقسام أعداء الملك بعض الوصايا لابنه في كيفية الاستعداد لمواجهة عدوه في حالة ما إذا كان أضعف منه وذلك في قوله " ثم تدور بمعقله الحفائر والمخادع التي تليق بالمحاصر، وتستعمل الدرقات والأنفاظ والمنجنيقات..."[5]، ومن خلال هذا النص نلاحظ إشارة إلى الحث على استعمال هذا السلاح مما يدل على اهتمام سلاطين بني زيان بهذا السلاح صناعةً واستخدامًا.

أما فيما يخص استخدام الزيانيين لهذا السلاح فيمكن القول أنهم لم يبقوا يعتمدون على الأسلحة التقليدية كما كانوا في سابق عهدهم بل تطلّعوا فيما بعد إلى المكتشف الجديد المتمثل في البارود. إذ تشير بعض النصوص إلى أنّ الزيانيين هم كذلك استخدموا السلاح الناري في حروبهم بواسطة المدافع وذلك في القرن الثامن الهجري لكي يتطور فيما بعد إلى استخدامه في شكل بنادق أو قذافات خلال القرن العاشر الهجري.

والراجح أنّ خبرة الزيانيين قليلة في هذا المجال صناعةً واستعمالاً، وهو ما استنتجته من خلال إحدى النصوص حيث يُذكر أنه أثناء الحملة الاسبانية على تلمسان سنة 950هـ/1543م كانت قصبتها محصنة بسلاح المدفعية، لكن المشرفين على هذه المدفعية لا يعرفون استعمالها أو الرمي بها بشكل

---

[1]- الناصري، الاستقصا، 36/3.

[2]- المصدر نفسه، 36/3.

[3]- ابن خلدون، العبر، 223/7.

[4]- مجهول، زهر البستان، ص135.

[5]- أبو حمو الزياني، المصدر السابق، ص188.

صحيح[1]؛ وبالتالي عدم تحكم الجند الزياني في استعمالها والرمي بها وهذا ما يبين أنها ليست صناعة محلية بل استخدموا في ذلك اللفيف الأجنبي كما بينت ذلك بالنسبة للصناعات الحربية الأخرى.

ويفسر أحد المستشرقيين عدم تحكم المغاربة في صناعة هذا السلاح الذي يعتبر أقصى ما وصلت إليه تكنولوجيا العصور الوسطى بالتخلف الفكري الذي يغذيه ويسيطر عليه الأسطوري والخرافي الذي يتعارض مع العلمي والتقني، ويضيف بأنّ ذلك هو السبب في خلق فجوة تقنية أو تكنولوجية لصالح الدول الأوربية والتي عبر عنها بالتفاوت التكنولوجي[2].

جدول يوضح مختلف الطوائف الحرفية التي ساهمت في الصناعة الحربية الزيانية

أنواع الحرف	الحرفي	المصنوعات	المواد المستخدمة	طبيعة السلاح	المصدر
الحِدادة	الحداد- الرماح	السيوف الخناجر السكاكين الرماح- النبال الركاب-	الحديد	الدفاع – الهجوم	-البغية، 155/2 -العقباني:تحفة الناظر، ص140 -واسطة السلوك، ص65 -الأنيس المطرب، ص311 -رحلة المدجن، ص93 -العبر، 7/95-126
صناعة الدروع والخوذ	الدرّاع	الدروع الخوذات	الحديد الجلد	الدفاع	البغية، 155/2 الأنيس المطرب، ص311
صناعة التروس	الدرّاق	التروس (الدرق)	الجلود الخشب	الدفاع	البغية، 155/2

1 -Fardeheb, « la Contribution espagnole dans les techniques guerrièrres algériennes : les premiers arquebusiers du royaume de telemcen », Séminaire internationale sur les sources espagnoles pour l' histoire de l'Algérie, 20-21-22 Avril, 1981, université de Oran, p4.
نقلا عن عبد الفتاح، المرجع السابق، ص99-100.

2- عبد الفتاح، المرجع السابق، ص100.

صناعة السروج والألجمة والسيور	السرَّاج اللَّجام	اللِّجام- السيور- السروج	الحديد الجلد المنمق	تجهيز الخيل	البغية، 155/2 العقباني، تحفة الناظر، ص140 رحلة المدجن، ص93. التنسي، 235. مارمول كاربخال، 300/2 الوزان، 27/2
تدبيج الأسلحة	الدبّاج	نقش وتزيين السيوف وبعض الأدوات الحربية الأخرى	الذهب – الفظة		البغية، 155/2
دباغة الجلود وصباغتها	الدبّاغ الصبّاغ	تحويل الجلود من مادة أولية إلى قطع قابلة للاستعمال	الجلود		**المازوني، الدرر المكنونة، 137/2و. الوزان، 24/2. مارمول، 372/2.**
حرفة النجارة	النجار	الدبابة المنجنيق	الخشب الجلود		البغية، 155/2
طرز الملابس الجلدية	الوشاء	لباس الجند	الجلود ومواد الطرز		البغية،155/2
صناعة البارود		المدفع- البندقية	البارود- النفط	الدفاع- الهجوم	العبر، 223/7 . واسطة السلوك، ص188. نفاضة الجراب، ص 305. فيض العباب، ص273

ثانيا: شراء الأسلحة

كان للوضع السياسي المتردي الذي عاشته الدولة في النصف الثاني من القرن 7هـ- 14 م الأثر الكبير في دفع مؤسس الدولة السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م) الذي عُرف بنظرته الواقعية وبصيرته النفاذة إلى توطيد علاقات تجارية مع دول أوربا لتعويض الناقص من السلع التي تفتقدها الدولة في هذه الفترة وبالأخص السلاح؛ لأنّ الدولة لم تكن تمتلك مصانع أسلحة لتمويل الجيش بما يحتاجه في حروبه؛ وبخاصة عهد يغمراسن الذي عُرف بكثرة الحروب حيث بلغت عدد حروبه ضد القبائل العربية وحدها اثنتين وسبعين حربا، ناهيك عن حروبه الداخلية ضد تجين ومغراوة[1] وحروبه ضدّ الأطراف الخارجية.

لقد كانت تلمسان خلال هذه الفترة من أكبر أسواق السلاح الوارد من أوربا عن طريق ممالك إسبانية النصرانية، وقطلونية خاصة، ثم من الجمهوريات الإيطالية وموانئ فرنسا الجنوبية، وكانت عملية شراء الأسلحة تتم بالمقايضة سلاح مقابل بعض المواد الأخرى مثل العاج والأبنوس والتبر والصوف وريش النعام والتوابل والطرائف الإفريقية التي كان الناس يقبلون عليها.

1- التجارة مع "دار الحرب" بين النظر الشرعي والواقع التاريخي

ينظر إلى الحرب عادة على أنها عدوان بين الأطراف قد تكون سببا في قطع أي اتصال بالطرف الآخر، بل قطع كل ما من شأنه تقوية الخصم على الحرب والصبر عل تطويل مدتها، ولعل السبب في إطالتها أحيانا يكون لدى المحارب مخزون هائل من الطعام والعلوفة وأدوات الحرب ومادتها[2]، أقر الإسلام المعاملات التجارية مع العدو، وأجاز استمرارها حتى وإن نشبت الحرب[3]، ولكن الفقهاء المسلمون وضعوا بعض القيود على الصادرات والواردات اقتضتها حاجة الدفاع فأفتوا بتحريمها[4] ومنها على وجه الخصوص آلة الحرب، وعدة الفرس، وما يستعان به على حرب المسلمين[5].

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 228/1.

[2]- مفتاح، ضو غمق: نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام، ط1، ليبيا: دار الكتب الوطنية، 1426هـ، ص269-270.

[3]- وهبة، الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ط3، دمشق: دار الفكر، 1419هـ/1998م، 314.

[4]- الونشريسي، المعيار المعرب، 103/5-113. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الاسلامي، ص513.

[5]- المقري، الكليات الفقهية، تحقيق: محمد بن الهادي أبو الأجفان، (د.ب): الدار العربية للكتاب، (د.ت)، ص120-121. الونشريسي، المصدر السابق، 103/5-113. 67/6.

كما وردت بعض الفتاوى تحرم ذلك ونذكر على سبيل المثال سؤال الفقيه أبو عبد الله محمد بن سالم حول: "طعام الحداد الذي يصنع آلة الحرب من السيوف والرماح والسكاكين والنبل وغير ذلك"[1]؛ فكانت إجابة الفقيه هي أن يلتزم الحداد ببيع سلاحه في بلد الحرب بين المسلمين والكفار[2]، وقصدهم في هذا التحريم هو منع النصارى من الاستفادة بهذه الأسلحة والسلع في حروبهم ضدّ المسلمين؛ كما نهى هؤلاء أيضا التجار على عدم السفر إلى بلاد النصارى، وكرهوا المقام فيها لأنّ في ذلك إعلاء لكلمتهم[3].

وفي المقابل نلاحظ أنّ هذه المبادلات مرفوضة أيضا من طرف الكنيسة التي كانت تصدر قرارات الحظر بخصوص إمداد المسلمين بأي مادة من شأنها أن تساعد أولئك –الكفار– في حربهم ضد أنصار المسيح[4]؛ ومن ذلك القرار الذي أصدره الملك الأرغوني خاييم الثاني في سنة 720هـ/1320م حيث يمنع المتاجرة مع تلمسان ببعض المواد الإستراتيجية المتمثلة في الأسلحة والحديد والخشب والرصاص وكذلك بعض الحبوب كالقمح والشعير والذرة البيضاء والدخن والفول ودقيق كل الحبوب والجلبان وحبال القنب أو غير ذلك من المواد الصالحة لصناعة حبال السفن[5]. **فهل قام كل طرف بتطبيق شريعته فيما يخص منع مثل هذه المبادلات؟**

إنّ الواقع التاريخي يبين أنّ مثل هذه الاعتبارات الدينية لم تُطبق في بعض المراحل التاريخية نظرا لحساسية المرحلة التي كانت فيها عاصمة الدولة الزيانية وحاجتها إلى الأسلحة بأي شكل، من أجل درء الخطر الذي يتربص بها من كل الجهات.

---

[1]– ابن البناء التلمساني: شرح التلمسانية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، و 42 وجه.

[2]– هذه الفتوى سُئل عنها عبد الله محمد بن سحنون. يقول صاحب المخطوط استكمالا للجواب: "...وإن كان يجعل سلاحه إلى مواضع الفتنة التي تقع بين المسلمين فقد فعل حراما لأنّ في ذلك إعانة على سفك دماء المسلمين. فالواجب على من ولي أمر المسلمين مثل القاضي والوالي أن يقحماه عن ذلك فإن لم يقف ضرب وسجن وجعل ماله وكسبه في يت مال المسلمين أو يفرق على الفقراء والمساكين". ابن البناء التلمساني، شرح التلمساني، و 42 ظهر.

[3]– الونشريسي، المصدر السابق، 489/2. 318/6.

[4]– "العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوربا في الفترة (7-10هـ/13-16م)"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ وعلم الآثار، الجزائر (تلمسان)، 2013-2014ص165.

[5]– قبل هذا القرار أصدر الملك خاييم الأول في سنة 673هـ/1275م قرارا يذكر فيه القطلونيين الذين رخّص لهم التحول إلى إفريقية وممارسة التجارة فيها بمنعهم المتاجرة بالأسلحة وكل المواد التي تدخل في ذلك. العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوربا، ص165.

2- دور أهل الذمة في تجارة الأسلحة

تقاطر عدد هام من تجار أوربا على الدولة الزيانية خاصة من فرنسا وأرغون وقشتالة؛ واستقروا ببعض المدن منها وهران وتلمسان وهنين[1]، خاصة بعدما استفادوا من بعض الامتيازات والتسهيلات من طرف ملوك تلمسان منها حرية ممارسة شعائرهم الدينية وتسهيل المعاملات التجارية وفق بعض المعاهدات التي أبرمتها مع ملوك النصارى وكذلك إقامة فنادق خاصة لهؤلاء التجار.

أ- دور التجار النصارى

بمقتضى المعاهدات التي أُبرمت بين الدولة الزيانية وبعض الدول الأوربية منها ممالك إسبانيا النصرانية وجمهوريات إيطاليا وفرنسا تنص على بيع وشراء بعض السلع والمواد من بينها السلاح[2]، حيث كانت تلمسان من أهم أسواق السلاح الوارد من أوربا في القرن 7هـ/13م؛ وكانت أول معاهدة سنة 648هـ/1250م عقدها السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م) مع بعض ممالك اسبانيا النصرانية[3]، أما الثانية فقد عقدها نجله السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) مع مملكة أرغونة سنة 684هـ/1285م[4]. فكانت فرصة للتجار النصارى في هذه المرحلة أدوا دورا هاما في الاتجار بالسلاح[5] وتتمثل هذه الأسلحة في السيوف، والخناجر، والرماح[6]، بالإضافة إلى بعض المعادن التي تستخدم في صناعة الأسلحة منها الرصاص والحديد[7].

---

[1]- العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوربا، ص234.

[2]- محمد، مكيوي: "دور يغمراسن بن زيان في تأسيس الدولة الزيانية"، دورية القرطاس، الدراسات الحضارية والفكرية، العدد التجريبي، 2008، ص209.

[3]- جيلالي، صاري: تلمسان الزيانية –إرهاصات ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديث-، ترجمة: مسعود حاج مسعود، الجزائر:دار القصبة للنشر، 2011، ص2-39.

[4]- العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب بجنوب أوربا، ص222.

[5]- علي، محمد الصلابي: دولة الموحدين، ط1، بيروت: مكتبة حسين العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص320.

[6]- نميش، "دور أهل الذمة في المغرب الأوسط"، ص80. روبار، برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15م، تعريب: حمادي الساحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988، 267/2.

[7]- رشيد، بورويبة: الجزائر في التاريخ، الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، (د.ت)، 482/3.

وقد كان من نتيجة تلك القرارات التي تحرم بيع كل ما يتعلق بالتجهيزات العسكرية أن لجأ هؤلاء التجار إلى تهريب هذه السلع وبيعها إلى بلاد المغرب عامة وتلمسان خاصة[1]. أما ما يتعلق بفتوى علماء القيروان بتحريم بيع هذه المواد إلى النصارى؛ فالواقع ومن خلال ما كشفت عنه النصوص فإنّ معظم المواد التي كانت تلمسان تقوم بتصديرها إلى بلاد النصارى لا تتعلق بالأدوات الحربية باستثناء الخيول، وإنما هي عبارة عن مواد زراعية وغذائية كالفواكه المجففة والتمور والعسل والزيت[2]، بالإضافة إلى المنسوجات الصوفية ذات الجودة العالية التي اشتهرت بها تلمسان[3] حيث كانت محل اهتمام تجار أوربا إذ كانوا يقبلون على شرائها حتى في أيام الحروب[4]. أما الحيوانات فبالإضافة إلى الخيول[5] كانت الأغنام أيضا ضمن المبيعات.

ب- دور التجار اليهود

عُرف اليهود عبر التاريخ بالتجارة فقد كانت من أهم الأنشطة التي يزاولونها إلى جانب احترافهم لبعض الحرف؛ وقد برز دورهم في القرن السابع الهجري 13م في المبادلات التجارية في بلاد المغرب الإسلامي خاصة بعد سقوط الدولة الموحدية وقيام الدول الثلاث؛ حيث استرجعوا نفوذهم التجاري الذي فقدوه في العهدين المرابطي والموحدي[6]، وبعد الهجرات المتتالية ازداد عددهم في تلمسان، ومما يدل على كثرتهم هو ما أشار إليه الوزان بأنّ لهم حارة تضم نحو خمسمائة دار لهم وكلهم أغنياء[7]، ولم ينحصر استقرارهم في العاصمة فقط وإنما انتشروا كذلك في بوادي المغرب الأوسط ومارسوا التجارة فيها وذلك حسبما تشير إليه بعض النوازل[8].

---

[1]- نميش، المرجع السابق، ص75.

[2]- المرجع نفسه، ص80.

[3]- جورج، مارسي، مدن الفن الشهيرة، الجزائر: دار النشر-التل-، 2004، ص100.

[4]- حسين، مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، (د.ب): دار العصر الحديث للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص140.

[5]- رغم توفر الخيول في شبه الجزيرة الإيبيرية إلاّ أنها كانت ضمن صادرات دول المغرب إليها، وهذا إن دلّ على شيء يدل على خصوصية الخيل العربي وأصالته.

[6]- فوزي، سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1996، ص73.

[7]- الوزان، وصف افريقيا، 20/2.

[8]- الونشريسي، المعيار المعرب، 253/2.

لعب اليهود أيضا دورا في المتاجرة في العديد من السلع منها السلاح الذي يجلبونه من أوربا لأنهم لعبوا دورا هاما كوسطاء بين تجار تلمسان وتجار أرغونة، ولكننا لم نقف على أنواع هذه الأسلحة، كما اشتهر اليهود كذلك بالتجارة في الذهب والفضة والحرير والعبيد[1].

ثالثا: لباس الجيش

ليس سهلا البحث في موضوع لباس الجند أو الزي العسكري حسبما هو مصطلح على لباس هذه الفئة في العهد الزياني، ويُعزى ذلك إلى قلة النصوص التاريخية التي جاءت على ذكر ذلك؛ إذ نلاحظ فراغ محسوسا في هذا الموضوع في أغلب فترات العهد الزياني باستثناء ما تعلق بفترة السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) حيث جاء وصف ذلك في خضم الحديث حول الاستعراضات العسكرية، وكذلك فترة النصف الأول من القرن 10هـ- 16م وهي الفترة التي عاش فيها الوزان (كان حيا 957هـ/1550م) الذي نقل لنا صورة لباس الجيش في تلك الحقبة.

فما تعلق بفترة السلطان أبي حمو الثاني وهي فترة استثنائية في العهد الزياني نظرا للتطور الذي بلغته في الكثير من الميادين وبخاصة الميدان العسكري؛ حيث كان لهذا السلطان الفضل في إضفاء طابع الحضارة على الدولة الزيانية فكانت فترة حكمه مرحلة انتقالية خرجت منها الدولة من طور البداوة إلى التحضر[2]، وأشير بالذكر إلى أنّ كان النص الوارد عند يحي بن خلدون (ت780هـ/1378م) بخصوص اللباس خالٍ من تفاصيل الزي العسكري الذي ارتداه الجند أثناء الاستعراض، لكن يُفهم من خلال الإشارة إلى زينة لباسهم وتوشيحه إلى أنّ الزي العسكري في فترة أبي حمو الثاني كان على درجة من الجودة[3].

أما ما يخص فترة القرن 10هـ -16م فمن خلال ما أورده الوزان الذي قسّم لباس الجند إلى قسمين وذلك حسب الرتبة العسكرية، فلباس القادة العسكريون حسب قوله كان يتميز نوعا ما بالجودة مقارنة بلباس الجند الذي وصفه بالرداءة[4]؛ حيث كان القادة يضعون فوق القميص كساءا آخر من الجوخ

---

[1]- لطيفة، بشاري: "مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني"، مجلة دراسات تراثية، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ع1، 2007، ص27.

[2]- لا ننفي جهود السلاطين الأول على نحو يغمراسن وأبي تاشفين الأول في سعيهم لتطوير الدولة العبد الوادية على كافة المستويات لكن يعتبر عهد أبي حمو موسى الثاني بحق العصر الذهبي للدولة الزيانية.

[3]- بغية الرواد، 170/2.

[4]- الوزان، وصف إفريقيا، 21/2.

(الملف)، ويجعلون فوقه معطفا على نمط المعاطف التي يرتديها الناس في إيطاليا خلال أسفارهم[1]؛ في حين كان عامة الجند يضعون على ظهورهم قمصانا من القماش واسعة وعريضة الأكمام يغطونه بكساء كبير يرتدونه في فصل الصيف والشتاء، ويضيفون إليه سترة من الجلد في الشتاء لتقيهم من شدة البرد الذي كانت تتميز به مدينة تلمسان[2].

ما يمكن قوله حول المستوى المنحط الذي بلغته فئة الجند رغم حساسيتها ومكانتها في جهاز الدولة وذلك من خلالها زيها الذي تميّز بالرّداة يدل على ما بلغته الدولة الزيانية في نهاية عهدها من ضعف وتدهور في المجال السياسي والعسكري والاقتصادي؛ أما الشبه الموجود في هذا اللباس بلباس الناس في إيطاليا فإنه يدل على مدى التأثر بهم من خلال انفتاح مدن المغرب الأوسط على دول جنوب أوربا في الفترة الأخيرة من عمر الدولة.

رابعا: رواتب الجيش

حول مسالة رواتب الجيش في العهد الزياني جاءت المادة العلمية بخصوصها في إشارات متفرقة؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ الراتب يمنح حسب رتبة الجندي حيث "يكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيتاتهم وشجاعتهم"[3].

الواقع وحسبما أشارت إليه بعض النصوص التاريخية أنّ هناك معيار آخر في توزيع أجور الجند وهو جنسيتهم؛ حيث يستفيد المرتزقة المسيحيون الذين كانوا ضمن الجند الزياني من أجور عالية مقارنة بأجور الفئات الأخرى؛ فقد كشفت لنا المعاهدة التي أُبرمت بين السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) مع ألفونسو ملك أرغونة سنة 685هـ/1286م بأن يكون راتب كل جندي أرغوني يعمل عند السلطان الزياني بإثني عشر درهما في اليوم للفرد الواحد[4]، أما في عهد أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) فقد كانت تتراوح بين خمسة دنانير وخمسين دينارا ذهبا في كل

[1]- الوزان، وصف إفريقيا، 21/2. خالد بلعربي، النظام العسكري بالمغرب الأوسط، ص25.

[2]- الوزان، المصدر السابق، 21/2. فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 267/1.

[3]- أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص203.

[4]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص24.

شهر[1]، في حين تقدر أجرة الفارس من القبائل المحلية ب ثلاثة دنانير من الذهب، مع علف فرسه وهو عشرون برشالة من القمح وثلاثون من الشعير[2].

أما نصوص القرن العاشر الهجري وهي تتفق في أنّ أجرة الفارس كانت ملائمة للغاية إلى حد أنّ أقلهم رتبة وهو الجندي ينال شهريا "ثلاثة مثاقيل بسكتهم، تعادل ثلاث دوكات ونصف دوكة إيطالية"[3]، في حين يستفيد المحاربون الذين يرافقون الملك من عدة امتيازات وإعفاءات إلى جانب رواتبهم الحسنة التي أتاحت لهم أن يعيشوا حياة راضية[4].

ويضيف مارمول حول القبائل العربية التي تحارب إلى جانب السلطان أنها تتقاضى رواتبا منه لضمان ولائها وتبعيتها له؛ لأنّ أغلب هذه القبائل تعلن تمردها باستمرار وتنظم إلى من يدفع لها الأكثر[5].

خامسا: الاستعراضات العسكرية

تعددت المناسبات والاحتفالات التي كانت تُقام في تلمسان خلال العهد الزياني، ومن ضمنها الاستعراضات العسكرية التي كانت من بين التظاهرات الاحتفالية، وإن كانت هذه الأخيرة مقترنة ببعض السلاطين الذين تميّزوا بالشخصية العسكرية والاهتمام بالجيش على غرار السلطان يغمراسن مؤسس الدولة وأبي حمو موسى الثاني الذين كانا يقيمان استعراضات عسكرية ضخمة لجيوشهم، يتم خلالها استعراض العاب الفروسية بالخيل والسلاح، كما أنها فرصة لتفقد عدّته الحربية وقدراته القتالية[6]، وذلك بحضور العامة والخاصة، ومن جهة أخرى يكون الغرض من هذه الاحتفالات هو استعراض القوة من جهة ومن جهة أخرى التسلية وتكسير نمط الحياة العادية.

لكن وفيما يخص اهتمام السلطان يغمراسن باستعراض جيشه فإننا لا نمتلك معلومات وافرة حول ذلك، لأنه جاء في سياق الحديث حول محاولة اغتياله من طرف جند النصارى في خضم الاستعراض العسكري الذي قام به وسط المدينة[7] يوم الأربعاء 25 ربيع الآخر سنة 652هـ/1254م[8].

---

[1]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص24-25.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 38/2.

[3]- الوزان، المصدر السابق، 21/2.

[4]- مارمول، المصدر السابق، 300/2.

[5]- المصدر نفسه، 292/2.

[6]- فيلالي، المرجع السابق، 286/1.

[7]- هذا المكان سماه يحي بن خلدون "المنية". بغية الرواد، 228/1.

[8]- ابن خلدون، بغية الرواد، 228/1.

أما فيما يخص الاحتفال العسكري الذي أمر السلطان أبو حمو موسى الثاني بالقيام به فقد نقل لنا يحي بن خلدون أجمل صورة عنه من خلال مشاهدته لذلك العرض ووصفه وصفا دقيقا، وبما أنه كاتب السلطان فمن واجبه أن يكتب كل ما من شأنه أن يمجد ويخلد ذكرى سلطانه وولي نعمته.

في شهر شعبان من سنة 767هـ/1365م أمر السلطان أبو حمو عماله بإعداد الترتيبات اللازمة لأول استعراض رسمي للجيش أحياه منذ توليه عرش تلمسان، وذلك في الفاتح من شوال حيث بدأ الاستعراض في ساحة المدينة أمام يدي الملك حيث جهزوا له مكانا عاليا حسبما جاء في وصفه ليتمكن من مشاهدة الاستعراض وهو جالس "في خباء مطل من أعلى ربوة على بسيط مستو"[1].

أما الجيش فقد اصطفّ في كتائب لا يحويها العد، ولا تحيط بأقطارها الأبصار، مما يوحي إلى كثرة عدده في عهد أبي حمو الثاني فقد بلغ اثني عشر ألف فارس في هذا الاستعراض[2]، وكل فارس يتزين بسلاحه ولباسه الموشح، لأنّهم حسب قول أبي حمو: "يزيدون في بهاء الملك وجماله وضخامته وكماله، وهم مما يتزيّن بهم الملوك والأمراء والأشراف والكبراء"[3]، لكن ما يُعاب على نص يحي بن خلدون أنه لم يفدنا بأنواع الأسلحة التي تم استعراضها باستثناء السيف.

ووسط كل كتيبة يوجد فنين من الجلد الوشي، وخلخل اللجين، يخطِمُهُ بسلسلة من الفضة غلمان لبسوا الأقبية الحسان المختلفة الألوان، وعليه هودج مزين بأنواع الحلل[4].

ونلاحظ أنّ هذا الاستعراض لا يخلوا من مشاركة النساء؛ ففي خضم هذا الوصف يذكر المؤلف أنّ الهودج تخرج منه فتاة جميلة الوجه واللباس تسحر كل من يراها، وتغني بأشعار زناتية مما يُهيّجُ أريحيات الهمم، ويبعث الحماس في نفوس المستمعين لها[5].

وتستمر الاحتفالية من ضحى اليوم إلى غروب شمسه، حيث تتقدم كل الكتائب لرفع التحية للسلطان، ويتم خلال هذا اليوم أيضا إحصاء لعدد المتطوعين في جيش أبي حمو من القبائل المنضوية تحت سلطته، ثم يميزون حسب مهمتهم في القتال بين الرامح والنابل[6].

---

[1]- المصدر نفسه، 170/2.

[2]- المصدر نفسه، 170/2.

[3]- واسطة السلوك، ص146.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 170/2. فيلالي المرجع السابق، 286/1.

[5]- ابن خلدون، المرجع نفسه، 170/1.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 170/1.

وانطلاقا من هذه التظاهرة نلاحظ أنّ أبا حمو سيجعل تجربته هذه من ضمن النظريات السياسية للملك إذ ينبغي "أن تضم جيشك للأعياد تجمعهم من سائر البلاد، وتخص قودك والأجناد، يعيّدون لعيدك ويمتثلون أمرك في وعدك ووعيدك"[1].

ومن المناسبات التي أقام لها السلطان أبو حمو احتفالا هي رجوع والده السلطان أبي يعقوب (ت763هـ/1361م) إلى الحاضرة تلمسان قادما إليها من فاس[2]، وذلك بعدما تمكن ابنه من إحياء ملك أجداده مرة أخرى؛ فاستقبله في موكب عظيم يوم 17 رجب سنة 760هـ/1358م شاركه فيه أهل تلمسان[3]؛ وصفه صاحب زهر البستان في قوله: " وأمر المولى أبو حمو بركوب جيشه المنصور ثم أخرج الطبول والعلامات، وأمر أهل تلمسان بالزينة والخروج للملاقاة. فخرج الناس كالخروج للأعياد. وركب الجيش في أحسن الاستعداد. ولم يبق بتلمسان حاضر ولا بادي ولا رائح ولا غادي إلاّ وينشد هذا القدوم العظيم ويحضر هذا الملتقى الجسيم...وعندما قاربه ترجّل وبايعه وتلاه على البيعة جيشه ومن تابعه ثم أمر بالطبول أن تضرب على رأس أبيه وبالرايات أن تنشر حسبما يرضيه"[4]، حتى دخل إلى القصر واستمر الاحتفال في جو من البهجة والسرور، وقد رفع الفقيه محمد بن يوسف الثغري قصيدة يهنئ فيها السلطان أبا حمو بهذه المناسبة اخترت فيها بعض الأبيات[5]:

مولاي يا أعلى الملوك مراتبـا *** وأجلهـم قدرا وأعلى معشـرا

يهنيك جمع الشمل بالمولى أبي *** يعقوب والولـد الأبر الأطهـرا

أعطـاك ربك فوق ما أمَّلتـه *** فاحمد حمدًا دائمـاً متكـررا

عادت تلمسان إلى عاداتهـا *** وبحسنكم حسنت وراقت منظرا

حق الهنـاء لنا وتمَّ سرورنـا *** ولنا الفخار بكم على كل الورى

نلاحظ من خلال إحدى النصوص المتأخرة للرحالة مارمول والتي جاءت على ذكر احتفالات ملوك تلمسان خلال القرن العاشر الهجري أنها لم ترقَ إلى المستوى الذي كانت عليه في عهد أبي حمو

[1]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص192.

[2]- استقرّ بفاس في حضرة أبي عنان بعد أن استولى المرينيون على تلمسان وقُتل السلطانان أبي سعيد وأبي ثابت.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 53/2.

[4]- مجهول، زهر البستان، ص66.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، 54/2. الأبيات من البحر البسيط.

الثاني لا في التجهيزات الخاصة بالاستعراض ولا في عدد الجند الذي أحصاه بألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، ويؤكد مارمول بأنّ هذا الاحتفال لم يكن كذلك بقدر احتفال ملوك فاس[1].

وبالمثل فإنّ الانتصار في الحروب أتاح مناسبة أخرى للاحتفال، فبعد الانتصار الذي حققه السلطان أبو تاشفين الثاني (718-737هـ/1318-1336م) على محمد بن يوسف واسترجاعه لجبل وانشريس سنة 719هـ/1319م أقام احتفالا لمدة ثلاثة أيام[2].

في الأخير نستنتج أنه في سبيل إنجاح هذه الحروب انصبت جهود سلاطين الدولة بداية من مؤسس الدولة إلى اتخاذ إجراءات حاسمة منها مادية والمتمثلة في إيجاد مصادر مالية من أجل تمويل خزينة الدولة كالغنائم والجبايات والتجارة الخارجية وغيرها، والبشرية المتمثلة في استقطاب القبائل البربرية والعربية وضمها إلى الجيش بالإضافة إلى اللفيف الأجنبي الذي استخدمته في الصناعة الحربية وكعناصر في الجيش، وهذه الإجراءات إن دلت على شيء تدل على الاستراتيجية العسكرية الحكيمة التي اتبعها سلاطين الدولة للبروز كقوة عسكرية في المنطقة.

[1]- مارمول، إفريقيا، 301/2.

[2]- ابن خلدون، العبر، 126/7.

الفصل الثاني

تداعيات الحرب والحصار على المجتمع الزياني

المبحث الأول: تداعيات الحرب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي.

المبحث الثاني: تداعيات الحرب على المستوى الجسدي.

المبحث الثالث: تداعيات الحرب على المستوى النفسي.

المبحث الأول: تداعيات الحرب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي

سبقت الإشارة إلى أنّ الحروب كانت السمة البارزة في العهد الزياني نظرا لكثرتها بالإضافة إلى عامل آخر وهو الحصار الذي تعرضت له العاصمة تلمسان وبعض المدن الأخرى عدة مرات، وهو ما أثّر سلبا على الحياة العامة للمجتمع على كافة المستويات. **فإلى أي مدى أثرت هذه الحروب والحصارات[1] في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأفراد؟ وماهي أكثر الفئات تضررا؟**

والحقيقة لم تكن العوامل الطبيعية والمناخية السبب الوحيد في حدوث المجاعات التي شهدها المغرب الأوسط[2]، وإنّما للعوامل البشرية أيضا دور خطير في ذلك، فبسبب تكاليف الحروب وأعبائها يلجأ الحكام إلى فرض الإتاوات الجائرة، وضرب الضرائب المجحفة على الأهالي، فضلا عن قلة احتكار الناس للزرع[3] والتجارة بسبب قلة الأمن وانقطاع الطرق، وكل ذلك يفضي إلى نتيجة حتمية تتمثل في حدوث المجاعات[4] وندرة المواد الغذائية وانتشار الفقر والأمراض، وقد قرر ذلك ابن هيدور حيث قال: "أنّ الغلا لحدوثه سببان إما احتباس المطر في البلاد المحتاجة إليه، وإما بسبب الخروج على الملوك، فإذا دامت الفتنة وقع الفساد في الحواضر والبوادي، وفسدت حبوبها المختزنة، وانقطعت الطرق وعدمت المرافق لأجل ذلك"[5].

---

[1]- مجد الدين محمد، بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مراجعة: محمد الإسكندراني، بيروت: دار الكتاب العربي، 2001، ، ص400.

[2]- حول موضوع المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط يمكن العودة إلى دراستين مهمتين وهما:" المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)" للأستاذة سمية مزدزو، وكذلك "المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698-845هـ/1298-1441م)" للأستاذ خالد بلعربي.

[3]- مزدور، "الأوبئة والمجاعات"، ص73.

[4]- جاء في القاموس المحيط الجوع: ضد الشبع والمصدر: جَاعَ جَوعاً ومَجَاعةً. وعام مَجَاعَةٍ ومَجْوَعَةٍ كمرحلة فيه الجُوعُ. ص الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص763. وكذلك الجوع اسم للمخمصة، وهو نقيض الشبع والمجاعة: عام الجوع. ابن منظور أبو عبد الله محمد الأفريقي المصري: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، 94/8.

[5]- علي، بن عبد الله بن هيدور التادلي: الأمراض الوبائية، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم 9605. نقلا عن خالد بلعربي، "المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698-845هـ/1298-1441م)" ضمن كتاب ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني، الجزائر: دار هومة، 2014، ص97.

أولا: المجاعة

من خلال المادة الخبرية التي نقلتها لنا المصادر التاريخية تبين لي أنّ المجتمع الزياني تعرض للمجاعة بسبب ظروف الحرب والحصار.

1-أشهر المجاعات

لا مناص من أن أسوق خبر مجاعتين عظيمتين ابتليت بهما تلمسان، وهما: المجاعة التي حدثت أثناء الحصار الطويل للعاصمة تلمسان ومجاعة سنة 776هـ/1374م.

أ-مجاعة الحصار الطويل

فضلا عن الحروب التي تعرضت إليها الدولة الزيانية تعرضت العاصمة تلمسان كذلك إلى الحصار عدة مرات، ويشير أحد الباحثين إلى أنّ ضرب الحصار على التجمعات السكانية كثيرا ما كان سببا في حدوث ظاهرة الغلاء أو الجوع[1]. لكن وحسب اطلاعي فإنني لم أظفر بمعطيات كافية حول أوضاع وسلوكيات السكان في هذه الفترات وما ترتب عنها من مجاعات وإزَم غذائية وغلاء في الأسعار باستثناء ما ورد حول الحصار الطويل. وبما أنّ أول المظاهر القبيحة للمجاعة هو ندرة الأقوات والتهاب الأسعار فهذا ما سأحاول الوقوف عليه في هذا العنصر.

كان من أخطر المجاعات التي ألمت ببني عبد الواد حسبما ورد في المصادر ما عُرف بمجاعة الحصار الطويل الذي وقع في نهاية القرن السابع الهجري فرضه السلطان أبو يعقوب يوسف المريني ودام أكثر من ثماني سنوات؛ وتجمع المصادر التاريخية على أنه أشهر حصار في التاريخ الإسلامي عامة وفي العهد الزياني خاصة؛ ونظرا لشدة هذا الحصار وطول أمده هناك من الباحثين الجزائريين[2] من شبّهه بحصار "طروادة" الشهير، لكن ما يختلف بينهما هو النهاية حيث انتهى حصار طروادة بسقوط المدينة بينما ظلت تلمسان بأهلها صامدة حتى مات السلطان يعقوب المريني؛ وقد كان هذا الحصار منطلقا لسلسلة من الحصارات التي سيشهدها العهد الزياني لاحقا.

---

[1]- محمد، استيتو: الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16و17م، ط1، وجدة: منشورات مؤسسة النخلة للكتاب، 2004، ص68.

[2]- يحي، بوعزيز: "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236-1554م"، مجلة الأصالة، قسنطينة، ع26، جويلية- أوت 1975.ص10.

ويعتبر هذا الحصار السبب الرئيسي لحدوث مجاعة عظمى في تاريخ بني زيان[1]، والذي تسبب في هلاك أهالي تلمسان حيث ذاقوا الأمرين الجوع والخوف بعد تشديد الخناق عليهم إذ أحاط السلطان المريني العسكر بها من جميع الجهات فلا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم[2]، وهو في ذلك يشدد عليهم الحصار ويقول لأواصلنه عليهم حتى أقتلنهم جوعا[3]. كما أصدر أمرا بقتل كل من يُدخل بضاعة أو مواد غذائية إليهم[4]، مما أدى إلى تأزم الوضع أكثر فضَعُفَ بأهل تلمسان الجهد ونفذت الأقوات[5] حتى أشرفوا على الهلاك[6]، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "ونالهم من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم"[7].

– غلاء الأسعار

تعد الأسعار محررا لقياس أوضاع السوق وحدة الأزمات الغذائية لذلك تكاد تكون ظاهرة تحرك الأسعار العنصر الملازم لمختلف أحداث المجاعات مهما كانت الأسباب التي تقف خلفها[8]، وكما ذكرت سابقا فمن تبعيات الحصار الطويل حدثت مجاعة شديدة في تلمسان نتيجة لندرة المواد الغذائية وغلائها في الأسواق. فقد شهدت المواد الغذائية المختلفة ارتفاعا سريعا ومهولا في أسعارها حيث "غلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد"[9]، لكن وعلى الرغم من هذا الغلاء إلاّ أنّ الأسواق

---

[1]– لم تحدد لنا المصادر التاريخية تاريخ بداية ونهاية هذه المجاعة بل حصرتها في مجال زمني يشمل كل سنوات الحصار. سمية مزدور، المرجع السابق، ص133.

[2]– ابن خلدون، العبر، 130/7. الناصري، الاستقصا، 79/3.

[3]– ابن الأحمر، روضة النسرين، ص61.

[4]– ابن خلدون، العبر، 262/7. بلعربي، "المجاعات والأوبئة"، ص101.

[5]– ابن خلدون، بغية الرواد، 232/1. الناصري، المصدر السابق، 85/3. ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م، ص91. محمد الطمار: تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزاءر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص105.

[6]– انظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص512. ابن خلدون، بغية الرواد، 231/1. ابن خلدون، العبر، 114/7. الوزان، وصف إفريقيا، 17-18. مارمول، إفريقيا، 302/2.

[7]– ابن خلدون، العبر، 113/7.

[8]– الطبابي، بلقاسم: الموت في مصر والشام (1250-1517) النكبات الديموغرافية في العهد المملوكي، ط1، تونس: الدار التونسية للكتاب، 2014، 127/1.

[9]– ابن خلدون، العبر، 113/7.

بقيت قائمة بها[1]. إذ كان التجار يجلبون البضائع من بعض موانئ تلمسان كتنس وشرشال والجزائر ووهران وينقلونها خفية إلى تلمسان ويبيعونها بالغلاء[2].

وقد قدمت لنا بعض المصادر التاريخية لائحات طويلة عن أسعار المنتوجات الزراعية واللحوم في تلمسان أثناء الحصار الطويل يصفون فيها الغلاء الفاحش الذي بلغته، كما تم أيضا تسعير بعض الحيوانات في هذه المجاعة كالكلاب والقطط والبغال والحمير[3] ولم يبق الحال عند هذا الحد بل أدى تدهور الوضع الغذائي بالناس في تلك المرحلة إلى شراء لحوم الجيف أيضا التي كانت تباع في هذه الأسواق بأثمان مرتفعة وسنبين حركة الأسعار لهذه الفترة في هذا الجدول.

جدول يوضح بعض المنتوجات المعروضة في أسواق تلمسان في فترة الحصار الطويل وتسعيرها

المواد الغذائية	الكمية	السعر	المصدر
القمح	اثني عشرة رطلا ونصف	مثقلان ونصفا من الذهب العين	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
	رطل	ديناران	نظم الدر، ص132
	صاع	ديناران وربع	البغية، 234/1
	كيل (روجيو)	ثلاثون مثقالا	الوزان، 18/2
الشعير	صاع		البغية، 234/1
الزيت	أوقية	اثنا عشر درهما	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
	رطل	ديناران	التنسي، ص132
السمن	أوقية	اثنا عشر درهما	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3

[1]- مزدور، "المجاعات والأوبئة"، ص208.

[2]- المرجع نفسه، ص208.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 113/7.

	رطل	ديناران	التنسي، ص132
الشحم	أوقية	عشرون درهما	الاستقصا، 86/3
العسل	رطل	ديناران	التنسي، ص132
الملح	أوقية	عشرة دراهم	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
	سكورزو	ثلاثة مثاقيل	الوزان، 18/2
الفول		ثلاثة أثمان المثقال	العبر، 113/7
اللفت		خمسة عشر درهما	
الخس	حبة	عشرون درهما	العبر، 113/7-114 الاستقصا، 86/3
القثاء والفقوس	حبة واحدة	أربعون درهما	العبر، 113/7-114 الاستقصا، 86/3
الخيار		ثلاثة أثمان الدينار	العبر، 114/7
			الاستقصا، 86/3
الإجاص	حبة واحدة	درهمان	العبر، 113/7-114 الاستقصا، 86/3
التين			
البقر	رأس واحد	ستون مثقالا	العبر، 113/7. الاستقصا، 86/3
الضأن	راس واحد	سبعة مثاقيل ونصف	العبر، 113/7. الاستقصا، 86/3
البغال	رطل من اللحم	ثمن المثقال	
الحمير	رطل من اللحم	ثمن المثقال	
الخيل	رطل من اللحم	عشرة دراهم صغار ونصف	
الجلد البقري	رطل	ثلاثون درهما	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3

الهر	واحد	مثقال ونصف	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
الكلب			
الحية	واحدة	عشرة دراهم	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
الفار			
	واحد	ثمن معتبر لكنه لا يتذكره	انس الفقير، ص91
الدجاجة	واحدة	ستة عشرة درهما	العبر، 113/7
		ثمانية دنانير ذهبا	التنسي، ص132
		عشرة دنانير ذهبا	انس الفقير، ص91
		ثلاثين درهما	الاستقصا، 86/3
العصافير	واحد	ستة دراهم	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
البيض	واحدة	ستة دراهم	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
القمح	ثمانية صيعان	ديناران وربع (بعد فك الحصار مباشرة)	البغية، 234/1
	ثمانية أصع	ثمن دينار (بعد الحصار مباشرة)	نظم الدر، ص135
الشعير	صاع		البغية، 234/1
الكرنب	حبة واحدة	ثلاثة أثمان المثقال	الاستقصا، 86/3 العبر، 113/7
الحطب		عشرة دراهم	العبر، 113/7 الاستقصا، 86/3
البطيخ		ثلاثون درهما	العبر، 113/7

يكفي إلقاء نظرة سريعة على الجدول لإدراك أنّ عبد الرحمن بن خلدون هو الذي أمدنا بمعطيات كثيرة حول السلع المعروضة في أسواق تلمسان زمن الحصار الطويل ومختلف أسعارها مقارنة بما قدمه أخوه يحي بن خلدون والتنسي وابن قنفذ والناصري والوزان، وهذه الأسعار المرتفعة كفيلة بالكشف عن الحالة الكارثية التي آلت إليها العامة لأنها الأكثر تضررا بحركة صعود الأسعار ونزولها، وتتمثل هذه السلع في الحبوب والخضر والفواكه واللحوم وبعض المواد الغذائية الأخرى. مع ورود بعض الاختلافات في تسعير المادة الواحدة بين مؤرخ وآخر، ومن خلال الجدول كذلك نلاحظ تدني هذه الأسعار بعد رفع الحصار مباشرة مما يوحي إلى أنّ شبح المجاعة قد اختفى.

كما يمكن أيضا الإشارة من خلال ما ورد في الجدول إلى الاختلاف في الوحدات المستعملة في المكاييل وكذلك العملة، فبالنسبة للمكاييل نجد عبد الرحمن بن خلدون يستعمل الأوقية كوحدة للميزان بينما يستعمل أبو عبد الله التنسي الرطل، في حين يستعمل يحي بن خلدون الصاع للقمح والشعير، وأخيرا الوزان الذي يستعمل الكيل والرطل وغالبا ما يذكر هذه المكاييل باللغة الإيطالية مثل (روجيو- سكورزو).

أما بالنسبة للعملة فقد استعمل ابن خلدون عبد الرحمن الدراهم والمثقال كوحدة نقدية للتسعير والشيئ نفسه بالنسبة ليحي الذي استخدم هو الآخر الدراهم وهذا ما يوحي إلى تدهور عملة الدولة في هذه المرحلة بسبب المجاعة التي يمكن أن تكون إحدى هذه الأسباب إضافة إلى الحروب ومختلف الكوارث الأخرى[1] حيث لا نجد ذكرا للدينار الذهبي المتداول به سابقا والذي سيأتي ذكره عند التنسي وابن قنفذ مع أنهما يتحدثان عن الفترة نفسها؛ أما الوزان فقد استخدم المثقال.

ب-مجاعة سنة 776هـ/1373م

يذكر أحد الباحثين[2] أنّ المصادر المغربية لم تُبد اهتماما لمختلف الأزمات التي عرفتها بلاد المغرب، وأن كل ما جادت به جاء في سياق العرض التاريخي والسياسي، أو بما هو مثبت في حوليات بعض المؤرخين الذين اعتادوا الإشارة إلى الأحداث الطبيعية من مجاعات وأوبئة وغيرها، دون الالتفات إلى النتائج المترتبة عنها سواء اجتماعية كانت أو اقتصادية على اعتبار أنّ هدفها توثيقي بحت[3].

---

[1]- مزدور، المرجع السابق، ص205.

[2]- مفتاح، خلفات: قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6-9هـ/12-15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري، الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2011، ص428.

[3]- محمد، المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، الرباط: مؤسسة جذور للنشر، 2006، ص156. نقلا عن خلفات

يتحدث ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) على مجاعة عظيمة ألمت بالمغرب عامة[1] وتلمسان على وجه الخصوص سنة 776هـ/1374م[2] معبرا عن ذلك: "وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب، وعم الخراب"[3]، ويعتبر ابن قنفذ شاهد عيان على هذه المجاعة ونقل لنا مشاهداته حينما مرَّ بتلمسان أثناء رحلته من المغرب إلى قسنطينة حيث حتمت عليه هذه الظروف المكوث بها لمدة شهر[4] قبل استئناف رحلته.

لكن ابن قنفذ على الرغم من أنّه عايش تلك الظروف إلاّ أنه لم يرصد لنا مختلف التداعيات التي تعتبر نتيجة حتمية لتلك المجاعة على الأفراد والجماعات؛ كسقوط العديد من الموتى جوعا وعطشا، وانتشار الأمراض والأوبئة، كما أنه لم يقدم لنا النمط الغذائي الذي كان سائدا عند المجتمع التلمساني في هذه المرحلة ولم يحدثنا عن الأغذية التعويضية (البديلة) التي لجأت إليها العامة؛ وكل ما استطعنا الوقوف عنده في سياق حديثه هو غلاء شديد في أسعار المواد الغذائية وصعوبة العيش، وضيق في الموارد والمقاصد، ولقد أخبرنا عن نفسه وكيف أنه لم يستطع تحمل نفقاته أثناء إقامته هناك والتي بلغت أربعة دنانير ذهبا كل يوم[5].

ونضيف شهادة يحي بن خلدون الذي عاصر هو الآخر هذه المجاعة حيث يشير إلى أنّ أسباب هذه المجاعة مناخية بحتة تتمثل في "إعصار عظيم، أهلك زرع صائفة تلمسان وحيوانها..."[6]؛ إلا أنني لا أستبعد أثر الفعل البشري في ذلك فلقد شهدت تلمسان خلال هذه الفترة —وهي فترة حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م)- عددا من المساجلات الحربية الخارجية، والفتن الداخلية، هذه المرحلة التي وصفها التنسي قائلا: "فليقظة حربه نام عمر الحروب، وبصرامة إقدامه تجلت

مفتاح، المرجع السابق، ص428.

[1]- نشير بالذكر إلى أنّ هذه المجاعة لم تقتصر على بلاد المغرب الإسلامي فقط وإنما شملت مصر والعراق والشام وأجزاء من أوربا وذلك حسبما نقلته لنا المصادر. انظر على سبيل المثال ابن القاضي، لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تحقيق: محمد حجي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976، ص215. نقلا عن خالد بلعربي، "المجاعات والأوبئة بتلمسان"، ص103.

[2]- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص126. وأشار إليها كذلك يحي ابن خلدون في بغية الرواد، 298/2.

[3]- ابن قنفذ، المصدر السابق، ص126.

[4]- المصدر السابق، ص126.

[5]- ابن قنفذ، المصدر السابق، ص126.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 11/2.

عن زيد الخيل الكروب..."[1]، والتي من شأنها زعزعة النشاط الفلاحي من خلال إتلاف المحاصيل وتقلص المساحة المزروعة، فمن المحتمل أن تكون هذه الأخيرة أحد أسباب هذه المجاعة[2]، وهو ما ذهب إليه الباحث خالد بلعربي قائلا بأنّ الحروب التي خاضها أبو حمو موسى الثاني خلال فترة حكمه، وما رافقها من فتن داخلية كان لها دور كبير في تضرر الفلاحة[3].

2- الفئات الاجتماعية، التفاوت في نسبة الضرر

يعتبر تاريخ الأغذية حقلا خصبا، فهو ملتقى يجمع تاريخ الثقافة المادية، والتاريخ الاجتماعي، والأنثروبولوجيا التاريخية، والاقتصاد، والجغرافيا، وحتى البيولوجيا وعلم التغذية[4]. ويعتبر تاريخ الأغذية في المغرب الأوسط في العهد الزياني حقلا بكرا بحاجة إلى المزيد من التنقيب والبحث حيث لا نجد سوى دراسات شحيحة تعد على رؤوس الأصابع التي اهتمت بتاريخ الأغذية في هذه الفترة نذكر على سبيل المثال دراسة الأستاذ عبد العزيز فيلالي التي أعدها حول تلمسان.

أ- الفئة الحاكمة

واقع الحال أننا لا نملك حول موائد هذه الفئة سوى متون نصيّة تعدّ على رؤوس الأصابع يُفهم من خلالها أنّ هذه الفئة كانت تعيش حياة الرفاهية؛ وذلك من خلال الكشف عن موائدهم التي كانت تحتوي على أطباق شهية ومتباينة، ومنها ما ذكره أبو عمران موسى المازوني عن مائدة السلطان يغمراسن التي طلب بإعدادها للشيخ سيدي واضح أثناء مجالسته له[5]، والتي كانت تحتوي "طعاما كثيرا بلحم

---

[1]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص161.

[2]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص105.

[3] - المرجع نفسه، ص105.

[4]- محمد، حبيدة: تاريخ الأغذية ضمن كتاب "كتابة التاريخ قراءات وتأويلات"، ط1، المغرب: دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، 2013، ص117.

[5]- موسى بن عيسى، المازوني: مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تحقيق: عبد القادر بوباية، الجزائر: الرشاد للطباعة والنشر، 2017، ص140. محمد، ابن صعد الأنصاري التلمساني: روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق: يحي بوعزيز، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، 403/2.

سمين"[1]، ونشير بالذكر إلى أنّ موائد النخبة كانت مميزة منها الموائد التي كان يطلب السلاطين بإعدادها خصيصا للأولياء والصالحين إكراما لهم.

كما كشف لنا صاحب البغية في سياق حديثه حول الاحتفالات التي كان يقيمها السلطان أبو حمو موسى في كل سنة بمناسبة المولد النبوي الشريف[2]، وفيما يتعلق بليلة المولد النبوي التي أحياها سنة 760هـ/1358م قدم جردا لمختلف الأطعمة التي تزين ذلك المجلس قائلا: "وتملأ الخوانات بألوان الأطعمة الشهية، والأشربة اللذيذة، ثم يأتى إليهم بالفواكه، فالحلواء في صورة تتحف الناظر، وتطيب لها الأنفس"[3].

لكن وعلى الرغم من أنّ هذه الفئة لم تتضور جوعا وكانت بمنأى عن أزمة الجوع ومرد ذلك لما كانوا يملكونه من مدخرات الحبوب والأقوات أعدوها خصيصا لمثل هذه الأوقات[4]، لكن هناك بعض الفترات الاستثنائية أدت إلى نفاذ ما تم ادخاره مثلما حدث في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن الذي شهد عهده الكثير من الاضطرابات السياسية، حيث اخبرنا ابن مريم عن "غلاء كبير حدث في تلمسان حتى تعطلت منه المساجد وانغلقت، وبعث سلطان الوقت[5] لأهل البلد، وطلبهم في الزرع للشراء؛ فلم يجده عند احد"[6]، وفي هذا السياق يمكن أن نضيف الضيق الشديد الذي تعرض له السلطان أبو حمو الثاني وحاشيته حيث نفذ طعامهم ولم يجدوا ما يقتاتون به حين عزموا الخروج إلى الصحراء بعد سقوط تلمسان في يد السلطان عبد العزيز المريني عبر يحي بن خلدون عن ذلك في قوله: "لم يرد بها ولا قومه ماءً، ولا استاموا أكلاً، ولا عرفوا غير برْضِ القوت غذاء"[7]، وبعد أيام بلغ بهم العطش مبلغه إذ "نفذت الأمواه، وبلغ ثمن الشربة الواحدة إلى رُبُع دينار"[8].

---

[1]- المازوني موسى بن عيسى، مناقب صلحاء الشلف، ص140. ابن صعد لم يذكر محتويات هذا الطبق.

[2]- مجهول، زهر البستان، ص110. التنسي، المصدر السابق، ص162.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، 46/2.

[4]- الميلي، مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر: منشورات مكتبة النهضة الجزائرية، 2004، ص454.

[5]- ما يثبت أنّ هذا الغلاء حدث في فترة السلطان عثمان بن يغمراسن هو ما ذكره ابن مريم حول إحدى الكرامات للولي الصالح يحي بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن رحمون وهو أحد قضاة هذا السلطان. بغية الرواد، 230/1.

[6]- أبو عبد الله محمد، ابن مريم الشريف المليتي المديوني: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ط1، تحقيق: عبد القادر بوباية، لبنان: دار الكتب العلمية، 2014، ص507.

[7]- بغية الرواد، 231/2.

[8]- المصدر نفسه، 231/2.

وهناك أيضا من النصوص ما يدل على أنّ المجاعة طالت موائد السلاطين وذلك من خلال تقهقر وانحطاط في المستوى الغذائي لديهم؛ نبين ذلك من خلال ما قاله مارمول عن غذاء السلطان بأنه "عبارة عن مزيج من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه"[1]، وكان اللبن أيضا طعامهم في وقت الحصار[2] بعد أن كان غذاؤهم يتميز بالجودة العالية والتنوع.

وضمن الطبقة السياسية يمكن كذلك الحديث عن فئة الجند التي مسها الجوع هي كذلك حيث أنهم كانوا يستفيدون من القليل من الطعام فقط؛ فمن خلال صيغة النص الذي ورد عند ابن خلدون في سياق حديثه عن دور يحي بن موسى[3] الذي أوكله أبو حمو مهمة توزيع القوت على المقاتلة بالمقدار[4].

ب–النخبة الفكرية

لم تكن النخبة أحسن حالا من باقي الفئات الاجتماعية الأخرى وحسبنا في ذلك ما نقله لنا ابن مرزوق الخطيب على لسان والده حين دخل إلى تلمسان عائدا من فاس في هذه الفترة قائلا: "لما وصلت إلى تلمسان ومعي والدتك، وصلت إليها والحال ضيقة، وألفيت الدار خربت، وغلات الجناة قد أنفقها عمك قال. فضاقت المعيشة وتقتر الإنفاق وتعذر ما أصلح به شأن داري"[5].

ومن زاوية أخرى يبدو أنّ هناك من الفقهاء من لم يتضرر من ظروف هذا الحصار فبعدما وجد أبو العباس أحمد بن مرزوق (ت741هـ/1340م) داره خربة وخالية من أي أسباب الحياة كما ذكرت؛ اتجه مع زوجته إلى دار الفقيه القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن زاغ وهو من أحد أقاربه فقال: فوجدنا حالهم في سعة[6].

---

[1]– الوزان، المصدر السابق، 18/2.

[2]– ابن خلدون، العبر، 113/7.

[3]– لا نعرف عن هذه الشخصية الكثير سوى أنه من بني سنوس إحدى بطون كومية نشأ في خدمة السلطان عثمان بن يغمراسن وأولاده. المصدر نفسه، 134/7.

[4]– المصدر نفسه، 134/7.

[5]– أبو عبد الله محمد، بن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2008، ص237.

[6]– ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص237.

ت– العامة

تجمع المصادر التاريخية أنّ مجتمع المغرب الأوسط يعد أساسا من المجتمعات الزراعية[1]، وأنّ الحبوب هي المادة الأساسية لغذاء السكان، ويأتي في مقدمتها القمح والشعير الذين يُصنع منهما العديد من أنواع الخبز[2] بالإضافة إلى الحبوب الأخرى كالحنطة والذرة والدخن[3]، وكذلك الخضر والفواكه التي كانت تشتهر بها المنطقة من خس ولفت وخيار وبطيخ وكرنب وكروم وتين وخوخ ورمان وغيرها.

وتَعَرُّضُ هذه الخيرات إلى الانتساف والتخريب بسبب الحروب واجتياحات الجيوش حتما سيصعب على سكان هذه المناطق تأمين غذائهم، وفي اعتقادي أنّ فئة الفقراء والمعوزين والمتسولين والمساكين تكون في الواجهة الأمامية عند اندلاع المجاعة نظرا لحالتهم الاقتصادية المزرية وتدني مستوى المعيشة لديهم.

في حين يمكن للفئات الوسطى الميسورة الحال كالتجار وأرباب الحرف والفلاحين أن تواجه هذا الحصار نظرا لاهتمامهم بالادخار قصد ضمان القوت لمواجهة خطر الجوع على الأقل في الفترات الأولى للمجاعة إذا كانت هذه الأخيرة طويلة الأمد.

إذن في الختام يمكن القول أنّ هذه العوامل التي أدت إلى حدوث المجاعات وتعرض الناس إلى أزمات غذائية حادة هي من فعل الإنسان وليست الطبيعة وحدها، وذلك ما جعل ابن خلدون يتوقع بأن: " قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالبا... إلا أنّ الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع"[4].

---

[1]– سمية مزدور، المرجع السابق، ص64.

[2]– من أنواع الخبز نذكر الخبز المختمر، والفطير وهو خبز بدون خميرة، وخبز السميد، وخبز الدقيق. انظر ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص191-236-246-299.ابن صعد التلمساني، روضة النسرين، ص57. أبو عبد الله محمد، بن عمر الملالي التلمساني: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تحقيق: علال بوربيق، الجزائر: دار كردادة للنشر =والتوزيع، 2011، ص331. ابن قنفذ، الأرجوزة في الطب، المسماة أنس الحبيب عند عجز الطبيب في منافع الأغذية والأشربة، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2015، ص27. ابن مريم، البستان، ص16.

[3]– الوزان، المصدر السابق، 12/2. مزدور، المرجع السابق، ص64.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، ص320.

ثانيا: الفقر والفقراء المجال السلطة الحرب

كان للوضع السياسي المتأزم في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط نظرا لكثرة الحروب والاضطرابات السياسية نتائج سلبية كان الفقر من أخطر نتائجها المباشرة؛ نظرا لتأثيرها المباشر في الحياة الاقتصادية للنّاس لأنّها تهددهم بسرعة استنزاف المؤن[1]، وتبديد الثروات وأكثرها جلبا للفقر والإفلاس، بفعل ما يُنتج عنها عادة من لُجوء إلى القهر، واستعمال العنف ضدّ الرعيّة للحصول منها على الضرائب، ومصادرة الأموال، ونهب المدخرات، ممّا يُلهِي النّاس عن المعايش ويُنفّرهم عن الكسب والفَلَح[2]. **فهل أفصحت المدونة الوسيطية الزيانية عن هذه الظاهرة؟ وهل كشفت عن الفئات الأكثر تضررا؟**

الملاحظ أنّ المصادر التاريخية على اختلافها قد تباينت في ذكر هذه الشريحة بمصطلحات مختلفة فقد وصفتهم كتب المناقب بالضعفاء والمساكين والفقراء والمغابن وذوي الحاجات[3] في حين ذكرتهم كتب النوازل وكتب التاريخ السياسي بالفقراء[4] والمساكين[5] وبعض الكتب الأخرى بالمحتاجين[6]. مع الإشارة إلى أنّ ما ذكرته هذه المصادر بشأنهم يبقى ضئيلا مما يزيد من صعوبة التأريخ لشريحة شبه مجهولة ومنسية[7].

1-أسباب الفقر

تحالف سببان رئيسيان نتج عنهما تفشي ظاهرة الفقر في المجتمع الزياني خلال مرحلة البحث وهما:

أ- تخريب المحاصيل الزراعية وإنهاك المشهد الفلاحي

عندما لا تصبح الحقول طوال سنوات متعددة سوى مسرحا للمعارك، أو مجرد ممر لعبور وحدات

---

[1] - بلطي ظافر: "من فتاوى الطّعام الونشريسي منطلقا"، ضمن أعمال اليوم الدراسي خطاب الطعام في الثقافة الإسلامية، تونس: 15 فيفري 2013، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، ص81.

[2] -أستيتو، الفقر والفقراء، ص68.

[3] - انظر على سبيل المثال: ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص155-165-173-176-181-211-299. مع العلم أنّ كتب المناقب عادة تطلق مصطلح الفقراء على الأتباع والمؤيدين. ابن صعد: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، تحقيق: محمد أحمد الدياجي، ط1، بيروت: دار صادر، 2011، ص77. الهامش

[4] - مجهول، زهر البستان، ص64. المازوني، الدرر المكنونة، 712/2-716-742. الونشريسي، المعيار المعرب، 168/9-187.

[5] - مجهول، المصدر نفسه، ص64. الونشريسي، نفسه، 185/9.

[6] - أبو حمو موسى، واسطة السلوك، ص153.

[7] - لا أملك بين يديا أي دراسة متخصصة بحثت في تاريخ هذه الفئة الاجتماعية المستضعفة في العهد الزياني يمكن الاستئناس بها؛ على الرغم من كثرة عددهم في المجتمع الزياني.

المحاربين، التي تعيش في المنطقة وتمارس فيها سياسة الأرض المحروقة، فإن الأمر ينتهي بالفلاحين بالانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم أو إلى عدم الاهتمام إلا بالحد الأدنى الذي يكفيهم للغذاء"[1]؛ ولا تعوزنا الدلائل على كثرة التعديات التي صدرت أغلبها من طرف الجيش المريني، وبعض القبائل البربرية والعربية نتيجة الفتن السياسية التي كانت تنشب بين الفينة والأخرى بينها وبين السلطة المركزية، مما أدى إلى تقلص المشهد الفلاحي في الفترة محل الدراسة.

ومن خلال المادة الخبرية التي توصلت إلى جمعها تأكد لي أنّ الفلاحة كانت المتضرر الأول خاصة من تتابع الغزوات المرينية ليس فقط في خطوط التماس بين الجانبين ونقصد به الجهة الغربية للدولة الزيانية بل تعدتها إلى المناطق الزراعية والرعوية المحيطة بالعاصمة تلمسان، مما يؤكد على عدم احترام النصوص الشرعية التي جاءت على منع قطع أو تخريب الأشجار والمزروعات وفي ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "**لا تهدموا بيتا ولا تعْقِرَنَّ شجرة إلاّ شجرا يمنعكم قتالا أو يحجر بينكم وبين المشركين**"[2].

لقد كان لهذه الحروب التي بدأت بوادرها الأولى تنشب بين بني عبد الواد وبني مرين منذ العقد الثالث من القرن 7هـ/13م، دور واضح في تخريب كثير من المجالات الزراعية والرعوية[3]، ومن ذلك نذكر الغارات التي شنها السلطان يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م) سنة 670هـ/1271م بمؤازرة قبائل بني تجين التي كان يتزعمها محمد بن عبد القوي بن عطية لأخذ الثأر من السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م) لما ألحق بهم من تخريب لبلادهم[4] فضيقوا على تلمسان وعاثوا فيها فسادا واكتساحا للبسائط "فقطعوا الثمار والجنات وخربوا الرباع وأفسدوا الزروع وحرقوا القرى والضياع حتى

---

1 –Mols (R), Introduction de la démographiehistorique des villesd'Erope du (XIV au XVIII siècle), T2, Louvain, Belgique, 1954 p460.

نقلا عن خالد بلعربي، المرجع السابق، ص97.

[2]- سنن البيهقي، 90/9. نقلا عن احسان، الهندي: أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، ط1، دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، 1993، ص182.

[3]- حميد، تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609-869هـ/1212-1465م، الدار البيضاء: منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2009، ص233.

[4]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 310-311. الناصري، الاسقصا، 33/3.

لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم حاشا السدرة والدوم"[1]، ويتكرر المشهد بعد فترة من الزمن من خلال اجتياح جيش هذا السلطان على تلمسان وأحوازها إذ "بقي يرتحل في أحوازها ويأكل زروعها ويسبي ويغنم أموالها ويخرب قراها"[2]، مما يبين حجم الضرر الذي مس الفلاحة.

وفي السياق ذاته نذكر التخريب الذي ألحقه الجيش المريني في عهد السلطان أبي الحسن (731-749هـ/1330-1348م) لتلمسان سنة 732هـ/1331م والذي ألحق بها أضرارا جسيمة وقد عبر عن ذلك ابن خلدون (ت808هـ/1405م) قائلا: "فخربوا عمرانها وانتهبوا ما كان من الأقوات مختزنا بها...فانتهب الناس من تلك الأقوات ما لا كفاء له. واصرعوا مختطّها بالأرض فنسفوها نسفا[3]، وذروها قاعا صفصفا"[4].

ومن القرائن التي يمكن أن نضيفها حول تبعات الحرب على الأنشطة الفلاحية ما ذكره الونشريسي (ت914هـ/1508م) في إحدى النوازل التي تضمنها معياره ما نصه: "عمن اسؤجر على حصاد زرع بآصع معلومة منه نصفه فنزل عليه الجيش فأجاحه كله..."[5]، ما من شأنه أن يُعرض فئات المجتمع المختلفة إلى المجاعات والشدائد نتيجة فقدانها لمحاصيلها الزراعية.

ولكي لا أخوض في سرد ممل للحملات المرينية التي أضرت بالنشاط الفلاحي للمغرب الأوسط فترة الدراسة ارتأيت تسجيلها في هذا الجدول مع ذكر بعض النتائج المترتبة عنها.

---

[1]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص311.

[2]- ابن خلدون، العبر، 111/7-245. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 379. الناصري، المصدر السابق، 69/3.

[3]- نسف: قلعه من أصله. انظر الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص919.

[4]-ابن خلدون، العبر، 300/7-301.

[5]- المعيار المعرب، 232/8.

جدول يحتوي عينة من النصوص تبرز أهم الأحداث السياسية التي شهدها المغرب الأوسط وكانت سببا في تضرر الفلاحة

السنة	مصدر الأزمة	النص	النتائج المترتبة	المصدر
670هـ/ 1271م	حملة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني على تلمسان "معركة وادي ايسلي"	"وعظمت نكاية بني توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياع"	-إلحاق الضرر بالأراضي الفلاحية وإفساد المحاصيل -إخفاق الحملة	الاستقصا، 33/3 العبر،218/7 الأنيس المطرب، ص311
714هـ/ 1314م	حملة السلطان أبي سعيد المريني	-"ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية، فاكتسح نواحيها، واصطلم نعمها... ثم نهض إلى تلمسان ...وغلب على معاقلها ورعاياها، وسائر ضواحيها، فحّطمها حطما ونسف جهاتها نسفا" -"وساروا في بلاد يغمراسن يأكلون زروعها وينهبون أموالها..."		العبر، 287/7-288 الاستقصا، 105/3 الأنيس المطرب، ص399
732- 737هـ/	حصار تلمسان من طرف	"فعاثوا فيها تخريبا ونهبا، وانطلقت الأيدي	-تضرر سكان تلمسان من	العبر، 130/7 روضة النسرين،

1331-1336م	السلطان أبي الحسن المريني	على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات والأدم"	أعمال السلب والنهب ونفاذ الأقوات -سقوط تلمسان بعد ثلاث سنوات من الحصار	ص72
761هـ/1359م	اشتباكات بين جيش أبي حمو موسى والسلطان أبو سالم المريني	-"فنازلوا وطاط، وبلاد ملوية وكرسيف وحطّموا زروعها وانتسفوا أقواتها " -"وهذا قاصد للتخريب والتنكيد..."	-خراب العديد من المدن لكلا الطرفين -سقوط تنس في يد أبي حمو	زهر البستان، ص98-100-109 العبر، 149/7

ومن جانب آخر لم تسلم الأراضي الزراعية الواقعة في القسم الشرقي للدولة العبد الوادية وذلك تحت تأثير الحروب مع الدولة الحفصية نذكر على سبيل المثال لا الحصر حملة السلطان أبي زكريا الحفصي (625-647هـ/1227-1249م) سنة 640هـ/1242م؛ حين سمح لجيوشه بحرق ونسف ونهب كل ما يمرون عليه وهو ما نلمحه في هذا النص: "وانسلّت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه...باكتساح الأموال"[1].

على أنه ينبغي الاعتراف أنّ الحروب الداخلية للسلطة ضدّ بعض القبائل البربرية والعربية كان لها نصيب كبير من مسؤولية الخراب الذي مس الفلاحة خلال هذه المرحلة، فقد نتج عن غزوات السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) لبلاد مغراوة وتجين سنة 686هـ/1287م انتساف المحاصيل الزراعية والاستحواذ على كميات كبيرة من الحبوب وتخزينها.[2] ومن الأمثلة التي يمكن أن

[1]- ابن خلدون، العبر، 95/7-96. ابن خلدون، بغية الرواد، 113/1. أبو عبد الله محمد، بن ابراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، تونس: منشورات المكتبة العتيقة، (د.ت)، ص29.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 230/1. ابن خلدون، العبر، 109/7. الوزان، وصف إفريقيا، 28/2.

نضيفها أيضا اقتحام السلطان أبو حمو موسى الثاني (670-691هـ/1358-1388م) لمدينة وهران سنة 762هـ/1360م حيث "أقام النهب فيها إلى غد وقت صلاة الظهر"[1].

ويمكننا أن نضيف عاملا آخر ساهم هو الآخر في تراجع الفلاحة وتقلص مجالها وهو إغارة القبائل العربية التي كانت تأتي على الأخضر واليابس، والتي أدت بدورها إلى حرمان بعض المدن من المنتجات الزراعية وضياع الأموال والأنعام والممتلكات، وانصراف الفلاحين عن الاهتمام بالفلاحة؛ وحسبنا ما ذكره كل من الوزان ومارمول كاربخال عن مدينة مازونة المشهورة بزراعة القمح وتربية المواشي كيف تضررت من الغارات الهمجية لهؤلاء،[2] وتجدر الإشارة أيضا إلى مدينة مستغانم التي تمتلك أراضٍ جيدة للفلاحة لكنها مهجورة بسبب تعسفات الأعراب[3]، وكذلك حال مجانة " التي يحيط بها بسيط من القمح لكنه معرض لغارات عرب أشداء يعرفون بأولاد سليمان يعيثون فيها فسادا"[4]؛ هذا الوضع الذي سيؤثر سلبا على النشاط الفلاحي من خلال هجر الفلاحين للأراضي الزراعية وتقليص مساحتها.

ومما يمكن أن نضيفه في هذا السياق نتائج معركة البطحاء التي جرت وقائعها في 25 ذي الحجة 765هـ/1363م[5]بين السلطان أبي حمو الثاني (760-791هـ/1358-1388م) ومنافسه أبي زيان القبي[6] بمؤازرة عرب زُغبة؛ وكان من نتائجها انهزام جيش أبي حمو ومقابل إرضاء قبائل زُغبة واستمالتها إلى جانبه اضطر إلى التنازل عن امتيازات هامة لفائدتهم؛ منها التنازل لهم عن أخصب الأراضي التي كانت تمتلكها الدولة لتجنب خطرهم والاستراحة من فتنهم[7]. وبلا شك فإنّ فقدان الدولة لمثل هذه الأراضي حتما سيضر بالجانب الاقتصادي لها خاصة وأنّ الفلاحة هي عماد اقتصاد الدولة.

---

[1]- مجهول، زهر البستان، ص134.

[2]- الورزان، وصف إفريقيا، 36/2. مارمول، إفريقيا، 359/2.

[3]- الوزان، المصدر نفسه، 32/2.

[4]- مارمول، المصدر السابق، 382/2.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، 140/2.

[6]- هو حفيد السلطان أبو تاشفين الأول استعملته بني مرين ضد السلطان أبي حمو للإطاحة بعرشه.

[7]- عبد الحميد، حاجيات: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ط1، تلمسان: دار النشر بن مرابط، 2011، ص151.

ب- الضرائب المجحفة، الأطراف والتداعيات

تأثر سكان المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط من كثرة الضرائب والمغارم، فقد تحالفت عدة أطراف في فرض ذلك عليهم. **فما هي هذه الأطراف؟ وما هي تداعيات السياسة الضريبية المجحفة على المجتمع الزياني؟**

1-السلطة الزيانية

كانت السلطة الزيانية تفرض على أفراد المجتمع ضرائب متنوعة خاصة في الظروف العسيرة كظروف الحرب حينما تكون الدولة في حاجة ملحة إلى الأموال، وهو ما ساهم في إفقار قطاع واسع من المجتمع التلمساني[1]، كما هو الحال مع سكان تِسَّلَة الذين يؤدون خراجا مرتفعا للملك[2] وكذلك سكان مدينة وجدة الذين كانوا أثرياء فتحولوا إلى فقراء بسبب الخراج المرتفع الذي يؤدونه إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورين لهم بمفازة أنكاد[3].

ويمكن أن نستنتج ثقل هذه الضرائب كذلك من خلال المغارم التي أسقطها السلطان أبو الحسن المريني عقب حملته الناجحة على تلمسان وتمكنه من احتلالها سنة 737هـ/1336م[4]، حيث قدم لنا ابن مرزوق لائحة طويلة حول أنواع الضرائب التي قامت الدولة باستحداثها على السكان واصفا إياها بالمجحفة والباطلة والمهلكة قائلا: "فرفع فيها من المغارم ما كان شائعا خسيسا، ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، وإجحاف الضعيف بها أشد وغير ذلك من المغارم ورفع فيها أيضا تضعيف المخازن في الاختفاء...ومما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء وكان سقي الجنات يضطر فيه الى مغرم للبراءة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن مالا يدخل تحت حصر. ومما رفع رضي الله عنه ما أجريت عليه ألقاب باطلة، ووظفت فيه مغارم مهلكة كالحبل المطوي واللقب الذي يسمى باللسان البربري "ايزغدن"... "[5].

---

[1]- خالد بلعربي، "الأوبئة والمجاعات"، ص99.

[2]- الوزان، وصف إفريقيا، 25/2.

[3]- المصدر نفسه، 13/2.

[4]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص99.

[5]- ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومعاني مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، 2011، ص285.

ومما يُذكر أيضا في هذا السياق على مدينة تلمسان التي كانت معفية من الرسوم والضرائب في سابق عهدها فقد تأثر اقتصادها بعد سقوط ميناء وهران في يد النصارى الأسبان والذي تسبب في خسارة عظمى للدولة[1]، فاضطرّ ملكها إلى فرض ضرائب كبيرة على سكانها وهو الأمر الذي أثار حفيظة هؤلاء السكان فثاروا على هذا الملك وعلى ابنه الذي خلفه من بعده[2].

2-القبائل العربية

لم تكن السلطة الزيانية وحدها مَنْ فَرض على السكان سياسة ضريبية جائرة وإنما كان لبعض القبائل العربية في المغرب الأوسط ضلع في ذلك وهو ما أضرّ بسكان المغرب الأوسط عامة والبوادي خاصة حينما أحست بتقلص ظل الحكام والدولة عن المجال والساكنة في البوادي؛ وهو الأمر الذي يؤدي إلى تضررهم فقد كانوا يفرضون الضرائب المجحفة عليهم ويتحكمون في جبايتها دون حسيب أو رقيب "لأن همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما..."[3].

وأدعم قولي هذا بشهادة الوزان أثناء حديثة عن أهالي مدينة المدية ومدى تضررهم من هؤلاء فيقول: "إلا أن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، ولا يستطيع ملك تلمسان أن يدافع عنهم، ولا أن يسيطر عليهم، لبعدهم عن هذه المدينة بنحو 200 ميل"[4]. وفي نص آخر في سياق حديثه على مدينة مستغانم يضيف قائلا: "لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف..."[5]. وكذلك سكان مَرْكزان الذين "يتعرّضون كثيرا لتعسفات الأعراب"[6]، وذات الوصف يقدمه مارمول على حالة الفقر التي كان عليها أهل لمسيلة[7]ومزونة[8] نتيجة غارات القبائل العربية.

---

[1]- الوزان، المصدر السابق، 9/2.

[2]- المصدر نفسه، 23/2.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ص158.

[4]- الوزان، وصف إفريقيا، 41/2.

[5]- المصدر نفسه، 32/2.

[6]- المصدر نفسه، 32/2.

[7]- مارمول، إفريقيا، 381/2.

[8]- المصدر نفسه، 359/2.

3-الغزو الخارجي

نشير بالذكر كذلك إلى أن الغزو الخارجي كان أحد الأطراف التي ساهمت في تدهور الوضع الاقتصادي للدولة من خلال الجباية التي تفرضها عليها في الأوقات التي تخضع تلمسان أو بعض مدن المغرب الأوسط تحت سيطرتها؛ مثل ما حدث بعد سقوط تلمسان في يد أبي زكرياء الحفصي سنة 640هـ/1242م وتوقيع معاهدة صلح حيث كان من ضمن شروطها دفع "غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار فكانت له ولعقبه تأتيهم تلك الجباية كل سنة لم يقطعها إلاّ موت الملك أبي تاشفين"[1]، وكذلك الحال في عهد أبي تاشفين الذي كان يدفع جباية لسلطان المغرب أبي العباس؛ يشير ابن خلدون إلى ذلك قائلا: "ولم يزل هذا الأمير أبو تاشفين ملكا على تلمسان، ومقيما فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم مؤديا الضريبة التي فرضها عليه"[2]، ونضيف إلى ما سبق الجباية التي فرضها السلطان يعقوب المريني على أعمال مغراوة بشلف ومليانة بعد استيلائه عليها وهو محاصر لمدينة تلمسان في حصاره الطويل[3]، والحال ذاته عند استبداد أبي سالم المريني على الجزائر واستئثاره بجبايتها[4] يضيف ابن خلدون عن ذلك قائلا: "وأقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه"[5]، ولما أحس سكان مدينة الجزائر بضعف ملوكهم وعدم القدرة على الدفاع عنهم أعلنوا ولاءهم لأمير بجاية فصاروا يدفعون له الخراج لما أوجسوا منه خيفة[6].

وقد استفحلت هذه الظاهرة مع نهاية القرن الثامن الهجري وبداية التاسع الهجري في فترة كان بنو مرين يتحكمون في سلاطين بني زيان فصاروا يبعثون بالخراج كل سنة مثلما هو الحال في عهد السلطان أبي زيان بن أبي حمو (797-801هـ/1394-1398م)، والسلطان أبو محمد عبد الله بن أبي حمو (801-804هـ/1398-1401م) الذين كانا يعطيان الخراج للسلطان أبي سعيد المريني[7]، وكذلك

---

[1]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص118.

[2] - ابن خلدون، العبر، 175/7.

[3]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص47.

[4]- مزدور، "المجاعات والأوبئة"، ص80.

[5]-ابن خلدون، العبر، 287/7-288.

[6]- الوزان، المصدر السابق، 38/2.

[7]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص60.

السلطان محمد بن أبي حمو (804-813هـ/1401-1410م) الذي كان يقدم الخراج للسلطان عثمان المريني[1].

ومن الأطراف الخارجية التي فرضت هي الأخرى بعض الضرائب في الفترة الأخيرة من عمر الدولة الأسبان؛ حيث كان يرسل لهم السلطان أبو حمو "كل سنة اثنى عشر ألف قطعة ذهبية (بستول)، واثنى عشر فرسا وستة صقور إناث، فوق ذلك إلى أن مات"[2]. هذه الظروف التي ستساهم بلا شك في إضعاف خزينة الدولة وهو ما سينعكس سلبا على الفئات الاجتماعية الأخرى مما سيؤدي إلى رفع مؤشر الفقر والبؤس.

2- الفقر والفئات المتضررة

لا شك أنّ ظاهرة الفقر طالت كافة شرائح المجتمع الزياني بسبب الضرائب والجبايات الجائرة حسبما ذكرته أعلاه، لكنني سأقف هنا بالحديث حول فقر الفئات المنتجة وهم التجار والحرفيون والفلاحون ولم يكن إختيار هذه الفئات دون غيرها اعتباطيا وإنما نظرا لما توفر من مادة علمية بشأنهم.

أ- التجار والحرفيون

تأثر التجار كذلك من كثرة الضرائب والمغارم التي تفرضها السلطة عليهم نظرا لارتباطها الوثيق باقتصاد الدولة لأنّ معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار[3]؛ فقامت باستحداث العديد من المغارم على التجار والباعة في الأسواق "كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف وإجحاف الضعيف بها أشد"[4]، ومن الأمثلة التي نسوقها لإثبات ذلك ما ذكره الوزان أثناء وصفه للحالة المزرية التي كان عليها صناع أهل لمسيلة[5] يحمل العرب الهلالية مسؤولية ذلك بقوله:

---

[1]- المصدر نفسه، ص60.

[2]- مارمول، إفريقيا، 310/2.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ص297.

[4]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص285.

[5]- المسيلة بالفتح ثم الكسر، والياء الساكنة بعدها لام: مدينة قديمة كانت تسمى بالمحمدية أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة 313هـ تسكنها قبائل كثيرة من بربر عجيسة وهوارة وصدراتة وبني برزال تكثر فيها بساتين النخيل ومزارع القمح والشعير والقطن وتتوفر فيها كل أنواع الفواكه والبقول؛ وهي واقعة شمال شط الحضنة بعيدة عنه بنحو

"...والسكان كلهم صناع أو فلاحون يرتدون لباسا رديئا لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبون مداخيلهم"[1]، وكذلك صناع مازونة الذين عرفوا بصناعة النسيج لكنهم فقراء بسبب الأعراب الذين يثقلون كواهلهم بالإتاوات[2]، وذلك في ظل ضعف سلطة واليها في داخل وخارج المدينة[3]، ويسوق لنا الوزان كذلك أثناء حديثه حول تجار مدينة المدية ومدى تضررهم من الضرائب التي تفرضها عليهم بعض القبائل[4].

ب- الفلاحون

ومن الفئات الاجتماعية التي تأثرت بالضرائب وكانت سببا في فقرهم سكان مازونة الذين يشتغلون بالفلاحة، فمن خلال ما سجّله الوزان عن هذه المدينة أنّها تعرضت للتخريب بسبب الحروب ضدّ ملوك تونس، وأحيانا ضدّ بعض القبائل العربية "حتى أصبحت اليوم قليلة السكان وهم ...فلاحون وجميعهم تقريبا فقراء لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات"[5]. فضلا عن "المقادير التي يُجرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض"[6]. ما يؤدي بهم إلى العيش في حالة من الفقر والإفلاس والبؤس والتشرد.

سؤال يطرح نفسه علينا. إلى ماذا يُعزى ضعف سلاطين الدولة الزيانية في هذه الفترة؟ وأعتقد من جهتي أن سلسلة الحروب التي خاضتها الدولة على الجبهتين الداخلية والخارجية قد أنهك قواها، وأفقدها الاستقرار مما جعلها عاجزة عن حماية السكان الذين تضمهم أحواز تلمسان، وربما في بعض الأحيان عاجزة عن توفير الأمن حتى لأهالي تلمسان العاصمة نفسها.

---

38 كلم، وفي الشرق إلى الجنوب قليلا من مدينة أشير وبينهما نحو 87 كلم. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص84. الحميري، الروض المعطار، ص558. ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص122.

[1]- الوزان، وصف إفريقيا، 52/2.

[2]- المصدر نفسه، 36/2.

[3]- المصدر نفسه، 32/2.

[4]- المصدر نفسه، 41/2.

[5]- الوزان، المصدر السابق، 36/2.

[6]- مامول، إفريقيا، 359/2.

3- الفقر ومضاعفاته قراءة في كتب الرحلة

إذا كانت النصوص السالفة الذكر[1] قد أسدلت الستار على وصف الحالة الاقتصادية التي كانت عليها مختلف الشرائح الاجتماعية في ظروف الحرب والحصار؛ فإنّ النصوص التاريخية الواردة في كتب الرحلة الخاصة بالقرن العاشر الهجري 16 ميلادي قد أفصحت عن ذلك ونقلت لنا الصورة الكاملة عن حالة الفقر التي تتخبط فيها بسبب الحرب أو بسبب الأمراء والقبائل العربية من خلال تعسفهم في الجباية.

لقد تنبّه الوزان إلى عامل الرّبط بين الأهمية الاقتصادية للمجالات المختلفة وبين الأحوال المعيشية لسكانها من حيث غناهم وفقرهم[2]، وربط هذه الظاهرة -أي الفقر- ومضاعفاته بعنصر الأمن؛ بحيث أنّ الأوضاع الأمنية السائدة بتلك المناطق وطبيعة علاقة السلطة بهؤلاء هي التي تتحكم في انتشار الفقر في هذه المناطق.

كما أوضح من خلال معايناته أنّ المناطق التي ينعم أهلها بالغنى والثروة لا تقتصر فقط على تلك الغنية بمواردها الفلاحية والمعدنية مثلما هو حال مدينة مليانة المشهورة بالصناعة والفلاحة[3]، وتفسرة الغنية بمناجم الحديد[4]، وتسلّة والبطحاء التي ينبت فيها القمح الجيد[5]، وجبل مغراوة الذي يضم أراضٍ جيدة للزراعة[6]، ودلّس التي تحتوي على أراضٍ زراعية كثيرة تنتج القمح بوفرة[7]، ومدينة تبحريت التي تشتهر بزراعة وإنتاج العسل[8]، أو تلك التي اشتهر أهلها بممارسة التجارة مثل أهالي المدية الأغنياء بفضل التجارة[9]، أو تلك المناطق التي كان سكانها لا يؤدون أيّة ضريبة مثلما هو الحال مع سكان جبال الجزائر المتحررين من كل إتاوة[10]، وسكان ندرومة الذين لا يدفعون أي خراج لأنهم تحت حماية قبيلة مطغرة[11]، وسكان برشك

---

[1]- وهنا أقصد كتب التاريخ السياسي.

[2]- استيتو، المرجع السابق، ص162.

[3]- الوزان، وصف إفريقيا، 35/2.

[4]- المصدر نفسه، 24/2.

[5]- الوزان، المصدر نفسه، 25/2-27.

[6]- المصدر نفسه، 45/2.

[7]- المصدر نفسه، 42/2.

[8]- المصدر نفسه، 15/2.

[9]- المصدر نفسه، 41/2.

[10]- المصدر نفسه، 46/2.

[11]- المصدر نفسه، 14/2.

الذين تحرروا من كل خراج لمدة مائة سنة[1]، أو الذين لا يدفعون إلاّ ضرائبا خفيفة مثل سكان مدينة شرشال الذين لم يؤدُّوا خراجا سنويا أكثر من ثلاثمائة مثقال[2].

وعلى العكس من ذلك فإنّ المناطق التي كان يسود فيها الفقر ليس بسبب قلة مواردها وإمكانياتها الاقتصادية، لكن وحسبما صرّحت به بعض النصوص فإنّ كل المناطق الخاضعة لابتزاز سلطة معينة تُثقل كواهلهم بمختلف أنواع الضرائب والمغارم، سواءا كانت هذه السلطة مركزيّة أو محليّة أو أجنبية[3]. زد على ذلك فترات القلائل والاضطرابات التي عايشتها هذه المناطق الأمر الذي يترتب عنه قلة اهتمام الناس بالكسب والإنتاج ممّا سيزيد من خصاصتهم وفقرهم.

وتقوم شهادة الرحالة المغربي العبدري الذي دخل مدينة تلمسان في أواخر القرن السابع الهجري 12م، حيث نقل لنا مشاهد البؤس والفقر، ومن المحتمل جدا أنّه مرّ بتلمسان سنة 689هـ/1290م لأنّ رحلته بدأت بالضبط يوم 25 ذي القعدة أواخر عام 688هـ/1289م[4] والمرجح أنه دخل تلمسان مع بداية سنة 689هـ/1290م في عهد السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) وهي السنة التي طبق فيها السلطان المريني يوسف بن يعقوب الحصار عليها[5]؛ وقد وصف لنا الأوضاع بها قائلا: "ثمّ وصلنا إلى مدينة تلمسان، فوجدناها بلدا حلت به زمانة[6] الزمان، وأحلّت به حوادث الحدثان[7]، فلم تُبق به علالة[8]، ولا تبصر في أرجائه للظمآن بِلالة..."[9]. مما يوحي إلى انتشار الفقر بالمنطقة ومن المحتمل جدا أن يكون هذا الحصار سببا في ذلك.

---

[1]- المصدر نفسه، 33/2.

[2]- المصدر نفسه، 34/2.

[3]- استيتو، المرجع السابق، ص163.

[4]- استغرق العبدري في رحلته هذه ثلاث سنوات (688-691هـ/1289-1291م)، وكان خط الرحلة من المغرب الأقصى إلى البلاد الحجازية والقدس والخليل، أما عن أسباب الرحلة فكانت لسببين: الأول سبب ديني وهو القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، والثاني هو رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم. انظر العبدري، رحلة العبدري، ص10-11.

[5]- ابن خلدون، العبر، 111/7.

[6]- الزمانة هي الآفة والعاهة. العبدري، المصدر السابق، ص47.

[7]- حدثان الدهر: حوادثه ونوبه. المصدر نفسه، ص47.

[8]- العلالة من الشيء بقيته. المصدر نفسه، ص47.

[9]- المصدر نفسه، ص47-48.

كما يصف لنا الوزان حالة أهل "تبحريت" ومظاهر الفقر والعوز الذي كان يعيش فيه هؤلاء نتيجة غارات الأسبان فيقول: "وأهل تبحريت نساجون إلاّ القليل منهم...غير أنهم يعيشون في خوف دائم من هجوم النصارى عليهم ليلا، لذلك يقيمون حرسا يقظا في كل ليلة، لأنّ فقرهم لا يسمح لهم بأن يستأجروا جنودا...ويرتدون لباسا مزريا"[1]، كما أنّ الاستحواذ على الممتلكات الزراعية لأهل القرى والجبال حيث تعتبر الزراعة المورد الأساسي لحياتهم الأثر الأكبر في فقر هؤلاء مثلما حدث لسكان جبل أغبال[2] بسبب غارات الكونت دالكوديت التي أسفرت على الاستيلاء على حبوبهم ومواشيهم[3].

وإلى جانب كتب الرحلة أشارت كذلك بعض النصوص المنقبية إلى تأثيرات الحروب على الحالة المادية لأفراد المجتمع من خلال ضياع أموالهم، إذ لم تنجُ أموال الطبقة الراقية من عملية المصادرة بسبب الغارات؛ فقد تحدث ابن مرزوق على التجار وأرباب الأموال الذين ضاعت أموالهم أثناء اجتياح أبي زكريا الحفصي لتلمسان عام 646هـ/1248م، حين توغل جيشه في إحدى الزقاق الذي كان يحتوي "أموالا لا تحصى كثرة، للشيخ أبو عبد الله المدخس، وإخوته، وبني اللجام، القاضي والخطيب[4] وإخوانهما، وابن حسون، وابن الجلاب، وغيرهم من أرباب الأموال الطائلة"[5]، ويمكن أن نضيف أيضا إلى ما سبق ما ذكره أبو عمران موسى المازوني حول ظاهرة الفقر التي كانت منتشرة على أوسع نطاق خلال الفترة التي عاش فيها الشيخ أبو البيان واضح الذي عاصر السلطان يغمراسن الزياني، وقد ذكر المؤلف ذلك في سياق حديثه حول كرامات هذا الشيخ وأعمال البر والإحسان التي كان يقوم بها في سبيل مساعدته لهذه الفئة[6]، حتى أنه أوصى السلطان يغمراسن بتفقد أحوال هؤلاء المساكين والرّفق بهم مخاطبا إياه يا أبا يحي كلّ راع مسؤول عن رعيّته[7].

---

[1]- الوزان، وصف إفريقيا، 15/2.

[2]- جبل في إقليم وهران سكانه من البربر، فيه بساتين كثيرة بها أشجار الفواكه ويطيب فيه القمح بكثرة. المصدر نفسه، 352/2-353.

[3]- مارمول، إفريقيا، 352/2.

[4]- هو القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن اللجام من قضاة العدل والصرامة في الحق اشتغل بالتدريس. ابن خلدون، بغية الرواد، 156/1.

[5]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص173.

[6]- انظر المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص 112-114-115-135-153-

[7]- المصدر نفسه، ص141.

وعلى اعتبار أنّ العامة هي أكثر المتضررين وأكثر عرضة للفقر في حين أنّ الخاصة محتمية في قصورها ومستأمنة بخزائنها ومطاميرها من غير أن تشعر بأحوال العامة المعاشة[1]، يُستثنى من ذلك ما قام به السلطان أبو حمو موسى الثاني كما أشرت إلى ذلك سابقا؛ لكن من خلال إحدى النصوص لمارمول كاربخال التي كانت كفيلة لأن تثبت أنّ الفقر قد مسّ طبقة السلاطين "إذ يزعم الأمراء أنهم فقراء، وأنهم في حاجة إلى المساعدة للمحافظة على الجهاد ضدّ المسيحيين، الأمر الذي يسمح لهم بجباية الضرائب ... يخصص نصفه لنفقة الجنود، والنصف الآخر لنفقة قصره، ويدّخر الباقي لضروريات الحرب"[2]. وفي ذات الشأن يضيف العبدري رواية حول سلطان ملّيكش[3] الذي لم يستطع إطعام مجموعة من الحجاج الذين قصدوه فأخذ ينادي في الناس "يا أهل الدوار، هؤلاء ضيفانُ الله، من يحمل منهم إلى بيته واحدا؟ وجعل يكرر ذلك كما يصنع المِدَرونَ،[4] فلما لم يجبه أحدٌ ولّى عنهم..."[5] مما يؤكد على الانحطاط الاقتصادي الذي بلغته الدّولة.

خلاصة القول من خلال الشهادات التي أماطت اللثام عن ظاهرة الفقر في بعض المدن التي ضمها المغرب الأوسط وهي شهادات القرن العاشر الهجري 16ميلادي التي عاصرت الظرف التاريخي منها شهادات الرحالة الوزان (ليون الإفريقي)، على أن هذه الظاهرة كادت أن تكون عامة وشاملة في مجال المغرب الأوسط، مؤكدا على أنّ أسباب تفشي هذه الظاهرة يعود إلى عدّة أسباب أشار إليها في سياق حديثه على كل إقليم أو مدينة؛ تكاد تجمع على أنّ الظروف الأمنية المتردية التي شهدتها المرحلة هي السبب في حالة الفاقة والعوز التي تتخبّط فيها هذه الفئات، بالإضافة إلى غياب رقابة السلطة نتيجة ضعفها، الأمر الذي أتاح لبعض القبائل الفرصة فبالغت هي الأخرى في ذلك على الرغم من العطايا والامتيازات التي حطي بها هؤلاء الأعراب من طرف ملوك تلمسان إلّا أنهم لم يستطيعوا قهرهم ولجم سطوتهم[6]. كما أنّ ظاهرة الضرائب والإتاوات التي فُرضت على الدولة الزيانية من الأطراف الخارجية كلها مؤشرات تبين الخلفية الاقتصادية لهذه الدول في غزوها للدولة الزيانية.

---

[1]- دلال، لواتي: عامة القيروان في عصر الأغالبة، القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص387.

[2]- مارمول، المصدر السابق، 2/202-203.

[3]- قبيل من صنهاجة كانت له إيالة ببسيط متيجة.

[4]- هم سكان البيوت المبنية خلاف أهل الوبر وهم سكان الخيام.

[5]- العبدري، المصدر السابق، ص48.

[6]- المصدر نفسه، 2/8-9.

ثالثا: الهجرة

تحدث بعض الظروف الاضطرارية التي تدفع الإنسان لأن يبتعد عن أرضه؛ فالهجرة هي الخُروج من أرضٍ إلى أُخرى[1]؛ ومن هذه الظروف الحروب، فأول ما يتبادر إلى أذهان السكان المهددين في حياتهم بسبب الحرب هو النجاة بأنفسهم من مصير بائس، فينتج عن ذلك هجرة اضطرارية فردية وجماعية تتم في أجواء من الفوضى والاضطراب ويكون حجم هذه الهجرة مرتبطا بحجم الاجتياح ودرجة خطورته[2].

ومما لا شك فيه أنّ الخراب الذي طال بعض مدن المغرب الأوسط بسبب الحروب أفضى إلى هجرة الناس وأسرهم وعائلاتهم وانتقالهم إلى مدن وأقاليم أخرى حيث الأمن والأمان. فهل كشفت لنا نصوص المرحلة عن الأماكن التي لجأ إليها السكان بعد خراب مدنهم بسبب الحرب؟

تمكنت من رصد عدد من الشواهد الماثلة نقلها لنا بعض الرحالة الذين عاينوا بعض المدن والأقاليم ووقفوا على حجم الدمار الذي بلغته هذه المناطق، والذي كان سببا في هجرة أهلها وإخلائها من السكان؛ على نحو ما حدث لقصر ايسلي الذي كان عامرا بالسكان ومحاطا بأسوار متينة لكن لما دُمرت أثناء الحرب أمسى خاليا من سكانها[3]. أما شرشال فقد هجرها سكانها بسبب الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة، ولم يعد تعميرها حتى جاء الغرناطيون بعد سقوط غرناطة في يد النصارى؛ فكان لهم الفضل في إعادة بنائها وتعميرها[4]، وكذلك الحال مع مدينة مازونة التي كانت بها منازل جميلة كانت تتعرض دوما للتخريب[5]؛ بسبب الحروب الداخلية والخارجية، فهجرها معظم أهلها فأضحت قليلة السكان[6]، كما تسببت تعسفات الأعراب في تهجير أهالي مستغانم[7]، وكذلك سكان مدينة توريرت التي كانت محل نزاع مستمر بين الزيانيين والمرينيين فقد اضطر سكانها إلى الهجرة إلى مدينة ندرومة وذلك بشهادة الوزان في قوله: "فبعد أن هدتهم تلك الحروب ... غلبهم اليأس وعزموا على الهجرة وترك المدينة، وذات ليلة فروا إلى ندرومة، وهي مدينة تابعة لملك تلمسان؛ وبقيت

---

[1]- وهَجَرَه هَجْراً وهِجْرَاناً: صَرَمَهُ والشيء: تَرَكَهُ. الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص530.

[2]- بلقاسم الطبابي، المرجع السابق، ص182.

[3]- الوزان، المصدر السابق، 12/2. كاربخال، المصدر السابق، 293/2-294.

[4]- الوزان، وصف إفريقيا، 34/2.

[5]- كاربخال، إفريقيا، 359/2.

[6]- كاربخال، المصدر السابق، 359/2. الوزان، المصدر السابق، 36/2.

[7]- كاربخال، المصدر السابق، 350/2.

توريرت خالية موحشة كما نراها اليوم"[1].

ويبدو أنّ الغزو الجديد المتمثل في غزو النصارى ساهم هو الآخر من تصاعد موجة الهجرة القسرية لسكان المغرب الأوسط؛ وهو ما حدث لسكان مدينة هُنين الذين خافوا على أنفسهم عندما سمعوا باحتلال مدينة وهران فهربوا وتركوا مدينتهم فبقيت خاوية على عروشها[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الجموع البشرية الهاربة خوفا من الموت أو الأسر ستتعرض إلى أهوال ومشاق الطريق، ويكون الأطفال والنساء والشيوخ مهددين أكثر من غيرهم لأنهم معرضون للإنهاك البدني بسبب طول الرحلة وقلة الزاد وتقلبات المناخ وأخطار الحرابة[3]، وهو ما سيؤدي إلى حصد أرواح الكثير منهم.

الفئات المنتجة وشبح الهجرة: فئة الفلاحين أنموذجا

تسببت الحرب أيضا في هجرة الفلاحين لأراضيهم وانصرافهم عن ممارسة الأنشطة الزراعية التي تعتبر أهم الموارد الاقتصادية للدول؛ فمن خلال استقراء بعض النصوص الجغرافية خاصة اتضح لي مدى اتساع ظاهرة النزوح الجماعي للفلاحين نتيجة الانفلات الأمني الذي خلفته الحروب والفتن السياسية للمغرب الأوسط مرحلة الدراسة، إذ أصبح المزارع غير آمن على نفسه وأرضه مما أدى به إلى البحث عن ملاذ آمن[4]، ومن الأمثلة التي نذكرها هجرة فلاحي مازونة مدينتهم نتيجة غارات ملوك تونس عليها وبعض القبائل المحاربة[5] بعدما فقدوا كل ما يحفزهم على العمل والفلح، وهناك سبب إضافي ساهم هو الآخر في نزوح الفلاحين والمزارعين وترك أراضيهم والتوجه نحو الجبال والمرتفعات يتمثل في فرض الضرائب والإتاوات الحربية.

ويبدو أنّ الجبال والمرتفعات كانت المجال الأكثر استقطابا لهؤلاء، طالما أنّ البسائط حسب ابن خلدون متى اقتدر عليها المحاربون "بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي،

---

[1]- الوزان، المصدر السابق، 1/349-350.

[2]- كاربخال، المصدر السابق، 2/296-297.الوزان، المصدر السابق، 2/15.

[3]- بلقاسم الطبابي، الموت في مصر والشام، 1/184.

[4]- خالد بلعربي، المرجع السابق، ص111.

[5]- الوزان، المصدر السابق، 2/36.

وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم"[1]، ومما ينهض دليلا على ذلك ما ذكره الوزان (كان حيا 957هـ/1550م) في الجزء الذي خصصه للحديث عن جبال مملكة تلمسان وسكانها الذين يشتغل معظمهم بالزراعة والرعي وتربية الحيوانات على نحو سكان جبال أغبال وبني ورنيد ومغراوة وونشريس وبني بوسعيد وجبال مدينة الجزائر[2].

كل هذه القرائن التي توحي بنزوح جماعي للفلاحين باتجاه المرتفعات فرارا من القتل والغصب والتعدي على الممتلكات؛ فتركوا أراضيهم التي أصبحت في ملك بني زيان وبعض القبائل ذات النجعة والحرب، مما ساهم في تدهور الأوضاع الاقتصادية للدولة من خلال تراجع الإنتاج الفلاحي ومردوديته.

صفوة القول إنّ الظروف الأمنية المضطربة نجم عنها هروب الناس من جحيم الحرب إلى الأماكن الآمنة، وفي غالب الحال يكون من المدن إلى البوادي والأرياف التي يقل فيها الخطر، وهو ما سيؤدي إلى نشوب اختلال في توزيع السكان بالمملكة في فترات معينة، حيث يتم إعمار البوادي على حساب المدن.

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص117.

[2]- الوزان، المصدر السابق، 2/44-45-46.

المبحث الثاني: تداعيات الحرب على المستوى الجسدي

أولا: السجن

لقد شهد المجتمع التلمساني خلال الحقبة محل الدراسة سلسلة متنوعة من الحروب والمعارك ضد أعدائه من بني مرين وبني حفص والاسبانيين في آخر عهد الدولة، والتي أدت إلى سقوط مملكة تلمسان عدة مرات، الأمر الذي أفضى إلى سجن بعض الفئات الاجتماعية منها النخب السياسية والفكرية، وكذلك سقوط العديد من الأسرى، وهو ما يبدو واضحا من خلال جملة من النصوص.

1-طبقات السجناء

شكل السجن أحد أخطر القضايا التي واجهت وتواجه الإنسان عبر التاريخ[1]،حيث يشير أحد الباحثين إلى ذلك قائلا بأنّ: "السجن موغل في القدم ملازم لمجتمعات البشر"[2].

وقد عرف كل من ابن منظور والفيروز آبادي السَّجْنُ بأنه الحَبْس، سجنه يسجنه سجنا أي حبسه والجمع سُجُون[3]. والسِّجن، بالكسر: المحبِسُ. وصاحبه سَجَّانٌ. والسَّجينُ: المسجُونُ ج: سُجَناءُ وسَجْنَى[4].

وقد شكل السجن –خاصة بسبب الاختلاف السياسي- أحد الوسائل العنيفة التي مورست على النخب السياسية والفكرية في العهد الزياني من طرف أعدائهم، وأنوه إلى أنّ الكتابات التاريخية الخاصة بالعهد الزياني منعدمة في هذا الموضوع، ومن أجل رصد هذه الظاهرة كانت كتب التاريخ السياسي هي المعول عليها إلى جانب بعض كتب التراجم. ولكي يتم إبراز صورة هذه العقوبة خلال فترة هذه الدراسة تم طرح بعض الأسئلة من قبيل: **ما هي أهم الحروب التي عرضت فئات المجتمع الزياني إلى هذه العقوبة؟ وما هي الطبقات التي تعرضت أكثر من غيرها للسجن؟ وكيف كان مصيرهم؟**

---

[1]- حميد، الحداد: النفي والعنف في الغرب الإسلامي، المغرب: أفريقيا الشرق، 2013، ص211.

[2]- عبد الصمد، الزعنوني: بدائل العقوبة السالبة للحرية: مقارنة قانونية، مقارنة إشكالية السجن والحرية، الرباط: مكتبة دار السلام، 1999، ص17. نقلا عن الحداد، المرجع السابق، ص211.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، 78/1.

[4]- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1297.

أ- النخبة السياسية

- سجن السلاطين

تعرضت معظم النخب في العهد الزياني إلى عقوبة السجن، لكن الأشد من ذلك وأنكى إذا كان السجين بطلا ملكا، وما بالعهد من قدم آمرا ناهيا، فإذا به ذليلا مستعبدا[1]؛ فقد أفضت بعض الصراعات والحروب إلى سجن بعض سلاطين بني زيان من طرف أعدائهم حينما يظفرون بهم أحياءا، ولا تعوزنا الدلائل على إثبات ذلك فمن هؤلاء السلطان أبو سعيد بن عبد الرحمن الذي أمر السلطان أبا عنان المريني بسجنه بفاس ويذكر ابن خلدون ذلك قائلا: "وتقبض على آبي سعيد سلطانهم فسيق إلى السلطان وأمر باعتقاله"[2]، وقد مكث في السجن تسعة أيام[3] وخلال فترة سجنه امتنع عن المطعم والمشرب ليموت ويستريح، لكن السلطان المريني أمر بقتله[4]، وفي المقابل نجد يحي ابن خلدون لا يتعرض إلى ذكر سجن السلطان أبي سعيد وإنما يكتفي بقول:"فأخذ يوم السبت حادي عشر الشهر، وجئ إلى ملك المغرب به فقتله..."[5].

أما السلطان أبو ثابت فقد تعرض للاعتقال مرتين الأولى على يد الأمير أبي عبد الله محمد بن زكريا الحفصي الذي كان من شيعة السلطان أبي عنان المريني، بعد أن قبض عليه رفقة وزيره في الموضع المسمى ليزّو فاعتُقِلا ببجاية[6] ولا ندري كم مكثا في السجن ببجاية. والثانية بعدما احتُملا إلى السلطان أبي عنان[7] حيث أمر باعتقاله هو الآخر[8].

---

[1]- جمعة، شيخة: الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة ق5هـ/11م إلى سقوط غرناطة 9هـ/15م، تونس: المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1997، 240/3.

[2]- ابن خلدون، العبر، 342/7. الناصري، الاستقصا، 182/3.

[3]- ابن خلدون، المصدر نفسه، 342/7.

[4]- المصدر نفسه، 342/7.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 264/1.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 265/1. ابن خلدون، العبر، 145/7.

[7]- ابن خلدون، بغية الرواد، 265/1. ابن خلدون، العبر، 145/7.

[8]- الناصري، الاستقصا، 183/3.

وممن تعرض للاعتقال أيضا السلطان أبو عبد الله محمد المدعو بابن الحمراء من طرف السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز[1]، بسبب تمرد ابن الحمراء وإعلانه العصيان تم سجنه بعد أن ألقى القبض عليه في جبل بني يزناتن حينما فرّ إليه بعد أربعة وثمانين يوما من تملكه[2]؛ وبعد أن حوصر من طرف جيش أبو فارس عبد العزيز بقيادة نبيل بن أبي قطاية قُبض عليه وتم اعتقاله وذلك في سنة 834هـ/1430م[3]، وبقي معتقلا عنده بقصبة تونس إلى أن هلك سنة 840هـ/1436م[4].

ونضيف إلى هؤلاء شخصية أخرى وهو محمد ابن السلطان أبا سعيد فحسب رواية كل من ابن خلدون والزركشي فإنه تعرض للسجن بعد أن تم القبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيره يحي بن داود ببجاية سنة 753هـ/1352م، فسيقوا إلى السلطان أبي عنان فقُتل السلطان أبو ثابت ووزيره واستبقى محمدا هذا وأودعه السجن[5]؛ ليُطْلَق سراحه في عهد السلطان أبي سالم المريني الذي نظمه بمجلسه ليستعمله في حربه ضد أبي حمو لاحقا، ويعينه على تلمسان بعد الاستحواذ عليها[6].

لكن ما يعاب على هذه النصوص التي جاءت على ذكر تعرض السلاطين للسجن أنّها لم تقدم لنا معطيات عن حالة هذه السجون التي اعتقل فيها هؤلاء ولا وضعية السجناء كما أنّ أغلبها أيضا لم يفصح عن مُدد السجن.

-حريم السلطان

من خلال استقراء بعض النصوص الواردة في مضامين المصادر التاريخية الوسيطية الخاصة بالعهد الزياني نجد أنها ركزت على وصف حالة نساء السلطان وذكرت مدى تضررها من تبعيات الحرب؛ بينما أغفلت تماما عن وصف الحالة المأساوية التي كانت عليها نساء العامة وتجاوزت ذكرها إلاّ ما جاء عرضا رغم أنّ هذه الأخيرة لم تسلم هي الأخرى من السبي ومختلف أشكال العنف التي تصاحب العملية الحربية.

---

[1]- ابن مريم، المصدر السابق، ص172-173.

[2]- التنسي، المصدر السابق، ص246.

[3]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص129.

[4]- المصدر نفسه، ص129.

[5]- ابن خلدون، العبر، 150/7. الزركشي، المصدر السابق، ص94.

[6]- ابن خلدون، العبر، 150/7. ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص94.

ومما يثبت ذلك هو ما تعرضت له نساء السلطان يغمراسن الزياني (633-681هـ/1236-1283م) في معركة وادي تلاغ[1] سنة 666هـ/1267م بين السلطان يغمراسن والسلطان أبي يعقوب المريني، والتي انتهت بانهزام يغمراسن وتكبد فيها خسائر جمة، وكان من نتائج هذه المعركة أيضا أن تعرضت نساؤه للسبي حيث "استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه"[2]، وحسبنا ما ذكره أيضا في هذا الشأن صاحب الذخيرة أنّ بني عبد الوادى بعدما تيقنوا من الهزيمة لم يبق لهم إلاّ الهروب تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم "وولت بنو عبد الوادى الأدبار، وخلفوا النواهد والأبكار"[3].

نلاحظ أنّ الصراع سيستمر بين هذين الطرفين لعدة سنوات وكان من تداعيات هذا الصراع هو سبي نساء يغمراسن في كل مرة؛ فقد تكرر الموقف بعد أربع سنوات في معركة واد ايسلي سنة 670هـ/1271م فاستبيحت حرمه بعد انهزامه[4]؛ وكذلك الحال في أحداث 679هـ/1280م والتي أفضت إلى انسحاب يغمراسن مخلفا "وراءه القباب والأموال والمضارب والعيال"[5].

وقد لمسنا حضور هذه الظاهرة في القصائد الشعرية من خلال الإشارة إلى سبي نساء السلطان يغمراسن في القصيدة[6] التي رفعها الشاعر عبد العزيز الملزوزي إلى حضرة السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق يصف فيها الحرب في قوله:

فويحك يا يغمور هل لك منجد *** أيقظان حس أنت أم أنت نائم؟

أفي كل عام تترك إبنك للقنـــا *** ويُسبا لك الغيدُ الحسانُ النواعمُ[7]

كما نلمس هذا في أبيات أخرى كتبها السلطان يغمراسن للسلطان يعقوب المريني يرفض فيها المهادنة التي ناشده فيها وأقسم أن يأخذ منه الثأر قائلا[8]:

فلا صلح حتى نروي السيف والقنى *** وتأخذ عبد الواد منكم بثأرها

وأشفي غليلي من مرين التي طغت *** بسبي غوانيها وقتل خيارهـــا

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 101/7-102.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، 102/7.

[3]- مجهول: الذخيرة السنية، ص116.

[4]- الناصري، الاستقصا، 32/3.

[5]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص441.

[6]- القصيدة من البحر الطويل.

[7]- الناصري، المصدر السابق، 31/3-32-33. ابن أبي زرع، المصدر السابق، 109-110.

[8]- الطمار، تلمسان عبر العصور، ص92. القصيدة من البحر الطويل.

ومما يذكر أيضا في هذا الصدد أنّ السلطان أبا الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م) عندما تمكن من اقتحام مدينة تلمسان عنوة في 28 رمضان من سنة 737هـ/ 1336م[1] واستولى المرينيون إثرها على كل ما لديهم من الأموال والسلاح وغيرها، وقد نقل لنا ابن خلدون ذلك قائلا: و"انطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرّة في أموالهم وحرمهم"[2].

ومن القرائن أيضا أنه بعد سقوط تلمسان في يد جيش أبي عنان المريني (749-759هـ/1348-1357م) سنة 753هـ/ 1352م وانهزام بني عبد الواد بعد معارك ضارية تعرضت جميع محلاتهم إلى النهب والتخريب من طرف الجيش المريني واستاقوا نساءهم[3]، ومع استمرار الغارات الهمجية "انتهبت مرين محلة بني عبد الوادي وأموالهم وسلاحهم، وسبوا حريمهم وعيالهم"[4]، ومن القرائن الأكثر دلالة على تعرض هؤلاء إلى السبي نازلة هذا نصها " سئل بعض فقهاء بلادنا عن أطفال الحرب ونسائهم إذا أسروا..."[5].

-كبار موظفي الدولة: الوزراء وقادة الجند

ثمة العديد من الوظائف التي تحتاجها الدولة لتسيير شؤونها مثل الوزارة والكتابة والحجابة والقضاء والولاية، وبحكم ملازمة ذوي هذه الوظائف للحاكم ولحساسية أدوارهم ولدسائس البلاطات[6] زد على ذلك الاضطرابات الأمنية التي تشهدها الدولة في بعض الفترات فإنهم لم يسلموا من عقوبة السجن في بعض الأحيان.

يقول ابن رضوان حول وجوب اتخاذ الوزير: "لا يستغني الملك عن وزير يستعين به في تدبير ملكه، ويفوض إليه ما يشاء من حكمه، ويصونه عن الامتهان، ويرفعه عن التبذل في كل ما كان، وإذا استكمل أحوال الخصال المحمودة، كانت وزارته زينا للإمامة، وجمالا للخلافة، وقوة لصلاح الدين والدنيا..."[7].

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1.

[2]- ابن خلدون، العبر، 305/7-306.

[3]- المصدر نفسه، 342/7.

[4]- مجهول، الذخيرة السنية، ص131.

[5]- الونشريسي، المعيار المعرب، 113/2.

[6]- مصطفى نشاط: السجن والسجناء، (د.ب.م): منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012، ص36.

[7]- أبو القاسم، بن رضوان المالقي: الشُّهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، ط1، المغرب: منشورات الشركة الجديدة دار الثقافة، 1984، ص204.

من خلال المادة الخبرية المتوصل إليها تمكن الوقوف على عدة أسماء لوزراء وقادة الجند الذين تعرضوا لعقوبة السجن ونذكر في طليعتهم وزير السلطان أبا ثابت يحي بن داوود بن علي بن مجَن وذلك في خضم الصراعات المرينية العبدوادية[1]، فمن المعروف عن سلاطين بني زيان أنهم كانوا يولون قيادة الجيوش لوزرائهم[2]؛ وهو ما حدث مع هذا الوزير حيث ألقي عليه القبض بعد أحداث معركة وادي شلف عام 753هـ/1352م فسُجن من طرف السلطان أبي عنان المريني قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه[3]، وكذلك ما حدث في معركة واد ايسلي بعد هلاك معظم جند النصارى الذين كانوا ضمن جيش السلطان يغمراسن تقبض على قائدهم المدعو بيرنبس[4]؛ ومن ذلك ما حدث أيضا للوزير أبي عمران موسى بن علي بن برغوث حينما بعثه السلطان أبو حمو موسى الثاني لحصار وهران في 28 ربيع الأول سنة 760هـ/1358م، ولما خرجت إليه حامية وهران خذله أشياعه وفرت عليه حشوده فحاول الهرب لكن كبا به فرسه وقُبض عليه في 8 شهر ربيع الثاني من السنة نفسها، فحُمل أسيرا عبر البحر إلى المغرب حيث سُجن[5]، وكذلك سُجن الوزير أحمد بن يعقوب مع السلطان محمد بن أبي تاشفين من طرف السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز سنة 834هـ/1431م[6]. لكن تبقى هذه النصوص غير مكتملة لأنها لا تمدنا بمعطيات كافية حول حالة هؤلاء المساجين أو مدة سجنهم وكيف كانت نهايتهم.

ب– النخبة الفكرية: العلماء والفقهاء

ربط عدد من العلماء علاقات بالسلاطين المرينيين خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين، وكانت هذه العلاقات نتيجة تعرض مدينة تلمسان للغزو والحصار عدة مرات مما أدى إلى التحاق بعض العلماء بالسلطة المرينية المتغلبة[7]، لكن هذه العلاقات لم تكن دائما حسنة فغالبا ما تعرض هؤلاء العلماء إلى العنف بمختلف أشكاله مثل السجن.

---

[1]– ابن خلدون، العبر، 145/7.

[2]– يقول ابن رضوان أنه من الصفات الواجب توفرها في الوزير "أن يكون ممن يحسن الفروسية ومباشرة الحروب"، الشُّهب اللامعة في السياسة النافعة، ص207.

[3]– ابن خلدون، العبر، 145/7. التنسي، المصدر السابق، ص156. الزركشي، المصدر السابق، ص94.

[4]– ابن خلدون، العبر، 218/7.

[5]– ابن خلدون، بغية الرواد، 47/2. الطمار، المرجع السابق، ص 161.

[6]– ابن مريم، البستان، ص172-173.

[7]– نبيل شريخي، "دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المشرق والمغرب الإسلامي خلال

بعد أن أحكم السلطان يعقوب المريني الحصار على تلمسان أمر بإهدار دم كل من أخلّ بذلك من بني مرين أو بني زيان[1]، فكان ذلك سببا في غضبه على أحمد ابن مرزوق (ت741هـ/1340م) فأجبره على الإقامة في إحدى الدور متهما إياه بعدم احترام أوامره الهادفة إلى إحكام الحصار[2]، ولم يفرج عنه إلاّ بعد توسط جدّه أبي الحسن التنسي (ت706هـ/1306م)[3]، كما كان هذا الحصار أيضا سببا في سجن ثلة من صوفية تلمسان لأنهم عارضوا هذا السلطان ورفضوا تأييده فتحملوا لذلك عقوبة السجن والتنكيل التي فرضها عليهم[4]،

فكان منهم الشيخ أبو العباس أحمد الخياط[5] وهو صاحب أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق، فمكث فيه بضعة سنين ولم يُطلق سراحه حتى مات هذا السلطان[6]، وممن كان في سجنه أيضا أبو عبد الله الغزموني[7].

أما أبو عبد الله محمد ابن مرزوق (ت781هـ/1379م) فقد سُجن من طرف السلطان أبي ثابت[8] لتهمة لم يكن له يد فيها؛ والواقع أنّ ابن مرزوق كان من العلماء الذين خبروا جيدا تجربة السجن؛ ذلك أنه سُجن ثلاث مرات لأسباب مختلفة، وإن كانت كلها ترتبط بالأجواء السياسية السائدة بالمنطقة وبطبيعة الدسائس المتناسلة عنها[9].

القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م)"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ المشرق، جامعة بوزريعة، الجزائر، 1430-1431هـ/2009-2010م، ص61.

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص194. ابن مريم، البستان، ص95.

[2]- ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص194-195. نبيل شريخي، دور علماء تلمسان، ص113.

[3]- ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص195. ابن مريم، المصدر السابق، ص96.

[4]- الطاهر، بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هجريين/ 12 و13 الميلاديين، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008-2009، ص204.

[5]- ذكره ابن مريم باسم الشيخ أحمد بن صالح بن ابراهيم وهو من الصلحاء الأعلام بتلمسان لا نعلم تاريخ وفاته، وهو أخو الخطيب أبي عثمان سعيد بن ابراهيم بن علي الخياط (ت729هـ/1328م). انظر ترجمته: ابن خلدون، بغية الرواد، 155/1. ابن مريم، المصدر السابق، ص99-100. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص179.

[6]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص179.

[7]- المقري، نفح الطيب، 243/5. أبو العباس أحمد، بابا بن أقيت التنبكتي الصنهاجي السودني: نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، تحقيق وتقديم: حماه الله ولد السّالم،ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2013، ص392.

[8]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص340. التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 219-220.

[9]- مصطفى نشاط، السجن والسجناء، ص57-58.

في هذه الفترة تم استرجاع تلمسان وذلك في آخر جمادى الثانية سنة 749هـ/1348م[1] وكانت تحت حكم الأخوين أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، الذين فكرا في وساطة ابن مرزوق مع أبي الحسن من أجل الصلح، ونظرا لحنكة السلطان أبي سعيد الزياني رأى أن يعقد معه صلحا فاختار لذلك الخطيب ابن مرزوق وبعثه في شأن الصلح لكن السلطان أبا ثابت أنكر عليه ذلك فبعث صُقير بن عامر واعترض ابن مرزوق الذي أخذ طريق الصحراء فجاء به وتم حبسه لأيام[2]. وقد وصف ابن مرزوق حالته وهو في السجن قائلا: "فأقمت في سجنهم وثقافهم تسعة أشهر، وكابدت ما يعظم الله أجره...وبقي أهلي مدة يعتقدون وفاتي"[3]. وكانت هذه المحنة دافعة لابن مرزوق على مغادرة موطنه بعد إطلاق سراحه والتوجه إلى الأندلس سنة 760هـ/1348م ليستقر في حضرة سلطانها أبي الحجاج[4]، كما سُجن أيضا أحمد بن القاسم بن الحاج وكان من وجوه أهل تلمسان من طرف السلطان أبي الحسن المريني بتهمة إيواء الجواسيس في منزله[5].

نستنتج مما سبق أنّ السّجن مَثَّل أحد مظاهر العنف التي مورست على المجتمع الزياني بمختلف شرائحه وبخاصة من طرف عدوهم المريني؛ حيث أنّ معظم الحالات التي تم رصدها قد تم سجنها على أيديهم، وفيما يخص نخبة تلمسان وبخاصة منها المتصوفة نستنتج أنهم قد تعرضوا للسجن من طرف سلاطين بني مرين في الفترات التي تمكنوا من إخضاع تلمسان أو تطبيق الحصار عليها؛ خاصة فترة الحصار الطويل الذي فرضه السلطان يعقوب المريني؛ ما يبن لنا أنهم كانوا مناوئين لأي غزو على تلمسان ومعارضين بشدة لمثل هذه الانتهاكات بدليل أنهم تحملوا عقوبة السجن بدلا من الخضوع، ومما يمكن قوله أيضا أنّ المعطيات الواردة حول عقوبة السجن التي مورست على النخبة السياسية والفكرية أغلبها أغفلت وصف تلك السجون وكذلك الحالة النفسية والجسدية للسجين.

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 139/7.

[2]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص497. ابن خلدون، العبر، 370/7. ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص62. التنبكتي، المصدر السابق، ص419-420.

[3]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص307. ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 497-498.

[4]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص307-308. نبيل شريخي، المرجع السابق، ص60.

[5]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص322.

ثانيا: الأسر

تعد ظاهرة الأسر من أهم الظواهر الناتجة عن الحروب، فلا نكاد نسمع أو نقرأ عن حرب دون سقوط عدد من الأسرى؛ وخلال تتبعنا لأحداث الفتن والحروب التي مرّ بها المجتمع الزياني رأينا صورا من المآسي البشرية التي مست هذه الفئة حيث تنهك الأعراض، وتهدر الكرامة.

1- أسرى الجبهة الغربية

كان الصراع بين المرينيين والزيانيين أشدّ ضراوة، ودار ذلك الصراع على اختلاف بواعثه المعلنة حول رياسة زناتة وملك المناطق التي تنتشر بها هذه القبيلة البربرية الكبيرة[1]، وقد أفضى هذا الصراع الطويل إلى سقوط العديد من القتلى والأسرى لكلا الطرفين، وسيكون الحديث ضمن هذا العنصر على الأسرى الزيانيين الذين سقطوا في أيدي بني مرين نتيجة هذه الحروب.

لم يكتف السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق بالانتصار الذي أحرزه على بني عبد الواد في معركة وادي تلاغ سنة 666هـ/1267م، وإنما كان يتطلع إلى الهجوم مرة أخرى على تلمسان وقطع دابر بني عبد الواد، فكانت معركة ضارية بوادي ايسلي سنة 670هـ/1271م؛ أسفرت عن انهزام الجيش العبد الوادي وسقوط عدد كبير من الأسرى في أيدي بني مرين[2]، ورغم أننا نعدم لإحصائيات دقيقة لعدد هؤلاء الأسرى لكن من خلال منطوق بعض النصوص نكتشف حجم ذلك؛ وهو ما نلمسه في هذا النص حيث "تحدث الناس في جميع الأقطار ...(امتلأ) أيدي بني مرين بالسبي والغنيمة"[3].

ولا ريب أنّ الحملات المتكررة التي قادها السلطان يوسف بن يعقوب إلى تلمسان قبل حصارها الطويل قد خلفت عددا كبيرا من الضحايا الأسرى لما كان "يرحل في أحوازها... ويسبي ويغنم"[4]، أما أثناء حصارها الطويل فقد تبيننا من خلال إحدى النصوص التي تحدثت حول الولي الصالح أبي العباس أحمد الخطيب الذي تعرض للسجن من طرف هذا السلطان "فلما دخل إلى السجن وجد فيه خلائق لا تُحصى كثرة"[5].

---

[1]- عبيد، بوداود: "تلمسان في مواجهة الحملات الحفصية"، مجلة عصور، معسكر، ع10، جوان 2005، ص91.

[2]- ابن خلدون، العبر، 218/7.

[3]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص113.

[4]-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 379.

[5]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص179.

2- أسرى الجبهة الشرقية

في ظل تكتم الاستوغرافيا التاريخية ووقفها عاجزة عن إمدادنا ولو بالنزر اليسير من المعلومات حول الأسرى العبد الواديين الذين سقطوا في الحروب ضد أعدائهم من بني حفص؛ فرغم عملية البحث في مضامين مصادر مرحلة البحث إلاّ أننا لم نتوصل إلى معلومات حولهم باستثناء ما ورد حول بعض الملوك والسلاطين الذين تعرضوا للسجن كما أشرت إلى ذلك أعلاه.

3- أسرى الغزو الإيبيري

شهد أواخر العهد الزياني غزوا خارجيا جديدا تمثل في الغزو الإبيري للسواحل المغربية؛ وكانت المنطقة الممتدة مابين تلمسان ومستغانم وحتى نواحي هنين وندرومة بعد سيطرة الأسبان على منطقة تاوانت وهنين تعاني من تلك الغارات التي لا تتوقف ليلا ونهارا من قبل الأسبان[1] والقبائل الموالية لهم[2].

ومن البديهي أن يؤدي هذا الظرف إلى سقوط آلاف الأسرى من سكان المغرب الأوسط؛ وينهض دليلا على ذلك الهجوم الذي شنه الكونت دالكو ديتي على تلمسان بعد أن حشد لذلك[3] " إذ دخلوا إلى المدينة فنهبوها من أقصاها إلى أقصاها وهم يقتلون ويأسرون كل من يصادفون فيها"[4]، وعندما رجع الكونت إلى وهران "أمر بشنق ثلاثة من الأعيان، واتّخذ الباقين كعبيد"[5].

كما تسبب أيضا هذا الكونت وقواده في إعمال التخريب والسرقة في سهول سفين[6] وأسر أهلها بعد هجومهم على هذه السهول فاختطفوا خمسة عشر ألف رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة التي

---

[1]- حول تأثير الاحتلال الإسباني على بلاد المغرب الأوسط خاصة الأرياف القريبة من وهران يمكن العودة إلى: المشرفي: الياقوتة الوهاجة، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم 2163، ورقة 46ظ. نقلا عن مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ط1، الجزائر: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، 158/3.

[2]- من القبائل العربية التي كانت موالية للأسبان: قبائل كيسة وبني عامر.انظر: مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، 158/3.

[3]- يقول مارمول كاربخال في هذا الصدد: "وبعد أن جمع كمية من الذخيرة و المؤن وسائر الأشياء الضرورية، وحشر عددا كبيرا من مشاة الأندلس وفرسانها، انطلق من وهران في تسعة ألاف راجل وأربعمائة فارس، مصحوبا بأبنائه الثلاثة وتوجه إلى تلمسان". إفريقيا، 314/2.

[4]- المصدر نفسه، 315/2.

[5]- المصدر نفسه، 316/2.

[6]- هي مجموعة سكنية كبيرة قرب وهران توجد فيها عدة دواوير للأعراب والبربر. المصدر نفسه، 311/2.

كانت في الجبال المجاورة، ولم يأسروا سوى مائة وستين من هؤلاء البرابرة الذين قد لاذوا بالفرار، وعادوا إلى وهران بهذه الغنائم"[1].

كان هذا الكونت يمول جيشه بما يحتاجه من مواشي وحبوب من خلال بعض القبائل؛ ومع امتناعها عن ذلك أصيب هذا الكونت وجيشه بضائقة اقتصادية مما جعله يأمر قواته بالإغارة على أحد الجبال وهو جبل أغبال، فأسر مجموعة منهم وكانت نهايتهم أن نقلوا إلى أسواق اسبانيا فبيعوا كعبيد[2]، وكذلك الحال بالنسبة لسكان جبل ترارة الذين يتعرضون دوما لغارات النصارى "الذين يأتونهم على سفن ذات صاريين فينصبون لهم الكمائن فيأسرون منهم رجالا ويذرون الآخرين تحت وطأة الخوف"[3].

من خلال النصوص السالفة الذكر التي بينت لنا تعرض فئات المجتمع الزياني لظاهرة الأسر ظلت متكتمة عن الإفصاح بأوضاع الأسير وحالته النفسية رغم أنه من المؤكد أنه لم يسلم من مختلف الأضرار الجسدية والنفسية؛ وعلى العموم فالأضرار الجسدية تتمثل في ضربه وتكبيله بسلاسل من حديد في رجليه، وقد يجمع في القيد لمزيد التعذيب بين العنق والرجل؛ أما العذاب النفسي فيرزح تحته الأسير إذا كان بطلا تعوّد أن يرى في الحديد آلة يخوض بها غمار الحرب، فيحقّق انتصارا ويخلّد مجدا، وإذا بهذا الحديد يصبح أداة قهر له وإذلال[4].

نستنتج من خلال ما سبق أنّ النصوص الوسيطية الخاصة بمرحلة الدراسة بقدر ما كشفت عن كثافة عمليات الأسر والسبي التي طالت أفراد المجتمع الزياني في حروبهم ضد بني مرين؛ لكن في المقابل أغفلت تماما عن ذكر أسرى حروبهم ضد بني حفص؛ وهو ما يطرح تساؤلا مهما: **هل أغفل مؤرخو المرحلة الحديث عن هذه الفئة وذكر أوضاعهم رغم تعدد المواجهات بين الطرفين؟ أم أن هذه الحروب لم تسفر عن وقوع أسرى؟**

ثالثا: النفــي

[1]- المصدر نفسه، 311/2.

[2]- المصدر نفسه، 352/2.

[3]- مارمول، المصدر السابق، 352/2.

[4]- جمعة شيخة: الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، ط1، 239/3-240.

يذكر أحد الباحثين[1] أنّ النفي[2] يؤدي إلى قطع الصلة بالوطن والأحباب، كما يؤدي إلى الحلول بمناطق قد يصعب التأقلم معها صحيا ونفسيا واجتماعيا، مما يؤكد شدة هذه العقوبة وتأثيرها؛ وقد كانت عقوبة النفي إحدى مظاهر العنف التي مست المجتمع الزياني خلال حقبة الدراسة. **فما هي الطبقات المستهدفة بهذه العقوبة؟**

1-السلاطين

إضافة إلى عقوبة السجن التي أُلحقت بسلاطين بني زيان من طرف أعدائهم تعرضوا كذلك إلى النفي والإجلاء التي تعتبر من الأساليب القمعية، وحسبما وقفت عليه من معطيات حول هذه الظاهرة تَبين لي أنّ من أبرز الأسباب التي أدت إلى ذلك الصراعات العائلية على السلطة والاستعانة بالأطراف الخارجية من أجل قلب نظام الحكم، ومن النماذج نذكر في هذا الشأن تعرض السلطان أبي محمد عبد الله (801-804هـ/1398-1401م) للنفي بعد أن خُلع من طرف أخيه أبي عبد الله محمد بن خولة سنة 804هـ/1401م بإيعاز من بني مرين الذين حرضوه على ذلك وأمدوه بجيش على رأسه الشيخ زيان بن عمر بن علي الوطاسي في حربه على أخيه[3]، فكان من نهاية السلطان أبي محمد عبد الله أن اعتقل ثم أخرج في هيأة توجب التحسر والعولة[4]، ويضيف التنسي (ت899هـ/1493م) عن نهايته أنه تم نفيه إلى الغرب وهو وحيد مستوحش[5] دون أن يحدد لنا مكان نفيه.

ونستدل بهذه الأبيات الشعرية على لسان هذا السلطان يرثي حاله وهي من البحر الطويل قائلا:

ألم يأن أن تبكي الحمام على مثلي *** ويطلب ثأري البرق منصلت النصل

وهلا أقامت أنجم الليـــل مأتمـــا *** لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي

فلو أنصفتني وهي اشكـــال همتي *** لألقت بأيـدي الـــذل لما رأت ذلي

ولا فترقت سبع الثريـا وغاضهـا *** بجمعها ما فرق الـــدّهر من شمـــلي

---

[1]- حميد الحداد، النفي والعنف في الغرب الإسلامي، ص19.

[2]- جاء في القاموس المحيط نفاه ينفيه، وينفوه: نَحَّاهُ، وانتفى: تَنَحَّى (الفيروز آبادي، ص1445). ونفى الرجل عن الأرض ونفيته عنها، طردته فانتفى، وهو من النفي الإبعاد عن البلد. ويقال أنفيه نفيا إذا أخرجته من البلد وطردته. المعجم الوسيط، 943/2.

[3]- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص84.

[4]- التنسي، المصدر السابق، ص229.

[5]- المصدر نفسه، ص229.

ومن السلاطين الذين كانت نهايتهم مأساوية نظرا لما يترتب على التهجير والتغريب من معاناة خاصة على المستوى النفسي؛ نذكر أبا زيان محمد بن أبي حمو الذي حكم ما بين (796-801هـ/1393-1398م) حيث فرّ ولجأ إلى بعض القبائل العربية والبربرية بعد انقلاب أخيه أبو عبد الله محمد مستجيشا ببني مرين وكثيرا من أهل الوطن حسبما ذكره التنسي[1] واصفا نهاية هذا السلطان قائلا: "ففرّ من حضرة ملكه وانخلع عن خلافته، وتوجه إلى جهة المشرق يلتمس معينا أو منجدا، ويطلب ناصرا أو مؤيدا، والدهر يمنيه بالأمل المكذوب، ويعده مواعد عرقوب"[2]، وبقي على هذا الحال إلى أن توفي سنة 805هـ/1402م.

ويشير التنسي أيضا إلى شخصيتين أخريين كانا لهما المصير نفسه وهو الفرار والهروب أولهم السلطان السعيد بن أبي حمو الذي حكم سنة 814هـ/1411م، لكنه لم يبق على كرسيه سوى خمسة أشهر. ذلك أنّ أخاه الملك عبد الواحد هاجم عليه بمساعدة بني مرين، ونظرا لعدم قدرته على المواجهة اضطرّ إلى الفرار مشرقا[3] ولا نعلم عن نهايته شيئا، والثاني السلطان أبو يحي بن أبي حمو فبعد أن بايعه أشياخ العرب[4] شنَّ هجوما على أخيه السلطان أحمد العاقل (834-866هـ/1430-1461م) بتلمسان لكنه أخفق في الإطاحة به؛ فغزى مدينة وهران واستولى عليها؛ لكن السلطان أحمد العاقل بعث إليه عماله فاقتحموها عليه ففرّ في البحر وتوجه إلى تونس وبقي بها إلى أن توفي سنة 852هـ/1448م[5].

نشير بالذكر أنّ الصراع حول السلطة استمر حتى أواخر العهد الزياني ومن الحالات التي يمكن أن نضيفها هي لجوء الملك أبي حمو الذي كان مواليا للأسبان إلى الفرار بعد أن هاجم عليه بربروس بدعوى أن يرجع أبا زيان الذي كان في السجن إلى الحكم، ويقول مارمول حول هروب هذا الملك: "كان الملك قد فرّ من باب سري في قصره متجها إلى الجبل، وسار إلى نوميديا معه نساؤه وأطفاله وكل ما لديه من نفيس الأشياء"[6].

---

[1]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص227-228.

[2]- المصدر نفسه، 228.

[3]- المصدر نفسه، ص235.

[4]- هُم: موسى بن حمزة وعبد الله بن عثمان وسليمان بن موسى. المصدر نفسه، ص249.

[5]- المصدر نفسه، ص249.

[6]- إفريقيا، 308/2.

في النهاية ينبغي أن نشير إلى حدة التنافس والتطاحن على الحكم بين أفراد البيت الزياني في الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إلى غاية سقوط الدولة، وهو ما سمح للأطراف الخارجية بالتدخل مما عرضهم في كثير من الأحيان إلى الهروب والنفي والتغريب.

2-العلماء

رغم حالة العوز للنصوص التي تكشف عن تعرض النخبة في العهد الزياني إلى النفي أو الفرار بسبب ظروف الحرب والحصار، تم التقاط بعض الحالات القليلة منها ما حدث للشيخ أبي العباس أحمد بن مرزوق (ت741هـ/1340م) الذي هرب من تلمسان بسبب الحصار الطويل، وقد تولى تهريبه أحد أصحاب والده[1]، وكذلك الفقيه أبو موسى عمران المشدالي (ت745هـ/1344م) البجائي الأصل نزيل تلمسان، حيث فرّ هذا الأخير من حصار بجاية إلى الجزائر، فبعث إليه السلطان أبو تاشفين وقربه وأحسن إليه ومكث بها إلى أن توفي[2].

ويصعب في ظل المادة المصدرية التي توافرت لدينا الوقوف على باقي طبقات المجتمع الزياني التي طالتها هذه العقوبة.

رابعا: الموت

ما يزال البحث في تاريخ الموت غير مألوف في الدراسات التاريخية العربية[3] بصفة عامة وفي الدراسات التي عنيت بالبحث في التاريخ الزياني بصفة خاصة؛ مقارنة بالدراسات الأوربية التي طرقت دراسة هذه الظاهرة منذ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي[4].

---

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص194.

[2]- المقري، نفح الطيب، 223/5. التنبكتي، الديباج المذهب، ص326-327.

[3]- نشير إلى بعض الدراسات الجادة منها: الموت في مصر والشام لبلقاسم الطبابي. الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني لحميد تيتاو. الموقف من الموت لمحمد حقي.

[4]- يشير الأستاذ محمود حبيدة إلى البدايات الجنينية لدراسة تاريخ الموت في أوربا وكيف تطورت دراسة هذه الظاهرة من تاريخ البنيات إلى تاريخ العقليات قائلا: "نشأ البحث في تاريخ الموت عند نقطة التقاء الديموغرافيا التاريخية وتاريخ العقليات. فقد اهتم المؤرخون خلال الخمسينيات والستينيات بالنظام الديموغرافي للمجتمعات الأوربية ما قبل الصناعية، من ولادات ووفيات وأمد الحياة، وكشفوا بالأرقام عن النسب المرتفعة للوفيات، سواء منها وفيات الأوقات العادية أو وفيات الأزمة، وأهميتها في تحديد البنيات الديموغرافية والاجتماعية. وفي مرحلة ثانية، في السبعينيات بالأساس، تحول الاهتمام من ما هو كمي ورقمي إلى ما هو كيفي وسلوكي، أي من دراسة البنيات إلى دراسة العقليات، إذ انكبت الدراسات على الأنساق الثقافية والسلوكيات والمواقف اتجاه الحياة والموت...". محمود، حبيدة: "تاريخ الموت"، ضمن

أولا: الحرب والموت، إشكالية الرقم والفئة والمجال

إنّ هاجس الموت الذي انطبع في ذهنية إنسان المغرب الأوسط أفسد عليه حياته وجعله في مواجهة مستمرة مع أدوات الموت الجماعي؛ فقد كانت الموت تترصد الجميع وتحصد من حين لآخر مجموعات قد يقل عددها أو يكثر[1]، وذلك تبعا لحدّة تلك الحروب والحصارات وامتدادها زمنيا وانتشارها جغرافيا، فلا حرب دون قتلى[2]، ومن خلال القراءة في الحوليات التاريخية الخاصة بالفترة موضوع الدراسة اكتشفنا أنّ الحروب التي تواترت بشدة خلال هذا العهد كانت الأداة الأكثر فتكا بالأنفس البشرية، فأضحت ظاهرة مزمنة يعيش على وقعها سكان المنطقة وتؤثر في نسق حياتهم وفي تصوراتهم للموت.

ومما يلاحظ أنّ المتون النصية التي جاءت على ذكر قتلى الحروب الزيانية ضدّ أعدائها تميزت بطابع التعميم، حيث لا نعلم ما هي الفئة الأكثر تضررا باستثناء البعض منها الذي يشير إلى القتلى من الجنود؛ كما أنها تخلو من إحصائيات رقمية لعدد القتلى الذين سقطوا في الحرب؛ فلا نعلم إن كان عددهم قليلا أو كبيرا.

وفي ذلك نساير الطرح الذي ذهب إليه أحد الباحثين الذي يُقر بصعوبة تحديد الأعداد الحقيقية لضحايا الحروب من خلال النصوص الوسيطية إذ يقول في ذلك: "فكثيرا ما يستعمل ابن خلدون على غرار الإخباريين والمصنّفين في تاريخ الإسلام عبارات وصفية ذات حمولة ديموغرافية غامضة، غالبا ما تفيد الكثرة أو ينتابها الشك وتشوبها الريبة ويغيب فيها اليقين، كما تفيد أحيانا أن معرفة الأعداد الحقيقية للجيوش ولضحايا الحروب أمر خارج عن طاقة البشر، ولا يمكنهم القيام به أو التحكم فيه، ولا يعلم حقيقته إلا الخالق عز وجل"[3]؛ ومن الأمثلة التي يمكن الاستدلال بها الاجتياح الذي شنه الجيش المريني على تلمسان سنة 696هـ/1296م والذي أدى إلى حدوث حرب طاحنة بين الفريقين انتهت بانهزام بني عبد الواد ودخول الجيش المريني إلى ساحة تلمسان "فقتل خلقا من أهلها"[4]، وكذلك الحال عندما سقطت

كتاب –كتابة التاريخ قراءة وتأويلات–، (د.ب): دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013، ص51.

[1]– بلقاسم،الطبابي: الموت في مصر والشام، 49/1.

[2]– جميل، السيار: "الحرب ظاهرة تاريخية. مدخل من أجل فهم سوسيولوجي"، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع2، المجلد 36، أكتوبر– ديسمبر، 2007، ص24.

[3]– محمد، حالي: "الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون"، مجلة المستقبل العربي، ع، المغرب، ص76.

[4]– ابن خلدون، العبر، 260/7.

تلمسان على يد أبي الحسن المريني مما جاء على "إتلاف الكثير من الأنفس"[1]، وقامت مغراوة بزعامة علي بن راشد سنة 752هـ/1351م "فقتلوا بني عبد الواد غيلة"[2]. ومما نلاحظه أنّ هذه العبارات على الرغم أنها تفتقر إلى ذكر أعداد الهلكى الذين سقطوا في هذه الحروب إلاّ أنها تدل على كثرتهم.

ومن سلبيات النصوص التي جاءت على ذكر قتلى حروب العهد الزياني أيضا هو تركيزها أكثر على المجال الحضري دون البادية؛ رغم أن البادية هي الأخرى تضم قسما من السكان وطالتهم ألسنة الحروب والحصارات في العديد من المرات.

ونشير بالذكر إلى أنّ الحروب لم تكن وحدها سببا في قتل الأبرياء من سكان المغرب الأوسط لكن للموت أدوات أخرى لا تقل نجاعة وهي الحصارات التي تولدت عنها المجاعات التي ساهمت هي الأخرى في انهيار الوضع الديموغرافي ونقص السكان بتلمسان وما جاورها، ويبدو أنّ سلاطين بني مرين بهذا الفعل وجدوا أسلوبا آخر في استئصال أبناء عمومتهم من بني عبد الواد وهو أسلوب الحصار وتجويع المدنيين، فهذا يعقوب بن عبد الحق المريني يقول "لأحاصرهم حتى أقتلنهم جوعا"[3].

وقد كانت المجاعة الناتجة عن الحصار الطويل بحق علامة بارزة في التاريخ الديموغرافي الزياني نظرا لفداحة الخسائر البشرية، ومهما يكن فقد كانت هذه المجاعة قاسية على بني عبد الواد نظرا لطول أمدها[4]؛ فقد تسببت في حصد أرواح كثيرة من مختلف الفئات العمرية والاجتماعية.

وفيما يخص الإحصائيات فقد أوردت لنا مصادر المرحلة أرقاما تتعلق بعدد الموتى وعدد الناجين من هذه المجاعة، وهي ظاهرة غير مسبوقة في المصادر الزيانية فغالبا ما كان المؤرخون يستخدمون عبارات ذات حمولة ديموغرافية مجهولة، لكنها توحي إلى الكثرة على نحو ما قاله ابن خلدون بصدد حديثه عن الحصار الطويل وما انجر عنه من فتك بالأرواح قائلا: "فكان الهالك بالجوع أكثر من الهالك بالقتل"[5]، وفي إشارات أخرى كذلك نستشف فيها كثرة الموتى في هذا الحصار وحسبنا في ذلك ما قاله التنسي: "فكم

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص202.

[2]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص153.

[3]- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص61.

[4]- خالد بلعربي، "المجاعات والأوبئة"، ص101.

[5]- ابن خلدون، العبر، 114/7.

خربت فيها من ذمم، وكم هلكت فيها من أمم ..."[1]. ويضيف ابن مرزوق حول المحاصرين داخل تلمسان قائلا: "وكان السلطان أبو يعقوب، قد هدر دم من يوجد داخلا"[2].

وعلى ما يتراءى لنا أيضا من خلال النصوص التي جاءت على ذكر هذه المجاعة أنّ هناك سبب إضافي تحالف مع الجوع وهو البرد لأنّ تلمسان تتميز بالبرد فهي "أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا"[3] فاضطرّ الناس في هذا الحصار إلى تخريب السقف للوقود[4]، وهو ما سيزيد من حدة الكارثة في فصل الشتاء خاصة.

وفي ظل غياب أرشيف إحصائي لموتى حصار تلمسان كما ذكرت سابقا نستثني من ذلك ما ورد عند كل من يحي ابن خلدون والتنسي لعدد الضحايا وعدد الناجين من سكان تلمسان فإنَّ النتائج الديموغرافية كانت كارثية، حيث مات تسعة أعشار من سكان تلمسان ولم يبق إلاّ العُشُر في هذا الحصار، كيف لا وقد بلغ عدد الموتى زُهاء مائة ألف وعشرين ألفا[5] بعد أن كان عددهم يفوق مائة وثلاثون ألف نسمة على أكثر تقدير[6]؛ ولم ينجُ منها إلاّ نحو المائتين من الرعية ونحو الألف من المقاتلة[7].

وفيما يبدو لي أنّ مصداقية هذه الأرقام ضعيفة ويحق لي التشكيك فيها لأنها غير منطقية؛ ومن الأسباب أنها لم تُذكَر عند معظم المؤرخين الذين أرخوا للحدث؛ باستثناء يحي ابن خلدون وهو الوحيد الذي ذكر هذه الإحصائيات والتنسي الذي يعتبر مجرد ناقل عنه، في حين لم يذكرها عبد الرحمن ابن خلدون الذي أطنب في حديثه حول هذا الحصار، وكذلك بالنسبة للمصادر المرينية حيث لم تأت على ذكرها.

ولا يفوتني أن أنوّه إلى إشارة أخرى أوردها لنا الزركشي عن إحصائية عدد الموتى الذين سقطوا في الحصار الذي فرضه السلطان أبو الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م) على تلمسان والذي

---

[1]- التنسي، المصدر السابق، ص132.

[2]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص194.

[3]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص222.

[4]- ابن خلدون، العبر، 113/7.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 234/1. التنسي، المصدر السابق، ص132.

[6]- التنسي، المصدر السابق، ص132. وأيضا فيلالي، بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، ص130.
Brosslard (ch) : les inscriptions arabes de tlemcen, cit, p167.

[7]- التنسي، المصدر السابق، ص132.

دام قرابة الثلاث سنوات فأودى بحياة ثمانين ألفا من الفريقين[1]؛ بعد أن كانت تلمسان تضم ستة عشر ألف كانون[2] مما يوحي بأنها كانت عامرة بالسكان.

ثانيا: القتل العنيف

يقول أحد الباحثين بأنّ العنف الجماعي لا يظهر إلاّ في الحروب[3]، ومن خلال بعض التعاريف لمجموعة من المفكرين أيضا نتبين صبغة العنف التي تكتسيها الحرب حيث أنها: "حالة من الصراع العنيف..." و"صراع بين الناس..." وهي: "صورة من صور العنف..."[4]، ومما ينهض حجة على بشاعة الحروب التي حدثت بين الزيانيين وأعدائهم بعض الشواهد التاريخية الواردة في النصوص الوسيطية التي تحدثت عن هول تلك الحروب وما رافقها من عنف نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما حدث في وقائع معركة وادي تلاغ حيث "السيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام تقطع وتقطف"[5]، وقد تم تقييد ما تم الوقوف عليه من نصوص تكشف عن بشاعة وقساوة الحرب في جدول.

جدول يمثل عينة من النصوص تكشف عن بشاعة وقساوة الحرب في العهد الزياني

الحرب	نص يثبت بشاعة الحرب	المصدر والصفحة
معركة وادي تلاغ 666هـ/1267م	"فكانت بينهم حروب عظيمة...وهزاهز جسيمة لم يُرَ مثلها، فلم تر إلاّ الخيول تضبح، وأهلها إلى اللقاء تطمح، فدام القتال من وقت صلاة الضحى إلى صلاة الظهر"	الأنيس المطرب، ص398
معركة وادي اسلي	""فالتحمت الحروب بينهما	الأنيس المطرب، ص405

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص73.

[2]- الوزان، وصف إفريقيا، 17/2.

[3]- عمار، عبد الرزاق: السلطة والعنف والجنس، ط1، تونس: دار نقوش عربية، 2014، ص55.

[4]- من هؤلاء: لارجورين ومارتن وسوزويشبر. أنظر هذه التعاريف وغيرها: بوتول، جاستون: الحرب والمجتمع –تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية، ترجمة: عباس الشربيني، بيروت: دار النهضة العربية، 1983، ص49.

[5]- مجهول، الذخيرة السنية، ص148.

670هـ/1271م	واضطرمت، واشتعلت نار الوغى والتهبت، وشمرت عن ساقها وتنمرت... وكثرت الأهوال...ولولا أنه حل الظلام بين الفريقين لم يبق من بني عبد الوادي باقية"	
صدام عسكري سنة 679هـ/1280م بين الزيانيين والمرينيين	"فالتحم القتالُ وحمي الوطيس، واشتدّ الحرب بين الفريقين وصرخ ابليس، ولم يزل القتال يشتدّ بينهم إلى صلاة العصر"	الأنيس المطرب، ص440
حرب أبي عنان المريني ضدّ أبي سعيد الزياني سنة 753هـ/1352م	"وخاض بحر القتال، وقد أظلم الجو بالغبار...واستباحوهم قتلا وسبيا"	الاستقصا، 182/3
حرب أبي عنان ضد أبي ثابت رجب 753هـ/1352م	"واحترب الفريقان بما أشاب الوليد"	بغية الرواد، 265/1
حرب أبي حمو الثاني ضدّ ابن عمه أبي زيان القبيّ وأنصاره	"فاحتدم المراس، واشتدّ على أفئدة فئةِ الهدى البأس وارتفع الوغى وعظم الشقاء، فهنالك صُليَ أمير المسلمين، أيده الله بنفسه الكريمة لظى الحرب، وشهد معمعة الطعن والضرب"	بغية الرواد، 140/2

1–القتل الفردي:الفئة الحاكمة

تعاقب على حكم الدولة الزيانية واحدا وثلاثين سلطانا على مدى هذا العهد وقد كانت نهاية كل واحد تختلف عن الآخر، يعود ذلك إلى الظروف والأسباب التي أدت إلى موته، وذلك حسبما تشير إليه المصادر التاريخية عن الظروف والأسباب التي اقترنت بظروف الحرب والحصار وذلك حسبما تقتضيه طبيعة هذا الموضوع؛ وصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ موت هؤلاء كانت بأساليب عنيفة ومختلفة وأغلبها في ساحة المعركة دفاعا عن العرش ضدّ الغزاة الغاصبين من بني مرين وبني حفص. **فما هي أشكال العنف الذي تعرضت له هذه الفئة؟ وما هي الأطراف التي مارستها عليهم؟ وما هي دوافعهم في ذلك؟ وهل قابل سلاطين بني زيان هذا العنف بعنف مضاد؟**

تعرضت هذه الفئة إلى القتل العنيف أثناء الحروب الزيانية بأساليب وحشية ومختلفة كما ذكرت آنفا؛ وبتتبع هذه الوسائل لاحظنا أنها تمت أحيانا بالذبح وقطع الرأس مع التصليب وأحيانا بالخنق وأحيانا قصعا بالرماح وغيرها من الأساليب؛ كما صادفنا بعض الحالات الأخرى والمتمثلة في قتل بعض العناصر الأخرى مع السلطان كأن يُقتل ولي العهد أو أولاده كلهم أو حتى بعض العناصر من بطانته كالوزراء والقضاة والولاة. ويكفي الاستدلال ببعض الأمثلة التي تبين بشاعة وهمجية ما تعرضت له النخبة السياسية خلال الحقبة محل الدراسة.

أ– القتل بالذبح

من أشهر السلاطين الذين تعرضوا للذبح هو أبو تاشفين بن أبي حمو الأول (718–737هـ/1318–1336م)، وهو أوّل سلطان من بني عبد الواد تم عقابه من طرف بني مرين وذلك بأمر من الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن المريني الذي تمكن من إسقاط تلمسان سنة 737هـ/1336م. فَقُتل السلطان على ظهر جواده[1] ثم ذُبح واحتز رأسه[2]؛ ويعتبر قطع الرأس قطع للهامة وقطع للحياة في البدن[3]، ومما يستدعي القول أنّ هذا العنف مصدره تلك العداوة القائمة بين السلطان أبي

[1]– صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ط1، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دمشق: دار الفكر، 1998، 47/3.

[2]– ابن الأحمر، روضة النسرين، ص52. الناصري، الاستقصا، 126/3. الزركشي، المصدر السابق، ص72.

[3]– الطبابي، المرجع السابق، 303/1.

الحسن المريني والسلطان أبي تاشفين الزياني[1]، نتيجة لانتصارات هذا الأخير وتمكنه من افتكاك العديد من مدن المغرب الأوسط التي استولى عليها المرينيون.

ومما يذكر في هذا الصدد أنّ السلطان أبا تاشفين وأولاده أبو سعيد وأبو سرحان وأبو يعقوب قاتلوا بشجاعة دفاعا عن العرش إلى أن استشهدوا جميعا أمام القصر برحبة أيمن تجمي[2]؛ وذلك يوم الأربعاء 28 رمضان 737هـ/1336م[3]. وقد أورد لنا التنسي (ت899هـ/1493م) قصيدة مرثية حول أبي تاشفين نستقي منها بعض الأبيات[4]:

يا حادثا ملأ المســـامع شنعـــة *** والجفن ماء والجوانح نـــــارا

سقى الورى كأس الأسى حتى لقد *** سكر الجميع وما هم بسكارى

بدر الملوك وسرها الشهـــم الذي *** دابا يجر الفيلـــق الجـــــرار

طوق المنية منه ليثـــا باســـلا *** جم المحـــاسن نافعا ضـــرارا

عجبا لترب صار فيه شخصـــه *** ما عذره أن لا يصير نضـــارا

ومما نلاحظه أنّ منطوق الخطاب الذي جاء على ذكر عملية الذبح التي مورست على السلطان أبي تاشفين يختلف بين مؤرخي الدولة الزيانية ومؤرخي الدولة المرينية والحفصية؛ حيث ذُكر عند كل من صاحب روضة النسرين والاستقصا والزركشي بأنّه "ذُبح" في حين جاء عند صاحب البغية أنه اسْتُشهِدَ في ساحة المعركة دون أن يذكر الطريقة التي قُتل بها.

ومن السلاطين الذين كان لهم المصير نفسه أبو سعيد ابن عبد الرحمن الزياني (749-753هـ/1348-1352م) الذي ذُبح على يد السلطان أبو عنان المريني (749-759هـ/1348-1357م) بعد انهزام جيش بني عبد الواد في معركة وادي القصب سنة 753هـ/1352م؛ وقد كان من أسباب هذه الهزيمة خداع قبائل بني عامر وانسحابها من المعركة؛ فتم القبض على أبي سعيد بعد أن كبا به

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، 390-391.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. الناصري، المصدر السابق، 125/3-126. التنسي، المصدر السابق، ص145. الزركشي، المصدر السابق، ص72-73.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص146. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص72.

[4]- هذه القصيدة تحتوي على 19 بيتا شعريا وهي من البحر البسيط ولم أتمكن من معرفة قائلها. انظر التنسي، المصدر السابق، ص145-146-147.

فرسه وسيق به إلى ملك المغرب[1]، وبعد أن استفتى السلطان أبو عنان فقهاء حضرته بشأن السلطان أبي سعيد أفتوا له بقتله، وأوكلت المهمة لأحد النصارى المرتزقة بالدولة المرينية، فقتله بمحبسه في وضعية "تراجيدية"[2]، يصف لنا صاحب روضة النسرين ذلك في قوله "فذبحه الرومي بالسكين"[3]، ويظيف ابن خلدون في هذا الصدد قائلا: "وأمضى حكم الله فيه، فذبح بمحبسه لتاسعة من اعتقاله"[4]. وكان تنفيذ الإعدام يوم السبت 11 جمادى الأولى 753هـ/1352م[5].

والسؤال المطروح حول هذه المسألة هو: **لماذا شرّع هؤلاء بقتل السلطان؟** إذ لا مبرّر لذلك فالحرب بين طرفين يدينان بالإسلام وأسباب الحرب لم تكن دينية؛ لكن وعلى الرغم من أنّ المصادر لم تشر إلى أسماء هؤلاء الفقهاء لكن فيما يبدو أنّهم من ذلك النوع الذي يقوم بتطويع النصوص الدينية ويجعلها في خدمة مولاه وولي نعمته، فيبررون ذلك بدعوى الخوف من الفتنة.

ب–القتل خنقا (شنقا)

شكل الخنق إحدى الوسائل التي لجأ إليها أعداء بني زيان لتصفية البعض من السلاطين الزيانيين؛ والمقصود من الخنق منع خروج النفس بأي وسيلة سواء شنق الجاني المجني عليه بحبل، أو خنقه بيديه، أو بحبل، أو غمه بوسادة، أو بأي شيء وضعه في فيه أو أنفه[6].

ومن خلال المعطيات المتوفرة لم نعثر إلاّ على حالة واحدة ممن طبق عليهم حكم الإعدام شنقا في ظروف كانت الدولة الزيانية محل صراع بين الأخطار الخارجية المحدقة في آخر عهدها، ولكن هذه المرة كانت بين الغزو الإسباني من جهة وبربروس التركي من جهة أخرى؛ والواقع أن عقاب السلاطين لم يكن فرديا في جميع الحالات بل كثيرا ما اتخذ صفة العقاب الجماعي، إذ كانت التصفية تلحق بأسرته ومقربيه ونذكر في هذا المقام السلطان أبا زيان (حكم سنة 923هـ/1517م) وأولاده السبعة الذين تعرضوا للشنق

---

[1]– ابن خلدون، بغية الرواد، 264/1. التنسي، المصدر السابق، ص154.

[2]– مصطفى نشاط، المرجع السابق، ص36.

[3]– ابن الأحمر، روضة النسرين، ص54.

[4]– ابن خلدون، العبر، 342/7. أما في رحلته فيذكر أنه قُتل دون أن يُشير إلى أسلوب القتل. انظر رحلته، ص66.

[5]– ابن خلدون، بغية الرواد، 264/1. التنسي، المصدر السابق، ص154.

[6]– حميد، الحداد: السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، ط1، دمشق: دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، ص263.

على يد بربروس بعد أن أخرج أبي زيان هذا من سجنه ونصبه على العرش[1]؛ كما وعد الرعية الذين ساندوه في حربه ضدّ الأسبان والسلطان أبي حمو الذي كان مواليا لهم، لكن ذلك لم يدم طويلا حيث قبض عليه وشنقه مع أبنائه السبعة على أعمدة الرواق أين شنقوا بقماش عماماتهم[2]؛ ولم يكتف بهذا بل أعطى أوامرًا بإحضار كل من يمكن العثور عليه من هذه الأسرة لتنفيذ حكم الإعدام عليهم لكي تفرغ له الساحة ويتمكن من الجلوس على عرش تلمسان[3].

ت- القتل قصعا بالرماح

وكان القصع بالرماح إحدى الأساليب التي استخدمها سلاطين بني مرين ضدّ سلاطين بني زيان حينما يظفرون بهم أحياءً بعد انتهاء الحرب؛ وهو الأمر الذي حدث مع السلطان أبي ثابت الزياني (749-753هـ/1348-1352م) ووزيره يحي بن داوود الذي تولى قيادة الجيش معه، فبعد الهزيمة التي مني بها جيش بني عبد الواد سنة 753هـ/1352م ألقي القبض عليهما فسيقا إلى السلطان أبي عنان المريني الذي دفع بهم إلى بني جرار لإعدامهم فأخرجا إلى صحراء البلد وقُتلا معا قصعا بالرماح[4] وذلك في 13 رمضان من سنة 753هـ/1352م[5].

ولا نستبعد أنّ مصدر هذا العنف على السلطانين ونعني بهم الأخوين أبي سعيد وأبي ثابت الزيانين كان لأحقاد تعود إلى إحدى الحروب التي انتصر فيها السلطان أبو ثابت ضد أبي الحسن المريني، والتي أدت إلى مقتل أخيه وعناصر من بطانة أبيه في سنة 751هـ/1350م[6].

ويشير أحد الباحثين إلى أنّ اختيار الأماكن العامة لتنفيذ حكم الإعدام فيها بغرض حضور أكبر عدد من الجمهور بغاية الردع والترهيب وإبراز قوة السلطة[7]؛ ويبدو أنّ هذا ما أراده السلطان المريني وبنو جرار من خلال تصرفهم هذا حيث تعمدا إعدام السلطان الزياني ووزيره أمام أعين الناس لإرهابهم وتخويفهم بالإضافة إلى عنصر الفرجة، يُراد كذلك إبراز قوة السلطة وهيبتها العسكرية.

---

[1]- الوزان، وصف إفريقيا، 2/9-35-36.

[2]- المصدر نفسه، 2/308.

[3]- المصدر نفسه، 2/308.

[4]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص94.

[5]- التنسي، المصدر السابق، ص156.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 1/261-262.

[7]- الطبابي، المرجع السابق، ص293.

ث- الموت بالسم

لقد شكل الحصار عاملا آخر إلى جانب الحروب في هلاك البعض من سلاطين بني زيان إذ لا نستبعد أن تكون الظروف العصيبة الناتجة عن الحصار الطويل أثرت على حالتهم النفسية؛ فمنهم من اختار الموت بدل البقاء تحت الحصار والسقوط في يد الأعداء، ويتعلق الأمر بالسلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) الذي توفي زمن الحصار وذلك في غرة ذي القعدة سنة 703هـ/1303م أي بعد خمسِ سنوات من الحصار المفروض على تلمسان، وقد اختلف المؤرخون حول وفاته فقد ذهب يحي بن خلدون إلى القول بأنه "توفي بغتة لنزلة أصابته في الحمام"[1] وآزره في ذلك التنسي، في حين يقول ابن خلدون بأنه انتحر بواسطة السم تفاديا معرّة غلب عدوهم[2]، وقد نقل لنا بدقة تفاصيل تلك الأحداث رواية على لسان شيخه الآبلي: "هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعدّ لشربه لبنا. فلما أخذ منه الديماس وعطش، دعا بالقدح وشرب اللّبن ونام، فلم يكن بأوشك إن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنّه داف فيه السّم..."[3]، ومما يؤكد عدم وفاة السلطان بسبب المرض هي تلك الشكوك التي أثارها مشيخة بني عبد الواد حول المرض المفاجئ الذي أصاب السلطان بعد أن تم استدعاؤهم من طرف زوجة السلطان وإخبارهم بوفاة هذا الأخير حيث قال أحدهم "مستفهما عن الشأن ومترجما عن القوم: السلطان معنا آنفا، ولم يمتد الزمن لوقوع المرض، فإن يكن هلك فخبرونا..."[4].

ويبدو أنّ هذا التباين فيما ذكره المؤرخون بشأن نهاية هذا السلطان نابع من نزعة ذاتية؛ فمؤرخ الدولة الزيانية يحي بن خلدون الذي عُرف بمغالاته في مدح بني عبد الواد[5] أرجع أسباب الوفاة إلى المرض، وهو نوع من التستر على السلطان أبي سعيد عثمان وعدم إظهاره بمظهر الضعف والاستسلام للظروف القاهرة التي فرضها الحصار المريني، وفي المقابل يفند عبد الرحمن ابن خلدون ذلك بروايته مشيرا إلى أنّ السلطان قتل نفسه بالسم خوفا من العار والمذلة.

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 232/1. التنسي، المصدر السابق، 131.

[2]- ابن خلدون، العبر، 113/7.

[3]- المصدر نفسه، 113/7.

[4]- المصدر نفسه، 113/7.

[5]-بونابي، "الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين"، ص30.

ج- القتل بأساليب مجهولة

-السلاطين

هناك من النصوص التي أشارت إلى قتل بعض أمراء بني زيان لكن دون أن تكشف عن طريقة قتلهم، وهذا حال أبي زيان محمد بن أبي حمو (796-801هـ/1393-1398م) الذي كانت نهايته مأساوية حيث اغتيل في بيته سنة 805هـ/1402م على يد محمد بن مسعود الوعزاني منتهكا منه أعظم حرمة حسبما أورده التنسي[1]؛ في حين يقول ابن الأحمر عن نهاية هذا السلطان أنه "طِيفَ برأسه في فاس على رمح"[2]، ونستنتج من خلال الأحداث التاريخية أنّ القاتل تم استئجاره من طرف السلطان أبو محمد عبد الله الذي ساندته بنو مرين في حربه على أخيه من أجل التخلص منه وينفرد بالحكم لنفسه بعد أن فر هذا السلطان إلى جهة المشرق[3]؛ وتعتبر جثة هذا السلطان المنتهكة حرمتها شاهدا على العنف الذي تبناه بعض سلاطين بني زيان فيما بينهم من أجل الوصول إلى كرسي الحكم.

وفي إطار الصراع المحتدم بين السلطانين أبي مالك عبد الواحد[4] وأبي عبد الله محمد المدعو ابن الحمراء[5] حول العرش في مرحلة كان حكام الدولة الزيانية ألعوبة في يد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز؛ وقد ساند هذا الأخير ابن الحمراء في حربه على عمه وأدى ذلك إلى الاستيلاء على العرش وقتل السلطان عبد الواحد (عمه) في صبيحة يوم الأربعاء 4 ذي القعدة سنة 833هـ/1430م داخل باب كشاطة[6].

---

[1]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص228.

[2]- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص83.

[3]- المصدر نفسه، ص227.

[4]- تولى هذا السلطان الحكم في المرة الأولى من 814هـ/1411م إلى 827هـ/1423م وخلع من طرف ابن أخيه المدعو ابن الحمراء ليستبد بالحكم مرة أخرى في رجب سنة 831هـ/1428م ويموت مقتولا سنة 833هـ/1429م. انظر التفاصيل في نظم الدر والعقيان، ص244-245.

[5]- استولى ابن الحمراء على الحكم يوم السبت 16 جمادى الثانية عام 827هـ/1423م بإيعاز من السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز إلى غاية 831هـ/1427م ثم قام بعزله ليرجع إلى الحكم مرة أخرى في شهر ذي القعدة 833هـ/1429م ودام ملكه 84 يوما. المصدر نفسه، ص241-243-246.

[6]- التنسي، المصدر السابق، ص245.الونشريسي، وفيات الونشريسي، ص88.

ومن أشهر الاغتيالات التي تمت في العهد الزياني اغتيال السلطان أبو عبد الله محمد المستعين بالله من طرف أهل الجزائر وعرب وطنها في 2 شوال 843هـ/1439هـ[1] وكان السبب في اغتياله هو "حصاره الشديد للجزائر حتى ضاق الأمر بمن فيها فأسلمُوا البلد"[2]، فدخلها أحفاد السلطان في 19 رجب 842هـ/1438م[3].

وغالبا ما تسببت الحرب أيضا في هلاك أولاد السلطان في ساحة المعركة؛ فمما هو معروف عن سلاطين بني عبد الواد هو قيادة الجيوش بأنفسهم أو توكيلها إلى أولادهم نظرا لما عُرف عنهم من الشجاعة والبأس فكان ذلك سببا في استشهادهم؛ ومنهم من كان سيتولى العرش من بعد أبيه فحالت الحرب دون ذلك؛ مثلما حدث في معركة وادي تلاغ 666هـ/1267م حينما انهزام جيش السلطان يغمراسن الزياني فَقُتِلَ أعز ولده وولي عهده أبو حفص عمر[4]، وقد كان هذا الأمر من إحدى مكاشفات الشيخ سيدي واضح للسلطان يغمراسن حيث تنبأ الشيخ بوفاة الابن البكر عمر[5] الذي رشحه لتولية العرش الزياني من بعده لأنه أكبر أولاده[6].

وسيتكرر المشهد مرة أخرى مع ولده فارس الذي سقط في ساحة المعركة بعد بضعة أعوام في معركة وادي ايسلي سنة 670هـ/1271م[7]؛ ونفس المصير لقيه أولاد أبي تاشفين الأول عثمان ومسعود ويوسف في المعركة مع أبيهم سنة 737هـ/1336م[8] وقُطعت رؤوسهم جميعا[9].

– كبار موظفي الدولة

لم يسلم أعيان السلطة ووزرائها وولاتها من القتل والتصفية الجسدية من طرف بعض الجهات تحت ظل الصراع القائم بين الدولة وأعدائها، واغلب الذين تمت تصفيتهم في الحروب هم قادة الجيش؛ ونظرا

---

[1]– التنسي، المصدر السابق، ص251.

[2]– المصدر نفسه، ص250.

[3]– المصدر نفسه، ص250.

[4]– ابن خلدون، العبر، 101/7. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص305.

[5]– ذكره أبو عمران باسم "عامر" وتنبأ الشيخ سيدي واضح بأنّ عثمان هو من سيتولى عرش بني زيان بعد أبيه. انظر أبو عمران موسى، مناقب صلحاء الشلف، 140. ابن صعد، النجم الثاقب، 403/2.

[6]– انظر نص هذه الكرامة عند أبي عمران موسى المازوني، المصدر السابق، ص140-141.

[7]– ابن خلدون، العبر، 102/7. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص310.

[8] – الناصري، الاستقصا، 126/3. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص72.

[9]– ابن الأحمر، المصدر السابق، ص52.

لأهمية هذه الشخصية في الدولة ودورها الفعال في الحروب يذكر لنا ابن رضوان عن فضائل ومواصفات قائد الجيش التي تؤهله لهذا المنصب قائلا: "لا يصلح لقيادة الجيوش إلا الشريف المتواضع المتقدم في النصيحة، والشهرة بالنجدة، والخبرة بالحروب، وحسن المواساة للاتباع، وسخاء النفس ببذل المال"[1]، وعن شجاعة وحنكة القائد في الجيش نضيف هذه الحكمة "أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلب يقود ألف أسد"[2].

ومن مشاهير قواد الجيوش في الدولة العبد الوادية والذين تميزوا بالشجاعة في الحروب التي كانوا قادة عليها نذكر منهم؛ موسى بن علي الغزي وعبد الله بن مسلم الزردالي وزيان بن أبي يحي بن ونزمار ويعيش بن راشد بن مجن وغيرهم؛ وأغلبهم سقط في ساحة المعركة.

فقد قُتل وزير السلطان يغمراسن يحي بن عطوش[3] بوهران في اشتباك ضدّ بني مرين سنة 646هـ[4]، وكذلك وزير أبي تاشفين الأول وقائد جيوشه موسى بن علي الغزي[5] وطيف برأسه[6] على يد المرينيين إثر إغارتهم على تلمسان في رمضان سنة 737هـ/1336م[7]؛ وقد خرج هذا الأخير يقاتل العدو أمام القصر برحبة أيمن تجمي إلى أن استشهد[8]، ... ويمكن أن نضيف وزير السلطان أبي حمو موسى الثاني عبد الله بن مسلم الزردالي[9] الذي مات في آخر ذي القعدة سنة 765هـ/1363م[10] أثناء خروجه لقتال

---

[1]- ابن رضوان، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص382.

[2]- المصدر نفسه، ص382.

[3]- هو أخ يحي بن مجن وزير سابق عند السلطان يغمراسن.

[4]- ابن خلدون، العبر، 97/7. بينما ذكره أخوه يحي باسم عموش وأنه مات سنة 636هـ/1238م وهذا مستبعد. انظر بغية الرواد، 226/1.

[5]-التنسي، نظم الدر والعقيان ، ص143.

[6]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص73. وقد ذكره باسم موسى بن علي بن حسن الكردي.

[7]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. التنسي، المصدر السابق، ص146. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص72.

[8]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. الناصري، المصدر السابق، 125/3-126. التنسي، المصدر السابق، ص145. الزركشي، المصدر السابق، ص72-73.

[9]- كان أبو مسلم هذا في خدمة السلطان أبي الحسن المريني ثم ابنه أبي عنان الذي استعمله على درعة، لكن لسوء تصرفه ومكره بأبي الفضل بن أبي الحسن حقد عليه أبو سالم عندما تولى الحكم فهرب إلى تلمسان ودخل في خدمة السلطان أبي حمو أواخر سنة 760هـ/1358م الذي استوزره. ابن خلدون، العبر، 368/7-369.

[10]- ابن خلدون، بغية الرواد، 139/2.

عمر بن عبد الله[1]؛ وإن كانت أسباب الوفاة خارجة عن نطاق الحرب لأنه مات بسبب الطاعون حسبما ذكره ابن خلدون[2].

ومن ضمن الفئات السياسية التي لاقت هي الأخرى حتفها بسبب الصراع القائم بين بني عبد الواد وبني مرين فئة الولاة؛ ومن هؤلاء عبد الملك العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة إلى أمه وهي أخت السلطان يغمراسن[3]، والذي كان واليا على سجلماسة حينما كانت في يد بني عبد الواد وقد كان مصير هذا الأخير القتل بالسيف من طرف المرينيين في ربيع الأول سنة 673هـ/1274م[4]. كما قتل أيضا ابنه من قَبْلُ في معركة واد تلاغ إلى جانب جماعة من أشراف بني عبد الواد منهم أبو يحي بن محمد، وعمر بن ابراهيم بن هشام[5].

- النخبة الفكرية

لم تسلم النخبة العالمة هي الأخرى من القتل بسبب حروب العهد الزياني، وعلى الرغم من شح المادة المصدرية التي تثبت ذلك لكن هذا لا ينفي أنّ الموت قد طال بعض العلماء والفقهاء؛ ومن النماذج نذكر مقتل العالم ابراهيم بن حكم الكناني السّلوي الشهير بأبي اسحاق يوم 28 رمضان عام 737هـ/1336م وهو اليوم الذي دخل فيه الجيش المريني لتلمسان[6]، وقد قُتل من طرف بعض أشياع السلطان أبي الحسن المريني[7]، والعجيب في الأمر أنه قُتل بأمر من السلطان أبي الحسن المريني الذي عُرف

---

[1]- هو من البيت الزياني وهو محمد ابن السلطان سعيد بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن سجنه السلطان أبو عنان المريني حينما تقبضه مع عمه أبي ثابت ووزيره يحي بن داود الذين نفذ فيهما حكم الإعدام، أما عمر هذا فقد أطلقه السلطان أبو سالم من سجنه ليستعمله في حربه ضدّ ابن عمه السلطان أبي حمو موسى الثاني. ابن خلدون، العبر، 150/7.

[2]- المصدر نفسه، 151/7-152.

[3]- الناصري، الاستقصا، 36/3.

[4]- الناصري، المصدر نفسه، 36/3. مجهول، الذخيرة السنية، ص178-179.

[5]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص48.

[6]- التنبكتي، المصدر السابق، ص35.

[7]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص68.

بعفوه[1] ومحبته لأهل العلم[2]؛ ويُرجع ابن خلدون سبب قتل هذا العالم إلى "ذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة، قبل انتحاله العلم، وكان السلطان يعتده عليه، فقتل بباب المدرسة"[3].

2- تقبل الموت بشجاعة

هناك من يقبلون على الموت برباطة جأش وخاصة المجاهدون والمصلوبون والحكام الذين يدافعون عن سلطانهم[4] ويسعون لطلب الشهادة في سبيل ذلك[5]، ومن سلاطين بني زيان الذين تقبلوا الموت بشجاعة واختاروها بدلا من الاستسلام والخضوع والمذلة للطرف الغازي السلطان أبو تاشفين الأول. فقد ذُكر عنه قبل موته وهو في ساحة القتال حينما دخل العدو عليه أنه رفع طرفه إلى السماء يدعو ربه قائلا: "يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه"[6]؛ مما يثبت عدم خوفه من العدو وتقبله الشهادة بقلب كله ايمان ورضى بقدر الله[7]، فقاتل عدوا حتى قُتل، ولعل عبارة "الجنة تحت ظلال السيوف"[8] تدل على الشعور بأنّ الجنة قريبة وأنّ دخولها وشيك لأنّها تربط مكانيا بينها وبين السيوف[9]؛ ووصف لنا صاحب الاستقصا نقلا عن ابن الخطيب هذا الموقف قائلا: "وقف أبو تاشفين وبنوه بإزاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع، وصدقوا عن أنفسهم الدفاع إلى أن كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وإمكان (النمات) فكان في شأنهم عبرة رحمهم الله"[10].

ومن هؤلاء أيضا نذكر السلطان أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن الذي أعطى بني مرين درسا في الشجاعة وعدم الخوف من الموت على الرغم من الضغوطات النفسية التي تعرض لها، وذلك حسب رواية

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص202.

[2]- المصدر نفسه، ص260.

[3]- المصدر نفسه، ص68.

[4]- محمد، حقي: الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، المغرب: مطبعة مانيبال، 2007، ص20.

[5]- إنّ الشهادة طلب للموت وسعي إليه وإنّ المجاهد "يبتغي القتل والموت مضانه" ولئن كان لقاء الله يعرّف بالرغبة عن الدنيا فإنّ الشهادة تعرف خاصة بالرّغبة في الجنة، ويبدو أنّ هذه الجنة حاضرة حضورا ملحا في أذهان المجاهدين حتّى أنهم يكادون يدركونها بحواسهم.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1.

[7]- المصدر نفسه، 244/1.

[8]- البخاري، كتاب الجهاد، باب الجنة تحت ظلال السيوف. و مسلم، كتاب الجهاد.

[9]- رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص46.

[10]- الناصري، الإستقصا، 125/3.

صاحب روضة النسرين الذي وصف لنا المشهد في قوله: "دخل عليه في محبسه (النصراني) فقال له تأهب للموت يا أبا سعيد فقال نعم فاستلقى على ظهره، واستقبل القبلة وتشهد، ووضع يده في لحيته رافعا بها عن حلقومه وقال للنصراني أدن افعل ما أُمرت به فذبحه الرومي بالسكين"[1].

ومن السلاطين الذين قابلوا الموت بشجاعة أبو ثابت الزياني، فبعد أن أُلقي القبض عليه تصرف بهدوء تام في لحظاته الأخيرة على الرغم من اقتناعه بأنّ الموت هو مصيره الحتمي، لكنه قابل الموت بصرامة وبنفس راضية وصدر منه كلام يُظهر مدى شجاعته وإيمانه بعدل قضيته؛ ونستشف ذلك من خلال حديثه مع السلطان أبي عنان الذي حاول استفزازه بقوة جيشه قائلا: "كيف رأيت أبطال بني مرين؟"[2] فكان من إجابته "والله ما أعانكم إلاّ السّعد، وأمّا الرجلة فقد غلبناكم"[3]. ويقول صاحب الصلة أنّ مثل هذه الحالات تثبت قوة نفوس أصحابها وقناعتهم بصواب مواقفهم مما يضمن لهم مصيرا حسنا[4].

3- مصير الجثث

إنّ تحول الجسد الحي إلى جثة هامدة بعد تنفيذ الإعدام، لا يعني دوما انتهاء حفل القصاص الدامي والعنيف وخاتمة فصل الموت. إنّ هذا الجسد يظل إلى حين المادة الأساسية في هذه المشاهد المثيرة للخوف والرعب والرهبة والتشفي[5]؛ فبدلا من إجراء الطقوس الجنائزية اللازمة للميت قبل الدفن والمتمثلة في تجهيزه أي تطهير جسده وتطييبه وكفنه والسير به وتقديس روحه بالصلاة عليه ثم دفنه حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية والله هو الذي صيّر الإنسان ذا قبر[6]؛ فمن حق المسلم الحصول على قبر ودفنه فيه بعد موته أو حتى قتله.

كما أكدت المصادر الفقهية على حق الشهيد والمنتحر ومن قتله السلطان لأي سبب كان في الدفن[7]. لكن ما يحدث في الواقع يختلف عن ذلك إذ نلاحظ استمرار التمثيل بالميت وهو ما يسمى

---

[1]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص54.

[2]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص155-156.

[3]- المصدر نفسه، ص156.

[4]- ابن بشكوال: الصلة، ط1، القاهرة: دار الكتاب المصري- بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989، 30/1.

[5]- الطبابي، المرجع السابق، 301/1.

[6]- محمد، مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1389هـ/1969، 478/3.

[7]- عبد الله، بن أبي زيد القيرواني: الرسالة، ملتزم الطبع أحمد أبو السعود وعثمان الطيب، كانو: نيجيريا، (د.ت)، ص54. المقري أبو عبد الله محمد، الكليات الفقهية، ص101.

اصطلاحا بالمثلة[1]؛ ومعناها تشويه الشخص حيا أو ميتا[2]؛ وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك لقوله: "**ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**"[3]؛ وفي حديث آخر: "**لا تغلّوا ولا تمثلوا**"[4] كما نهى عن ذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز بقوله: "إياكم والمثلة في العقوبة: جز الرأس واللحية"[5]؛ وكل ذلك بدافع الانتقام من الضحية وإرهاب عموم الناس من خلال التشهير بذلك الفعل.

ومما عُرف عن الدولة المرينية حرصها على التمثيل بجثث من قامت بتصفيتهم من خصومها والتشهير بها بقصد التخويف والترهيب[6]، وخير شاهد على ذلك أساليب التمثيل بجثث السلاطين الزيانيين الذين قامت باغتيالهم والتي كانت متنوعة؛ فأبو تاشفين الأول مثلا بعد قطع رأسه وُضع على رُمْحٍ وطِيفَ به بين الناس[7]؛ وتعتبر جثة هذا السلطان المنتهكة حرمته شاهدا على العنف الذي تبناه أغلب سلاطين بني مرين ضدّ نظرائهم من بني زيان؛ لأنّ قطع الرأس والطواف به يعتبر أهم مظاهر المثلة بالجسد فالرأس يختزل كامل الجسد وهو مركز الجسد وأنبل الأعضاء تتركز فيه جل الحواس ويتحكم في كامل أعضاء البدن[8]. لذا فإنّ التمادي في النيل من الضحية وإبراز الجسد المعذب في حفل عقاب كئيب لأنّ العقاب إذا ما جرى بشكل سري أو غير علني أو بدون ضجيج إعلامي يفقد الكثير من معانيه، فالعبرة مطلوبة[9].

وعلى ما يتراءى لنا من خلال ما ورد في المصادر المغربية حول هذا الحدث أنّ الطواف برأس السلطان أبي تاشفين وقع في تلمسان مباشرة بعد قتله؛ لكن ينفرد المؤرخ المشرقي الصفدي الذي عاش في القرن الثامن الهجري بروايته قائلا بأنّ ذلك تم في المغرب[10] وعلى الأرجح في مدينة فاس عاصمة ملك بني

---

[1]- الطبابي، المرجع السابق، 301/1.

[2]- الهادي، العلوي: من تاريخ التعذيب في الإسلام، ط4، دمشق: دار الثقافة والنشر، 2004، ص7.

[3]- الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، ص267.

[4]- الهادي العلوي، من تاريخ التعذيب في الإسلام، ص37.

[5]- ابن رضوان، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص351.

[6]- وسام، صدوق وعصام ابن طالب: "الاغتيال السياسي في مغرب العصر الوسيط من خلال كتب الحوليات التاريخية"، بحث في نيل شهادة الإجازة في التاريخ والحضارة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب: 2011-2012، ص15.

[7]- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص72. الناصري، المصدر السابق، 125/3.

[8]- الطبابي، المرجع السابق، 303/1.

[9]- المرجع نفسه، 297/1.

[10]- الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، 47/3.

مرين، مضيفا عن المصير النهائي لهذا الرأس أنّه دفن مع الجسد عند آبائه بتلمسان[1]. مما يوحي أنّ الرأس أُعيد مرة أخرى إلى تلمسان؛ ونضيف أيضا روايتي صاحب روضة النسرين وصاحب الاستقصا حيث قالوا بأنّه تم حز رأس السلطان ورؤوس أبنائه ووزيره وطيف بهم في جميع بلاد المغرب على رماح[2]، وكذلك ابن خلدون الذي يشير هو الآخر إلى الطواف برؤوسهم دون أن يحدد المكان[3]، وفي هذه الحالة يعتبر رأس أبي تاشفين وأولاده في هذا العرض التشهيري أهم أداة لإثارة الرعب والخوف بين الناس من جهة وإبراز صورة الدولة المرينية القوية المنتصرة على عدوها من جهة أخرى. أما الوزان فقد جاء برواية أخرى حول المصير النهائي لجثة السلطان أبي تاشفين تختلف تماما عن سابقتها مشيرا إلى أنّ الجثة رميت في مزبلة[4] مثلما تُرمى النفايات كنوع من المبالغة في العقاب والإهانة.

ومن النماذج التي يمكن أن نضيفها تؤكد على عنف سلاطين بني مرين مع خصومهم ليس من بني زيان فقط، فقد كان مصير أبي دبوس آخر سلاطين الموحدين القتل طعنا بالرماح في المعركة دفاعا عن عرشه في محرم سنة 668هـ/ 1269م ثم احتزّ رأسه، ولم يكتف السلطان يعقوب بن عبد الحق بل أعطى الأوامر بحمل الرأس إلى فاس ليعتبر برؤيته الناس حسبما رواه صاحب الأنيس المطرب[5].

على أنّ الجثّة تنتظرها مصائر عديدة بعد إبادة الحياة فيها فكل شخص يموت مغضوبا عليه فإنّ دفنه غير مؤكد[6]، ومن أشد مظاهر التنكيل بالضحية هو إخفاء البدن ومحوه كلية إما بواسطة الحرق أو رمي الجثة في البحر أو في بئر[7] وهو ما فُعل بجثث كل من السلطان أبو زيان وأولاده السبعة الذين قام بربروس بإبادتهم عن بكرة أبيهم ورماهم بنفسه في غدير[8].

---

[1]- المصدر نفسه، 47/3.

[2]- الناصري، المصدر السابق 125/3. ابن الأحمر، المصدر السابق، ص52.

[3]- ابن خلدون، العبر، 131/7. لكن في رحلته يكتفي بالقول "وملكها عنوة، وقتل سلطانها أبا تاشفين". رحلته، ص93.

[4]- الوزان، وصف إفريقيا، 19/2.

[5]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص400.

[6]- محمد حقي، الموقف من الموت، ص80.

[7]- الطبابي، المرجع السابق، ص301-302.

[8]- الوزان، المصدر السابق، 308/2.

ومن المصائر الأخرى التي تنتظر الجثة صلبها وتركها في العراء حتى تنتفخ وتتحلل وتصبح مصدرا للروائح الكريهة[1]؛ وقد اختلف الفقهاء في الصّلب وفي مدة بقاء من صُلب؛ حيث يرى المالكية أنّ المقصود بالصلب هو الرّبط على الجذوع لقوله تعالى: "**وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**"[2] ومعنى ذلك أن يربط المحاربون على جذوع النخل بلا تنكيس أحياء. ثم يقتلون بطعنهم وحجتهم أنّ التغليظ بالقتل لا تأثير له في نفس المحارب ولا غيره، وإنما التغليظ بما يُفعل به حين يتقدّم الصّلب القتل[3]. في حين يرى الشافعية أنّ الصلب يأتي بعد القتل، وحجتهم كراهية تعذيب المحارب حيا. إضافة إلى أنّ الغرض من صلبه بعد قتله هو التنكيل به وزجر غيره[4].

أما فيما يخص مُدَة الصَلب فقال بعض المالكية يُصلب ويُقتل ويُنزل تلك الساعة ويدفع إلى وليه يدفنه ويصلي عليه، ويرى البعض الآخر لا يمكن منه أهله ولا غيرهم حتى تفنى الخشبة وتأكل منه الكلاب فهو إنما صُلب ليُشيع أمره ويبقى معنى الازدجار به، وذلك ينافي إنزاله. أما الحنفية والشافعية فيتفقون على أنّ مدة الصلب هي ثلاثة أيام لا غير، ثم يتركوا حتى لا يتغيروا فيتضرر بهم الناس، في حين يرى الحنابلة أنّ الصلب لا يقدر بمدة ولا توقيت فيه إلاّ قدر ما يشتهر أمرهم، لأنّ المقصود من الصلب هو إشهار أمر المصلوب[5]. ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الشأن ما حدث لجثة والي سجلماسة عبد الملك العبد الواد حيث صُلب على أسوار سجلماسة[6]. ولم تفدنا المصادر بالمصير النهائي لهذه الجثة بعد صلبها هل تُركت حتى تعفنت وتحللت أم أنها رُميت للكلاب تفترسها كما جرت العادة.

4- وصايا متعلقة بالحرب قبل الموت

كثرت الأطماع الخارجية في الاستيلاء على أقاليم الدولة الزيانية، ولهذا السبب نشبت العديد من الحروب بين سلاطين بني زيان ونظرائهم من بني مرين وبني حفص؛ فقاست البلاد كثيرا من جراء هذه المنازعات فأضحت حدودها سواءً من الشرق أو الغرب بين مد وجزر، وهذا ما أرّق سلاطين بني زيان

---

[1]- الطبابي، المرجع السابق، 188/1.

[2]- سورة طه آية 71.

[3]- عبد القادر، عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، 656/2. نقلا عن حميد الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، ص287.

[4]- حميد الحداد، السلطة والعنف، ص287.

[5]- المرجع نفسه، ص 296-297.

[6]- مجهول، الذخيرة السنية، ص178-179.

حتى جعلوها من الوصايا لخلفائهم من بعدهم بما يضمن لهم استمرار ملكهم والمحافظة عليه من الغزو الخارجي وعدم الدخول في حروب غير مضمونة العواقب، وفي هذا الصدد أشير إلى وصيتين أوصى بهما السلطان يغمراسن الزياني ولي عهده عثمان في كيفية التعامل مع عدوهم المريني.

تتعلق الوصية الأولى بتجنب الاصطدام مع الجيوش المرينية في الصحراء، وإذا اقتضى الأمر وقاموا بالهجوم فعليه بأن يتحصّن بأسوار تلمسان وجدرانها[1] وهو ما يمكن أن نسميه بالسياسة الدفاعية ضد بني مرين[2]؛ أما الثانية فهي عدم الخوض في حروب ومنازعات ضدّهم والاكتفاء بالجبهة الشرقية فقط، وقد نقل لنا ابن خلدون على لسان شيخه الآبلي ذلك في قوله: "سمعت من السلطان أبي حمو موسى بن عثمان وكان قهرمانا بداره قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان – ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم– فقال له: يا بني، إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها. فإياك واعتماد لقائهم وعليك بالياذ بالجدران متى دلفوا إليك وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك وتكافئ حشد العدو بحشدك. ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك"[3]. ومن خلال هذا التصرف نكتشف دهاء هذا السلطان الذي استشعر قوة الطرف المريني في الحروب من خلال تجربته معهم وإدراكه لرغبتهم الملحة على احتلال كافة المغرب الأوسط وضمه إلى ممتلكاتهم.

5– مقابلة العنف بعنف مضاد

إنّ ما يسترعي الانتباه حول ما تم الوصول إليه في موضع القتل هو كثرة الاغتيالات التي لحقت بسلاطين بني زيان وهو ما تكررت كثيرا خاصة على يد ملوك بني مرين، وهذه الظاهرة لها أكثر من دلالة وتستحق أكثر من وقفة. وهنا سأحاول الإجابة على الإشكالية السابقة حول **ما إذا قابل سلاطين بني زيان هذا العنف بعنف مضاد**.

من خلال بعض الشواهد التي تم رصدها من مصادر المرحلة فإني لا أجافي الحقيقة إذا قلت بأنّ أمراء بني زيان انتهجوا سياسة رد الثأر فقابلوا ذلك العنف بعنف مضاد، ونذكر في هذا الصدد ما حدث

---

[1]– ابن خلدون، العبر، 254/7.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 150/2.

[3]– المصدر نفسه، 108/7-109.

في وقائع الحرب التي انتصر فيها السلطان أبو ثابت الزياني على أبي الحسن المريني، والتي أدت إلى مقتل أخيه وعناصر من بطانة أبيه وذلك في شعبان من سنة 751هـ/1350م؛ وصف لنا يحي بن خلدون ذلك في قوله: "واستحرّ القتل في خواصّه، كولده الناصر ومحمد بن العزفي قائد أسطوله، وبركات بن حسُّون بن البوّاق صاحب أشغاله وعليّ بن القبائليّ، كاتب أسراره وعلامته. واستخلص ما كان من له من مالٍ وبناتٍ وحرمٍ"[1].

ومن الأمثلة أيضا ما حدث في عهد أبي حمو موسى الثاني في حربه ضدّ السلطان السعيد بن أبي عنان سنة 760هـ/1358م بظاهر وجدة، حيث مني فيها الجيش المريني بالهزيمة وقُتل فيها القائد عامر بن ابراهيم بن ماساي واحتُزَّ رأسه وأخذوه إلى السلطان أبي حمو[2]، وكانت هذه الحادثة سببا في اضطراب جيش بني مرين ومسعود بن رحو[3].

ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ أمراء بني زيان مارسوا سياسة العنف في حروبهم الداخلية ضدّ القبائل المتمردة وزعمائها، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث لمحمد بن يوسف الذي تغلب على جبل وانشريس وأطاعته مغراوة وذلك سنة 719هـ/1319م[4]، فبعد أن هاجم عليه جيش أبي تاشفين الأول فقُبض عليه وجيء به أسيرا إلى السلطان أبي تاشفين الذي عنّفه حسبما يذكر ابن خلدون في قوله: "فوخزه برمحه. وتناوله الموالي برماحهم فأقصعوه وحمل رأسه على القناة إلى تلمسان، فنُصب بشرفات البلد"[5]، وكذلك ما حدث في حركة السلطان أبي حمو الثاني لاسترجاع مدينة المدية التي سيطر عليها بني مرين، وقبل وصوله إليها استقر بمليانة وبعث بجيشه إليها فهرب بنو مرين منها وقبضوا على منصور بن الخلوف الياباني بمتّيجة في 20 ذي القعدة سنة 761هـ/1359م "فقُتل في عدد من حزبه وحُزّ رأسه، وبُعث به إلى الحضرة"[6]، ونضيف إلى ما سبق ما حدث أثناء فتنة أبي زيان القبي وهو ابن عم السلطان أبي حمو؛ ففي خضم إحدى

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 261/1-262.

[2]- في هذه الأثناء كان السلطان أبو حمو بتاملحت، وعندما لحقه هذا الخبر أسرع إلى حاضرته ليُعَايِنَ ذلك بنفسه. انظر ابن خلدون، بغية الرواد، 48/2.

[3]- مسعود بن رحو وصفه صاحب البغية بأنه رئيس بني مرين وربما يقصد بأنه القائد الأعلى للجيش، وهو الذي عين عامر بن ابراهيم الذي قُتل قائدا على الجيش في هذه الحرب وهو ابن عمه. المصدر نفسه، 48/2.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 239/1.

[5]- ابن خلدون، العبر، 126/7.

[6]- ابن خلدون، بغية الرواد، 75/2.

المواجهات التي تكررت بينهما تم القضاء على أحمد بن رحو وهو شيخ قبيلة أولاد حسين الذي كان من شيعة أبي زيان، حيث قتله أتباع أبي حمو وقُطع رأسه في الحين ثم رموه وذلك في سنة 765هـ/1363م[1].

قُصارى القول إنّ طبقة السلاطين على الرغم من تربعها قمة الهرم الاجتماعي والسياسي لم تسلم من عمليات الاغتيال والتصفية الجسدية والتي كانت مأساوية على أيدي خصومها بداية من الربع الثاني من القرن الثامن الهجري إلى غاية سقوط الدولة الزيانية، وفيما يخص الأدوات التي استعملت فقد كان السيف أهمها بالإضافة إلى الرمح، كما أنّ التصفية الجسدية غالبا ما تبعها التمثيل بالجثة كقطع الرأس والطواف به على الرماح، وأحيانا أخرى بضرب العنق مع التصليب بالإضافة إلى العبث بالجثث ثم رميها في البحر أو المزابل، ومما تمكنت من استنتاجه مما سبق هو أنّ النزعة الذاتية طغت على كتابات مؤرخي العهد الزياني ونخص بالذكر يحي بن خلدون في بغية الرواد والتنسي في نظم الدر والعقيان؛ حيث امتنعوا عن ذكر الأساليب العنيفة التي تم بها اغتيال سلاطين بني زيان؛ والذي يعتبر نوع من التستر على سلاطينهم وعدم إظهارهم في مظهر الضعف والانتكاس.

جدول يبين بالكم أنواع مظاهر العنف الذي لحق بالنخبة السياسية خلال الحروب التي شهدها العهد الزياني

	الذبح	الخنق	قصعا بالرماح	القتل بأساليب مجهولة	الصلب والمثلة	الرمي في البحر	السجن	النفي والفرار	
السلاطين	2	1	1	3	1	1	3	4	
أولاد السلطان – ولي العهد–		7		3		7	1		
الولاة				1	1				
الوزراء وقادة الجند			1	2	1		5		
المجموع	2	8	2	9	3	8	9	4	45

[1]- المصدر نفسه، 141/2.

ثالثا: الموت الجماعي، مساواة أمام الموت

يقول أحد الباحثين[1] أنّ هناك مظهر لا يمكن إغفاله في كل الحروب لدرجة أنه يمكن أن نرى فيه جوهر الظاهرة ذاته، إنه القتل الجماعي. وبما أنّ لكل الحروب تداعيات ديمغرافية آنية وأخرى بعيدة المدى لأنها تزيد من عدد الوفيات بصورة فجئية، وفيما يخص تاريخ المغرب الأوسط نشير بأنّ هناك عوامل أخرى ساهمت في الموت الجماعي كالمجاعات والأوبئة والطواعين لكن وحسبما تقتضيه طبيعة الموضوع فإنني سأركز على مسؤولية الحروب والحصارات كمصدرين من مصادر الموت الجماعي في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط.

وتعرضت كافة الفئات الاجتماعية في العهد الزياني إلى خطر الموت خاصة بعدما تظافر فيها عاملان وهما الحرب والحصار، لكن مع ذلك هناك فئات أكثر عرضة للموت مقارنة بفئات أخرى كالجند والفئات المستضعفة الأخرى مثل الأطفال والنساء والشيوخ والعبيد وغيرهم؛ كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الحروب كانت متفاوتة الإماتة.

1- الجند

الجند أكثر عرضة للموت مقارنة بالفئات الأخرى نظرا لتعرضهم المباشر للقتل في ميدان المعركة؛ فكما يُقال أنّ الرجال هم حطب الحروب؛ وإن كانت النصوص الخاصة بالفترة محل الدراسة لم تسعفنا بأرقام إلاّ في حالات قليلة لعدد الضحايا من هؤلاء في الحرب مقارنة بكثرة الحروب التي تحدثت عنها هذه المصادر. **فإلى ماذا يُعزى ذلك خاصة وأنّ هناك من الكُتاب من كان قريبا من الحدث؟**

ومن النصوص الدالة على دور الحرب في إفناء هذه الفئة نتائج معركة وادي تلاغ 666هـ/1268م التي أفضت إلى انهزام الجيش العبد الوادي وسقوط الكثير منهم قتلى يصف لنا صاحب الذخيرة ذلك في قوله: "وزحف الجيش إلى الجيش وقصد القرين إلى القرين فكانت بينهما حروب عظيمة لم ير مثلها فلا ترى إلا الخيول ترمح وبفرسانها إلى اللقاء تطمح، والسيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام تقطع وتقطف"[2]، وفي ذات المعركة يضيف ابن الأحمر قائلا: "وقُتِل فيها من بني عبد الوادي جماعة من خيارهم وأنجادهم"[3].

---

[1]- الطبابي: الموت في مصر والشام، ص185.

[2] - مجهول، الذّخيرة السنية، ص148.

[3]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص66.

ويبدو أنّ نتائج معركة وادي ايسلي سنة 670هـ/1271م كانت كارثية بمقارنتها بالحروب الأخرى؛ فقد أفضت هي الأخرى إلى قتل الكثير من جند يغمراسن وذلك حسبما أكدت عليه العديد من المصادر إذ "قُتل من بني عبد الواد وبني راشد خلق كثير وقتل جميع من كان بمحلته من الروم"[1]، و"استباحوا من كان بها من العسكر"[2]، و"قتلت جنوده"[3]؛ أما في هزيمة يغمراسن في خرزوزة سنة 680هـ/1281م فقد "قُتلت جنوده"[4] حسبما يذكر صاحب الأنيس المطرب.

ويبدو أنّ فئة الروم التي ضمن الجيش أُبِيدُوا عن بكرة أبيهم وذلك ما لاحظناه من منطوق خطاب النصوص الواردة على نحو: "وهلك عامة عسكر الروم لثباتهم بثبات السلطان، فطحنتهم رُحى الحرب..."[5]، وفي إحصائية لعدد القتلى من الجند الروم الذين كانوا ضمن جيش السلطان يغمراسن ذكرت بعض النصوص: "وعاث القتل فيهم، فقُتِل نحو خمسمائة من الروم الذين كانوا خدامه"[6]، وقتل "جميع من كان معه في عسكره من الروم، فلم يفلت منهم أحد، وكانوا ما يزيد على خمسمئة فارس، فاستأصلوهم عن آخرهم"[7].

ومما يُضاف في هذا الشأن ما حدث عند سقوط تلمسان على يد أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1337م حيث "قتل جميع من كان فيها من المحاربين"[8]، ويضيف ابن خلدون في هذا الصدد قائلا: " تهاوت أليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشف عسكر البلد ورجعوا القهقري، ثمّ ولو الإدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد. واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه؛ فكان الهالك يومئذ بالروم أكثر من الهالك بالقتل"[9].

إنّ هذه الوفيات المتتالية ضمن الجند كانت تتسبب في العديد من المشاكل البالغة الخطورة، فالسلاطين مجبرون على إدخال عناصر أجنبية وضمها إلى الجيش من أجل تعويض هذا النقص خاصة وأن

---

[1]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص310.

[2]- ابن خلدون، العبر، 358/7.

[3]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص337.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص441.

[5]- ابن خلدون، العبر، 218/7.

[6]- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص67.

[7]- مجهول، الذخيرة السنية، ص131.

[8]- مارمول، إفريقيا، 303/2.

[9]- ابن خلدون، العبر، 131/7.

الدولة في استعداد مستمر لخوض الحروب لأنها لا تخرج من حرب حتى تدخل في حرب أخرى؛ وهذه الإجراءات مكلفة من الناحيتين المالية والعسكرية، فذلك يتطلب موارد مالية كبيرة من أجل استقدام هذه العناصر الأجنبية ثم تدريبها وإعدادها للحياة العسكرية.

2- العامة

إنّ الدراسات السوسيولوجية للمجتمعات الإسلامية تبدو شبه مستحيلة أو بعيدة المنال[1] والسبب أنّ أغلب المصادر تحتقر ما يدعى بالعامة واصفة إياها بالدهماء والغوغاء والأوباش والرعاع وقطاع الطرق والفساق والزعار والمفسدين وكل هؤلاء يشكلون قطاعات واسعة مما ندعوه اليوم بالجماهير الشعبية أو الشعب[2]. فالخطاب السياسي السلطاني موجه للحاكم في علاقته بالمحكوم، ولا تهتم بهذا الأخير إلاّ من زاوية خضوعه للأول[3].

ومما يتضح أنّ أمراء الدولة الزيانية هم كذلك نظروا إلى هذه الطبقة نظرة استفراضية على الرغم من أنها تشكل النسبة الكبيرة من أفراد المجتمع[4]؛ فهذا أبو حمو موسى الثاني نجده هو الآخر استأثرت بيروقراطية الدولة في حديثه، فلم ينل سائر الناس منه سوى النزر اليسير، إذ لم يتوقف إلاّ قليلا عند العامة والدهماء لا لشيء إلاّ بسوء ظنه في عقولهم وأغراضهم وطبائعهم[5] يُفهم ذلك في قوله: " وإما العامة والدهماء فتقبل بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها وتجربهم على ما يعودوا من السير الحميدة والموالاة المجيدة ثم لا تتركهم لأغراضهم الدفاعية وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة، فإنّ العامة مجبولة على الفساد وعلى اتباع الأهواء وقلة السداد، لأنّ العامة الغالب عليها الشرار والهرج والاضطرار"[6].

والمتأمل في كتابه واسطة السلوك يلاحظ أنّ أبا حمو لا يعنيه من الرعية –في النظرية كما في الواقع– غير الأشخاص الذين يؤثّرون في تسيير مقدرات الملك، والذين للملك علاقة مباشرة بهم، كما أنه

---

[1]– سعيد، الزكراكي: "ظاهرة العنف من منظور سوسيولوجي"، مجلة المنطلق الجديد، ع6، شتاء-ربيع 2003، ص 107-134. نقلا عن حميد الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، ص231.

[2]– عز الدين، علام: ملاحظات حول الرعية في الأدب السياسي السلطاني، مجلة الاجتهاد، ع22، 1994، ص17. نقلا عن حميد الحداد، السّلطة والعنف في الغرب الإسلامي، ص231.

[3]– حميد الحداد، المرجع نفسه، ص231.

[4]– مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، 102/3.

[5]– وداد القاضي، النظرية السياسية للسلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني، ص178.

[6]– أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص152.

لا يتحدث عن كل فئة من فئات الرعية (الوزراء- - الجلساء- الكتاب- الفقهاء- القضاة- الأعوان-قادة الجيش)[1] إلاّ من زاوية صلتها هي بالملك، ولذلك خلا كتابه من أي إشارات لفئات الرعية عن كيفية التصرف مع الملك، مما يؤكد على أنّ العامة في مفهوم أبي حمو هي فلك يدور حول الملك، وأنّ الاهتمام بها متأت من صلتها بالملك حتى لكأنّ وجودها نفسه متوقف على وجود الملك[2].

إنّ من أهم مظاهر الحرب حدوث خلل في الديموغرافية السكانية لمنطقة أو إقليم أو مدينة[3]، لأنّ الحرب لا تستثني فئة دون أخرى؛ وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ كثرة الموتان له عدة أسباب منها: "كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثرُ الهَرَجُ والقتْلُ"[4]، فنلاحظ ما عقب سقوط تلمسان على يد السلطان أبي الحسن المريني سنة737هـ/1336م من حوادث أليمة مست مختلف الشرائح الاجتماعية؛ فكما نوهت سابقا إلى سقوط الضحايا من النخبة السياسية مثل ما حدث مع السلطان أبي تاشفين الأول وأولاده ووزيره، زد على ذلك فئة الجند، ثم يأتي دور العامة التي لم تسلم هي الأخرى من الموت العنيف جراء هذا الغزو؛ حيث تسبب في وقوع أعداد كبيرة من الضحايا بالمقارنة مع الحروب الأخرى؛ وجاء وصف المصادر لذلك كما يلي: و"تحدث الناس في جميع الأقطار بكثرة القتلى في هذه الهزيمة..."[5]. و"تراكموا بعضٌ على بعض، فهلك منهم عوالم"[6].

ومما تجدر الإشارة إليه من خلال ما سبق ذكره أنّ هذا السلطان كان عنيفا سفاحا متعطشا للدماء مما يبين أنه شخصية مريضة، ويصف لنا فرويد التعطش إلى الدم بهذه العبارة "إنه جنون القتل لمن غلبت عليه طبيعته الحيوانية، يبحث بفضله عن التعالي على الحياة... فيتخلص من وطأة إعمال عقله، وينتهي به الأمر إلى أن تصبح إراقة الدم جوهر الحياة. ويعني له هذا النوع من الحياة الشعور بأنه حيّ، قويّ، مختلف عن الآخرين وأعلى منهم مكانة، فيصبح القتل لديه وسيلة لتأكيد الذات..."[7].

---

[1]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص92 وما بعدها.

[2]- وداد القاضي، المرجع السابق، ص178-179.

[3]- جميل السيار، المرجع السابق، ص24.

[4]- ابن خلدون، المقدمة، ص321.

[5]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص113.

[6]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص98.

[7]- عمار عبد الرزاق، السلطة والعنف والجنس، ص60.

ونؤكد بهذين البيتين الشعريين على عنفه ذلك أوردهما لنا صاحب روضة النسرين حيث يفتخر السلطان أبو الحسن بنفسه قائلا[1]:

أرضى الله في سري وجهـــري *** وأحمى العرض من دنس ارتياب

وأعطى الوفر من مالي اختيارا *** وأضرب بالسيوف على الرقاب

ومما يثبت عنف هذا السلطان أيضا كشخص تفنّن في التقتيل وأنه كان يبتهج لاستنشاق رائحة الدم إذ لم ينج من سيفه هذا حتى المقربين إليه؛ منهم أخوه أبو علي الذي كان على سجلماسة فقد عمد إلى قتله سنة 737هـ/1336م حينما تقبض عليه فلما مثل بين يديه أمر أبو الحسن بتثقيفه بقتله وصف لنا صاحب الاستقصا ذلك في قوله "فلما مثل بين يديه تضرّع إليه وقَبَّلَ حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل إلى فاس وانكفأ راجعا إلى الحضرة فاس فلما دخلها اعتقل أخاه ... ثم قتله فصدا وخنقا"[2]؛ ناهيك عن الأطراف الأخرى التي حاولت التمرد عليه مثلما حدث مع رجل يدعى ابن هيدور الذي ادعى أنه ابن السلطان أبي الحسن نظرا للشبه الذي كان بينه وبين ابنه عبد الرحمان الذي كان في سجن أبيه[3]، فاغتنم ابن هيدور هذا الفرصة وذهب إلى قبائل بني عامر من زغبة فبايعوه، ولما شاع خبره عند السلطان أوعز إلى أبي يعقوب بن علي بالقبض عليه، فظفر به هذا الأخير "فأشخصه إلى السلطان ... فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف"[4].

ومما يمكن الاستشهاد به أيضا حول تعرض سكان الأرياف في المغرب الأوسط خلال الحروب والغارت الداخلية إلى القتل الجماعي إحدى النوازل جاء في مضمونها "عن محاربين أتوا إلى أخذ أموال قوم وضرب رقابهم..."[5]. الفعل الذي سيؤدي حتما إلى رفع نسبة القتلى منهم رغم أنّ أحكام الشّرع تنافي هذا الفعل تماما وتحرمه بمقتضى نصوص دينية ثابتة لا جدال فيها؛ فقد وردت نصوص عديدة تنهى عن قتل

---

[1]- ابن الأحمر، روضة النسرين، ص26. القصيدة من البحر البسيط.

[2]- الناصري، الاستقصا، 120/4.

[3]- شهاب الدين أحمد، بن فضل الله بن يحي العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2010، ص114. وسام صدوق وعصام ابن طالب، الاغتيال السياسي في مغرب العصر الوسيط من خلال كتب الحوليات التاريخية، ص13.

[4]- ابن خلدون، العبر، 308/7.

[5]- المازوني، نوازل مازونة، ق47و.

النساء والصبيان[1] والعُسفاء[2] والشيوخ[3] والزمنى[4].

لكن وحسب ما توفر بين أيدينا من نصوص حول الفئات المستضعفة جاء على ذكر الموتى بصفة عامة باستثناء البعض منها التي ركّزت على المرأة والطفل وأكدت على مدى تعرضهم للقتل، وسنبين ذلك من خلال بعض النصوص.

أ- النساء والأطفال

يُمنع قتل النساء والأطفال وذلك أنّ الأصل في النساء والأطفال أنهم ليسوا من أهل الحرب والقتال،[5] فلا يجوز قتلهم ولا الاعتداء عليهم مصداقا لقوله تعالى: "**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا**"[6]، وعن ابن عمر –رضي الله عنهما- "وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان"[1].

---

[1]- قد أشرت سابقا إلى النهي عن قتل النساء والولدان في الحرب بالاستدلال ببعض النصوص الواردة في القرآن والسنة وذلك في حالة إذا لم يقاتلوا. أمّا إذا قاتلوا فقد قال جمهور العلماء يقتلون؛ فالمرأة إذا حملت السلاح في ساحة القتال وباشرت الحرب فشأنها في الغالب شأن الرجال فَتُقتل، كما جاء في أحكام القرآن أنّ جواز قتل النساء إذا قاتلن على الإطلاق في حالة المقاتلة وبعدها. الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي، ط1، بيروت: دار المعرفة، 2002، باب ما جاء في النهي عن قتل النساء، ص66. البخاري، صحيح البخاري، 147/4. ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص149. الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: سمير مصطفى رباب،ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 2000، ص57.

[2]- وهم الأجراء والفلاحون وقد قال مالك في كتاب محمد "لا يُقتلون" وفي وصية لأبي بكر الصديق رضي وهو صاحب العاهة ومسألة قتلهم فيها اختلاف فسحنون أفتى "بجواز قتلهم " وابن حبيب قال: "لا يُقتلون"، أما ابن عربي فقد قال: "الصحيح عندي أن تُعبر أحوالهم فإذا كان فيهم إذاية قُتلوا، وإلاّ تُركوا وما هم بسبيله من الزمانة، وصاروا مالا على حالهم". وقال عمر بن الخطاب "اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب". ابن العربي، أحكام القرآن، ص149-150. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص57.

[3]- يقول مالك في كتاب محمد "لا يُقتلون". قال علماؤنا: لا يُقتلون ولا يُسترقون؛ بل يُترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان : "وستجد أقواما حبسوا أنفسهم فَذَرهم وما حبسوا أنفسهم له، فإن كانوا مع الكفّار في الكنائس قُتلوا". ابن العربي، المصدر السابق، ص149-150.

[4]- وهو صاحب العاهة ومسألة قتلهم فيها اختلاف فسحنون أفتى "بجواز قتلهم " وابن حبيب قال: "لا يُقتلون"، أما ابن عربي فقد قال: "الصحيح عندي أن تُعبر أحوالهم فإذا كان فيهم إذاية قُتلوا، وإلاّ تُركوا وما هم بسبيله من الزمانة، وصاروا مالا على حالهم". ابن العربي، المصدر السابق، 149/1.

[5]- الماوردي، المصدر السابق، ص57.

[6]- سورة البقرة آية 189. قال ابن جرير الطبري في "تفسيره": "وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه هو نهيه عن قتل

لكن حروب المرينيين والحفصيين أباحت ذلك إذ لم تستثن أحدا وقد تأكد لنا ذلك على ضوء بعض نصوص المرحلة محل الدراسة؛ ففي خضم إحدى المواجهات ضدّ بني مرين انتهت كالعادة بأعمال العنف حيث "انتهبت مرين جميع محلته وأمواله ومضاربه وعياله"؛[2] أضف إلى ذلك واقعا آخر يهدد أمنه مثل ما حدث عندما هاجم الجيش الحفصي مدينة تلمسان سنة 640هـ/1243م والتي أدت لا محالة إلى "قتل النساء والصبيان واكتساح الأموال[3]. الفعل الذي سيؤدي حتما إلى رفع نسبة القتلى منهم.

واقع يلفت انتباهنا عند قراءة هذه النصوص وهو اقتران الطفل بِأُمِّه فالأطفال عموما يرافقون الأم أينما كانت، وهو الأمر الذي يعمم هذه الظاهرة على الإثنين، ويجعلهما عرضة للعواقب الوخيمة لهذه الآفة، وقتلهم يُعتبر ظلما وعدوانا خاصة الأطفال نظرا لسنهم الصغير، وهذا ما يُؤكد لنا ابتعاد حكام المغرب الإسلامي عن نصوص الشريعة الإسلامية وما تَنُصُّه في هذا المجال من حقوق المرأة والطفل في الحياة كما أشرت أعلاه.

3- مصائر القتلى

أفاضت المصادر التاريخية في وصف الوقائع الحربية ومشاهد الموت والدمار الذي يصيب الإنسان، فتبدو من خلال هذا الوصف ساحات المعارك والمدن المستباحة قبرا مفتوحا تغطي أرجاءها الجثث المتناثرة فوق بعضها البعض[4]؛ مثلما حدث في حرب السلطان أبي الحسن على تلمسان سنة 737هـ/1336م "حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم وتواقعوا فتواطؤوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين، حتى ضاق

النّساء، والذراري" والذراري هم الأبناء؛ والنصوص كثيرة.

[1]- صحيح البخاري، ص556-557. ينطبق على الأطفال مبدئيا كل ما ينطبق على النساء، بل إنّ لهم وضع أفضل من حيث إنّ سنّهم لا يسمح لهم غالبا بأي مشاركة في القتال. وبالإضافة إلى الحديث المعروف "لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع" (رواه أبو داوود، 36/2). هناك أحاديث أخرى تؤكد على وجوب احترام الأطفال حتّى في الحرب فقد حدث في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أن جارى بعض المسلمين أعداءهم فقتلوا نفرا من الأطفال ، فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمر قال غاضبا ومؤنبا: "ما بال أقوامٍ جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟ ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية".

[2]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 305-310.

[3]- الونشريسي، المعيار المعرب، ج435/2-436. ابن خلدون، العبر، 95/7.

[4]- الطبابي، الموت في مصر والشام، 188/1.

المذهب بين السقف ومسلك الباب"[1].مما يدل على أنّ الجثث تعرضت للإهانة والإذلال وبقيت في العراء دون دفن ولا حتى في مقابر جماعية، مما يؤدي إلى انتفاخها وتحللها فتصبح مصدرا للروائح الكريهة.

بعض النصوص تبين دور الحروب والحصار في التراجع الديموغرافي

النص	الحدث والسنة	المصدر والصفحة
"وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان".	639هـ/1241م هجوم السلطان أبو زكريا الحفصي على تلمسان	العبر، 95/7
"انجلت عن مهلك فارس بن يغمراسن، وجماعة من بني عبد الواد".	670هـ/1271م معركة واد ايسلي	العبر، 217/7
"وقتل من بني عبد الواد وبني راشد خلق كثير"	670هـ/1271م	الأنيس المطرب، ص405
"فقُتل هو ومن معه بها من بني عبد الواد وعرب المنبات"	صراع على سلجماسة بين الزيانيينوالمرينيين سنة 673هـ/1274م	
"فهزمه وأحجزه بتلمسان ونزل بساحته، وقتل خلقا من أهلها".	696هـ/1296م	العبر، 260/7
"وقتل جماعة من بني عبد الواد بأرعارنبامكا"	704هـ/1304م	العبر، 273/7
"فبلغ فيها عدد الموتى أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة وعشرين ألف نسمة"	الحصار الطويل (698-707هـ/1298-	التنسي، ص132 البغية، 124/1-152

[1]- ابن خلدون، العبر، 131/7.

	1307م)	
بعد أن كان بنو عبد الواد أشرفوا على الهلاك، وأذنوا بالانقراض.	الحصار الطويل	العبر، 262/7
"مرّ بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم فتحها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها"	اقتحام أبي الحسن لندرومة سنة 735هـ/1334م	الإستقصا، ص124
"ظهر من أهل تلمسان من المشاقة والممانعة ما أتى على إتلاف كثير من الأنفس"	737هـ/1336م سقوط تلمسان على يد السلطان أبي الحسن المريني	المسند الصحيح، ص202
"واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلا"	هجوم أبي عنان سنة 753هـ/1352م	الاستقصا، 183/3
"لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى أنها فقدت ثلثي أهلها في وقتنا الحاضر".	انتهاكات الأعراب لأهالي مستغانم (القرن 10هـ/16م)	وصف إفريقيا، 32/2

إنّ المتأمل في هذا الجدول الذي يبين ما سببته الحروب المرينية والحفصية على المجتمع الزياني ابتداء من هجوم أبي زكريا الحفصي سنة 639هـ/1241م حينما كانت الدولة العبد وادية ماتزال فتية، وما تبعه من سلسلة الهجمات والحصارات التي نفذها السلطان يعقوب المريني والتي انتهت بأطول حصار في تاريخ المغرب الإسلامي والذي تسبب في إزهاق الكثير من الأنفس، فضلا عما شهده القرنان الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين من كثرة الحروب ذات العواقب الوخيمة على المجتمع إذ تسببت في إبادة الكثير منهم.

وما يميز هذه النصوص كما ذكرت سابقا هو غياب الأرقام نهائيا حيث لم يحاول المؤرخون لهذه الحروب إمدادنا ولو بأرقام تقريبية؛ باستثناء الإحصائية الخاصة بالحصار الطويل المشكوك في مصداقيتها حسبما ذكرت أعلاه؛ ومن خلال عملية مقارنة بين عدد النصوص التي جاءت على ذكر الاستنزاف الديموغرافي الذي خلفته هذه الحروب نلاحظ أكثرها كان من الطرف المريني، وأعنفه ما حدث بعد سقوط تلمسان على يد السلطان أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1336م نظرا لكثرة النصوص التي سجلها ابن خلدون وابن مرزوق حول نتائج الواقعة.

وبعد العرض السابق خلصنا إلى ما يلي:

من أهم النتائج المتوصل إليها هي أنّ الأسباب السياسية كانت الدافع الجوهري للسلوك العنيف والمؤسس الذي تبناه أعداء بني زيان، إذ بالإمكان التمييز بين نوعين من أشكال العنف وهما: العنف الفردي والذي مورس على بعض الشخصيات سواءً السياسية أو الفكرية والعنف الجماعي وهو الذي مورس على الجماعات كالجند والعامة، كما أنَّ كل الممارسات والانتهاكات غير الأخلاقية التي ذكرتها آنفا تبين لنا خصوصية الدولة المرينية التي تتميز بطابع العنف؛ من خلال انتهاجهم سياسة الاغتيال ضدّ أعدائهم من أجل إنجاح مشروعهم السياسي المتمثل في زعامة زناتة، وتوحيد كافة المغرب الإسلامي تحت رايتها شأنها في ذلك شأن الدولة الموحدية التي انتهجت العنف هي الأخرى في سبيل إقرار ذلك[1].

معظم سلاطين بني مرين مجمع على ممارسة العنف ضدّ المجتمع الزياني؛ فمن خلال ما أشرت إليه من نصوص من شأنه أن يكشف لنا عن عنف سياسي مؤسس من طرفهم ترجمته أعمال الذبح والخنق والقصع والتلاعب بالجثث ورميها في العراء تفترسها الحيوانات أو في الأنهار لتختفي نهائيا وحرمان الجثث من الدفن الذي يعتبر من أقصى العقوبات التي يمكن أن يتعرّض لها الأموات.

مما يمكن استخلاصه أيضا أنّ تداعيات الحروب التي خاضتها الدولة الزيانية سواء على الجبهة الخارجية أو الداخلية والتي مست جميع الفئات لم تقتصر على حواضر ومدن المغرب الأوسط فقط وإنما شملت بواديه أيضا؛ وكذلك الأمر بالنسبة للفئات المستضعفة، إذ لم تقتصر على المرأة والطفل فحسب، وإنما شملت شريحة عريضة من أفراد المجتمع منها الشيخ والمريض والمعاق وغيرهم ممن طالتهم لعنة الحرب وأدت إلى استنزافهم ولكن النصوص على اختلافها تجاوزت ذكرهم.

[1]- الحداد، المرجع السابق، ص 223-267.

توصلت أيضا من خلال ما سبق إلى أنّ النتائج الديموغرافية للحروب والحصارات التي شهدها العهد الزياني فظيعة وخطيرة للغاية لأنّ عدد الهلكى كبير ولا سيما إذا كان من الأطفال والشّباب، وهو الأمر الذي يؤدي إلى حدوث ركود أو تراجع في الخصوبة والإنجاب ومن ثم النّمو السكاني[1]، مما يؤدي إلى خلق شلل في القطاع العسكري بعدم إمكانية إمداده بالمقاتلين، كما أنّ هذا الركود من شأنه كذلك تعطيل القطاعات الاقتصادية الأخرى كالزراعة والصناعة والتجارة حيث يعتبر البعض أنّ النمو السكاني هو الأُمّ بالنّسبة للتّقدّم الزّراعي، الذي هو متطلّب طبيعي للتقدّم التّجاري والصّناعي[2].

[1]- أستيتو، الفقر والفقراء، ص73.

[2]- يوسف، درويش غوانمة: "الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي"، مجلة دراسات تاريخية، عدد مزدوج، 13-14، دمشق، أكتوبر، 1983، ص73.

المبحث الثالث: تداعيات الحرب على المستوى النفسي

أولا: الواقع النفسي زمن الحرب والحصار

تعد الحرب من أقسى الصدمات التي يتلقاها الفرد والجماعة، وادخل اضطرابا على مجرى الحياة العادي، إذ يصبح الإنسان في وضع عصيب ينكسر فيه الإيقاع الرتيب للحياة اليومية وينتج عنه وضع سلوكي ونفسي جديد ربما دامت مخلفاته وآثاره بعد انتهاء الحرب لمدة تطول أو تقصر، تحتفظ الذاكرة الجماعية طيلة أجيال ذكرى أهوال وفضائع الحرب[1]؛ وبما أنّ المغرب الأوسط في العهد الزياني شهد عشرات الحروب فقد كان لها وقع شديد على الأهالي؛ فأضحت هاجسا يؤرق راحته نظرا لتعرضه المباشر أو غير المباشر لأعمال القتل والسبي والتهجير ومختلف أشكال العنف الأخرى مما يمكن أن يسبب لهم اضطرابات نفسية[2]، والمتمثلة في الخوف والقلق والانفعال والفشل والإحباط والتوتر وغيرها

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى تأثير أعمال العنف والاضطهاد في شخصية الإنسان عامة فقال: "إذ تكسر من سورة البأس، وتذهب عنه المنعة لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة"[3]. أما باركلاي مارتن وهو أحد المتخصصين في علم النفس فيقول في هذا الصدد ب "أنّ الخوف يقود إلى القلق وهناك فرق بين الخوف وهو ما له سبب أو مثير، والقلق الذي هو حالة داخلية قد لا يعرف له سبب" ويضيف أنّ "المعارك أو الحروب قد يصاحبها عند بعض الأفراد حالة من الفزع أو الخوف الشديد والهلع..."[4].

---

[1]- بلقاسم الطبابي، المرجع السابق، 181/1.

[2]- وتعرف كذلك بالصدمة النفسية "**Trauma**" وهي حالة من الضغط النفسي ذي المصدر الخارجي تتجاوز قدرة الإنسان على التحمل والعودة إلى حالة التوازن الدائم بعدها.

(**Furman, E (1986):On trauma :When is the death of a parent traumatic ? PsychoanalyticStudy of the child :p41**).

وفي عام 1980 أدخلت جمعية الطب النفسي الأمريكية (**A P A**) عبارة **post-Traumatic Stress-Dysorder** (**PTSD**) أي "اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة" ولم تكن هذه العبارة مستخدمة قبل عام 1980، إذ كان العلماء يستعملون قبل هذا التاريخ بعض العبارات الخاصة مثل" صدمة العنف أو المعارك أو الحروب".(يحي، فايز الحداد: "الحروب وآثارها النفسية على الأطفال"، مجلة عالم الفكر،ع2، المجلد36، أكتوبر-ديسمبر، 2007، ص271).

[3]- ابن خلدون، المقدمة، ص143.

[4]- عبد الرحمن، محمد العيسوي: علم النفس العسكري، ط1، لبنان: دار الراتب الجامعية، 1999، ص14.

وهنا نجد أنفسنا مدفوعين إلى التساؤل حول مدى تأثير هذه الحروب في وجدان الفرد الزياني ومشاعره وسلوكياته؟

1-الآثار النفسية، الخوف والحرمان

إنّ أولى المشاعر التي تبرز إلى السطح هو الإحساس بفقدان الأمان والطمأنينة ويطغى مقابل ذلك التوتر والقلق والإحساس الدائم بالخطر الوشيك وهو ما يؤدي إلى حالة من التوتر النفسي الشديد الذي ترتفع درجته مع تضخم الإشاعات وانتشار أخبار المجازر المروعة التي تتناقلها الأفواه ويرويها الناجون من الجحيم الأرضي[1]؛ وسأحاول في هذا العنصر دراسة المعاناة النفسية للفعاليات الاجتماعية حسب ما تمكنت من جمعه من مادة مصدرية.

أ/ الضغوطات النفسية بسبب الحروب

لا جدال في أنّ مختلف الأضرار النفسية التي تتركها الحرب في الفرد لا تنتهي بانتهاء الحرب؛ وإنما تستمر حية في نفسه لمدة طويلة من الزمن يصعب التخلص منها ومحو تلك المشاهد المروعة من ذاكرته؛ فالحرب حسب ما يقول البعض "مرة المذاق، إذا كشفت عن ساق: من صبر فيها عرف، ومن ضعف فيها تلف"[2]، ونجد صدى الخوف والفزع الذي استبد بالناس في فترات الحروب مثلما حدث أثناء حركة السلطان أبو سالم المريني (760-762هـ/1358-1360م) على تلمسان في شهر رجب عام 761هـ/1359هـ والتي سمتها بعض المصادر "بالحركة العظمى"[3]، ونظرا لهولها وصف صاحب الإحاطة حالة الناس خاصة بعد فرار سلطانهم قائلا: و"طار الذعر بين يدي الضّلالة"[4]، ومنه كذلك ما حدث عندما هاجم السلطان أبو العباس أحمد المريني (789-796هـ/1387-1393م) على تلمسان فلجأ أهل البلد إلى السلطان أبي حمو (760-791هـ/1358-1388م) "متعلقين بأذياله خوفا من معرّة العدو"[5]، ونلتمس ذلك أيضا أثناء حملة السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1487م) على تلمسان سنة 867هـ/1462م من خلال إحدى العبارات الواردة عند الزركشي يصف

---

[1]- بلقاسم الطبابي، المرجع السابق، 181/1.

[2]- ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص391.

[3]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 158/1.

[4]- المصدر نفسه، 158/1.

[5]- ابن خلدون، العبر، 169/7.

الحالة النفسية لأهالي تلمسان قائلا: "...وفرق قواده في تلمسان ففزعت الرعايا"[1]؛ وجاء في كتاب إفريقيا وصف للحالة النفسية الجماعية لسكان جبل أغبال الذين "يعيشون في رعب دائم"[2] نتيجة هجومات الأعراب عليهم[3]، ومثل هذه المشاعر استبدت بسكان تبحريت الذين "يعيشون في خوف دائم من هجومات النصارى عليهم ليلا"[4].

ومن السلوكات وردود الأفعال التي كانت تصدر من الأفراد نتيجة إحساسهم بالخوف والرعب من العدو هو الفرار واللجوء إلى أي مكان يحتمون فيه كالدروب والأسوار والأبراج والجبال والأماكن الممتنعة[5]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وبلغ بهم حسبما تشير إليه بعض النصوص النوازلية إلى الاختباء في الأماكن الوضيعة والعفنة "كالقنوات والمطاهر والصبور والمواضع الغائبة"[6].

ومن خلال إحدى نوازل المرحلة التي أكدت لنا ذلك دون أن تشير إلى مواضع الهروب نازلة سُئِل عنها أبو الفضل العقباني (ت854هـ/1450م): "عن أهل قرية جاءتها أعراب خيلا ورجالا بنجوعها، فقاتلهم من بقي بها يوما واحدا، وكان الجل من أهل القرية قد فرّ بنفسه وبعياله، وبما خف من متاعه...فاشتدّ الخوف، وفرّ من القرية ليلا نحو من ثلاثين رجلا..."[7]، وفي النازلة نفسها نلتمس كذلك خوف السكان من تواصل الغارات من طرف القبائل العربية وعودتهم مجددا لقتالهم إذ "شاع الخبر أنّهم يعودون لقتالهم بأضعاف ما جاؤوا به من الأمس، فاشتدّ الخوف"[8].

ب/ الضغوطات النفسية بسبب الحصار

هذا وبالإضافة إلى الانعكاسات السلبية للحصار على نفسية الفرد الزياني ونجد صدى ذلك في بعض النصوص التاريخية لمرحلة البحث تعكس الحالة النفسية التي آل إليها بنو عبد الواد من جراء

---

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص153.

[2]- مارمول، إفريقيا، 353/2.

[3]- المصدر نفسه، 353/2.

[4]- الوزان، وصف إفريقيا، 15/2.

[5]- هناك العديد من النصوص الوسيطية لا يمكن حصرها تبين لجوء الخاصة والعامة إلى الاحتماء في مثل هذه الأماكن هروبا من بطش العدو.

[6]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص172.

[7]-المازوني، الدرر المكنونة، ق46و.

[8]- المصدر نفسه، ق46و.

الحصارات التي تعرضوا لها، منها الحصار الطويل حيث عبر يحي بن خلدون (780هـ/1378م) عن ذلك في قوله: "وانتهت قلوب المحصورين إلى الحناجر"[1] كتعبير صريح عن الحالة النفسية السيئة التي كانت عليها مختلف الفعاليات الاجتماعية زمن الحصار، وكذلك ما قاله العبدري (ت760هـ/1358م) حول حصار أبي الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م) لتلمسان الذي استمر لأكثر من سنتين فيضيف حول الوضع النفسي للسلطان ورعيته قائلا: "وسلطانها أبو تاشفين وجميع أهلها في ضيق الخناق معهم لا يفك لهم وثاق، ولا يحلّ لهم خناق، ولا تبرك لهم بارقة خلاص"[2]، وقد استمرت المعاناة النفسية لهؤلاء بعد سقوط تلمسان في يد أبي الحسن فقد "مضت الأيام وهم بين بني مرين لهب مكفور وصارم مغمود، والأكباد تتفطر غيرة، والقلوب تحتدم حنقا..."[3].

ب/1 شعر ابن خميس بين الحنين والحسرة

ألّف ابن خميس (ت708هـ/1308م) عدة قصائد في تشوقه إلى تلمسان وهو في دار غربته بغرناطة، فقد كانت تلمسان بمثابة القلب والدم من الجسم عند الشاعر حيث أنّ طيفها ما فتئ يفارقه[4] خاصة وأن مدينته كانت ميدانا للصراع بين الدول الثلاث، ومن شعره نذكر في هذا الغرض بعض الأبيات[5]:

تلمسان لو أنّ بها الزمان يسخو *** مُنَى النفس، لا دارُ السلام، ولا الكرخ
وداري بها الأولى التي حيل دونها *** مثارُ الأسى لو أمكـــن الحنق اللبـــخُ
وعهدي بها والعمرُ في عنفوانـــه *** ومـــاء شبابي لا أجين ولا مطبـــخُ
قرارة تهيـــام، ومغنى صبـــابـــة *** ومعهـــد أنس لا يلذبـــه لطـــخُ

ومما ينبغي الإشارة إليه أنَّ ابن خميس خصّص جزءً من أشعاره للحديث حول معاناة أهل تلمسان، فقد كان للحصار الطويل وقع شديد في نفسه لذلك نظم قصيدة تعتبر مرآة عاكسة لما لاقاه أهالي تلمسان من آلام ومآسٍ وأضرار وهم تحت الحصار نستعرض بعض الأبيات منها[6]:

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 1/**233-232**.

[2]- العمري، مسالك الأبصار، 4/103-104.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 1/251.

[4]- طاهر، توات: ابن خميس وشعره، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، ص139.

[5]- المقري، نفح الطيب، 7/291. القصيدة من البحر الكامل.

[6]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/539. الأبيات من البحر الطويل.

لعشرة أعوام عليها تجرمت * إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراءُ[1]**

يُطَنّبُ فيها عابثونَ وخرّبُ * ويرحلُ عنـــها قاطِنـونَ وأحـــياءُ**

كأنَّ رماحَ النَّاهبينَ لملْكِهـا * قِدَاح وأمْوالُ المنـــازلِ أبـــْـــداءُ**

فلا تبغين فيها مناخا لراكب * فقد قلصت منها ضلال وأفيـــاءُ**

ومن خلال هذين البيتين الشعريين الذين أوردهما يحي بن خلدون (ت780هـ/1378م)[2] نكتشف أنّ الناس بلغ بهم اليأس والقنوط مبلغه أثناء هذا الحصار فلم يبق إلاّ الدعاء إلى الصبر.

نفسي تنازعني فقلت لها اصبـــري *** موت يريحك أو صعود المنبـــر

ما قد قضى سيكون فاصطبري له *** ولك الأمان من الذي لم يقدر[3]

2-عينات من الفئات المتضررة

أ/ النخبة الفكرية، الضغوطات النفسية بسبب الحرب والحصار المفروض واللجوء القسري

كانت النخبة في العهد الزياني على غرار الفئات الأخرى التي لم تسلم من مختلف التداعيات التي خلفتها الحروب والاضطرابات السياسية، وكان من بينها ما أضرّ بالجانب النفسي المتمثل في الخوف والغربة وعدم الاطمئنان للظروف.

لم تسلم النخبة من الضغوطات النفسية المتمثلة في الخوف بسبب الحرب والحصار، ومثال ذلك ما وقع لأولاد الإمام بعد عودتهم من رحلتهم العلمية من تونس قاصدين مدينة برشك مسقط رأسهما؛ لكن نظرا للظروف الأمنية المتردية التي شهدها المغرب الأوسط في تلك الفترة بسبب الحصار الطويل الذي فرضه السلطان يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م) على تلمسان؛ فقد أضحت الطرق غير آمنة ولا تساعد على الحركة والتنقل لذا اضطرا إلى المكوث في مدينة الجزائر والتدريس بها إلى أن رُفع الحصار[4]، والظروف نفسها أيضا حالت الآبلي (ت757هـ/1356م) دون استكمال رحلته إلى الحج[5].

---

[1]- ويقصد به الشتاء البارد.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 233/1.

[3]- الأبيات من البحر الكامل

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص46-47. ابن مريم، البستان، ص252-253.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص50. فصل الخطاب الفقهي في مسألة من فاته الحج بسبب حصار العدو "كل من

وفي هذا الشأن نذكر كذلك ما حدث لأبي عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1369م) الذي قاسى ظروف الغُربة أثناء إقامته بفاس؛ وقد كان انتقاله إلى هناك نتيجة الاضطرابات الأمنية التي شهدها بلاد المغرب بسبب واقعة القيروان وسقوط تلمسان في يد السلطان أبي عنان المريني الذي اصطحبه معه مُرغما إلى عاصمة ملكه فاس[1]. لكن الشريف سئم المقام بالعاصمة المرينية[2] وحنَّ إلى مسقط رأسه والعودة للاستقرار بموطنه الأصلي[3]، ويذكر صاحب الديباج أنّ السلطان المريني قد غضب على الشريف التلمساني حينما اشتكى له بذلك إذ "تبرم الشريف من الغربة واشتكى فغضب السلطان لذلك"[4]،ونلاحظ أنّ هذا الوضع سيستمر عليه لعدة سنوات إلى حين وفاة السلطان أبي عنان عام 759هـ/1357م، ولم يتمكن من العودة حتى تم استرجاع تلمسان سنة 760هـ/1358م حين استدعاه السلطان أبو حمو موسى واستقدمه إلى تلمسان وأصهره في ابنته[5]؛ ثم كلفه بالتدريس في المدرسة التي شيدها له إلى أن توفي ليلة الأحد 4 ذي الحجة 771هـ/1369م[6]، وقد حضر جنازته الملك أبو حمو الثاني ووزراؤه[7].

لم تكن الظروف الأمنية في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري 14 الميلادي ببلاد المغرب الأوسط أحسن حالا مما سبق، فقد شهدت هذه الفترة كذلك عدة اضطرابات أمنية منها حركة السلطان عبد العزيز المريني سنة 772هـ/1370م ما جعل ابن خلدون يختار الوجهة إلى الأندلس بعدما تعذر عليه الذهاب إلى بلاد رياح[8]، ويمكن أن نضيف في هذا السياق ما حدث لابن قنفذ القسنطيني في مجاعة 776هـ/1374م التي ألمت بتلمسان[9] ونظرا لتواجده هناك فقد اضطرّ إلى المكوث بها لمدة شهر خوفا

فاته الحج فلا يحله إلاّ العمرة وعليه الهدي خاصة، إلاّ من أحصره العدو فتحل". المقري، الكليات الفقهية، ص113.

[1]- ابن مريم، البستان، ص314.التنبكتي، المصدر السابق، ص400.

[2]- عبد الحميد، حاجيات: "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، ع26، (د.ت)"، ص143.

[3]- عبد الحق حميش ومحفوظ بوكراع بن ساعد: موسوعة تراجم علماء الجزائر علماء تلمسان وتوات، الجزائر: دار زمورة للنشر والتوزيع، 2011، ص174.

[4]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص70. ابن مريم، المصدر السابق، ص314. التنبكتي، المصدر السابق، ص400.

[5]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص71. ابن مريم، المصدر نفسه، ص315. التنبكتي، المصدر نفسه، ص400.

[6]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص315.

[7]- الطمار، تلمسان عبر العصور، ص182.

[8]- المرجع نفسه، ص120.

[9]- رجحت أسباب هذه المجاعة إلى الحروب التي شهدها عهد السلطان أبي حمو.

على حياته[1]؛ نظرا لخطورة الطرق والمسلك التي تكون غير آمنة[2] في مثل هذه الأوقات حيث تكثر بعض الآفات كاللصوصية وقطاع الطرق.

ب/ الجند، الحركات العسكرية الطويلة الأمد وأثرها على الحالة النفسية للجند

يصعب الظفر بمعطيات صريحة تبين الحالة النفسية للجند خلال حروب العهد الزياني، ولكن مما لا شك فيه أنّ كثرة الحروب واستمرارها وطول المدد التي كان الجند يقضونها بعيدا عن عائلاتهم، زد على ذلك تعرضهم لتبعات الحرب كالأسر مثلا؛ من شأنه أن يفضي إلى تذمر هؤلاء وتدهور حالتهم النفسية.

وفي هذا الصدد ينبغي أن أشير إلى أنّ ما ميّز الحياة العسكرية في العهد الزياني هو كثرة الحروب التي خاضتها السلطة كما أشرت إلى ذلك في العناصر السابقة؛ إذ لا تخرج من حرب حتى تدخل في أخرى مما يستدعي الخروج المستمر للجيش وتنقله عبر أقاليم المغرب الأوسط شرقا وغربا لمدد زمنية ربما تطول أو تقصر. **وهذا ما يدفعنا للتساؤل حول تبعيات هذا الغياب المستمر على الحالة النفسية للجند في هذه الفترات؟**

استوقفتني إحدى الإشارات الواردة عند ابن خلدون (ت808هـ/1405م) تؤكد أنّ ملوك تلمسان الذين عمدوا إلى حصار الأقاليم الشرقية التي كانت محل نزاع مستمر بين الطرفين الزياني والحفصي، والذي كان يتطلب مُدَدًا زمنية طويلة من أجل افتكاكها ما من شأنه أن يؤثر تأثيرا سلبيا من خلال إجهاد الجند وتذمر حالتهم النفسية في هذه الفترات، عبّر ابن خلدون عن ذلك في قوله: "وكان ملوك بني عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله، ويجمّرون[3] العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة[4].

---

[1]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص126.

[2]- عبد العزيز، فيلالي: "الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان (تأثير الأمراض والظواهر الطبيعية والأزمات السياسية على السكان)"، ضمن كتاب -بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط-، الجزائر: دار الهدى، 2014، ص128.

[3]- تجمير الجيوش: جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهليهم، وهي كلمة يستعملها ابن خلدون كثيرا. انظر رحلة ابن خلدون، ص92. الهامش

[4]- رحلة ابن خلدون، ص92. العبر، 128/7. وهنا الحديث حول السلطان أبي تاشفين الأول الذي شدد الحصار على المدن الشرقية بجاية وقسنطينة وتونس وعنابة خلال الفترة الممتدة من سنة 721هـ/1321م إلى 730هـ/1329م.

ولتوضيح هذه الظاهرة يجب الوقوف على عدد الحملات التي قادها أمراء بني زيان إلى مناطق مختلفة والتي استغرقت مددا طويلة تسببت في غياب الجند عن عائلاتهم لفترات زمنية طويلة ومستمرة، ومن خلال المراجعة الواسعة حول هذه الظاهرة تبيّن أنّها ارتبطت بالشخصيات القوية التي حكمت الدولة الزيانية والتي كان لها نشاط عسكري كثيف؛ نذكر منهم السلطان يغمراسن وأبا تاشفين الأول وأبا سعيد وأبي ثابت وأبي حمو موسى الثاني؛ من أجل استرجاع الأقاليم والمدن التي استولى عليها المرينيون أو الحفصيون أو على الأقل المحافظة على وحدة تراب المغرب الأوسط من خلال القضاء على الحركات الانفصالية لبعض القبائل.

وبما أنَّ المقام لا يسع لذكر كل الحملات الطويلة الأمد خلال العهد الزياني حاولت أن أرصد في هذا الشأن حروب السلطان أبي حمو الثاني التي كانت سجالا ضد أعدائه الحفصيين من خلال المحاولات الحثيثة لافتكاك المدن الشرقية كبجاية وقسنطينة وتدلّس، وصراعه الطويل ضدّ المرينيين كما تخللتها فتنة ابن عمه أبي زيان القبيّ حول السلطة، زد على ذلك صراعات أخرى بهدف إخضاع بعض القبائل المتمردة؛ وهو ما استرعى الخروج المكثف للجيش ومرابطته في تلك الأقاليم لمدد طويلة، دون الاستفادة لمعظم هذه الحملات من فترات استراحة حسبما يبدو.

وفي هذا الجدول سأحاول أن أرصد عدد حملات السلطان أبي حمو موسى الثاني والوقوف على مدة كل حملة وذلك في حدود ما توفر من مادة علمية؛ لأنّ بعض الحملات لا نتوفر على تاريخ انطلاقها وبعضها الآخر لا يتوفر لدينا تاريخ نهايتها مما اضطرني إلى تقييده بتاريخ دخول السلطان إلى حاضرته.

الحملة	تاريخ انطلاق الحملة	تاريخ نهاية الحملة	مدة الحملة	ملاحظات
الخروج لقتال بني مرين	2جمادى الأولى 760هـ/1358م	غرة جمادى الأخرى 760هـ/1358م	28 يوما	إلحاق هزيمة ببني مرين
خروج الجيش لحصار وهران ثم افتتاح المديّة	4 شعبان 760هـ/1358م	7 ذو القعدة 760هـ1358م	شهران و3 أيام	الجيش بقيادة أبي يعقوب والد أبي حمو انتهت الحملة بالانتصار

خروج الجيش لقتال عرب المعقل	شهر ربيع الأول 761هـ/1359م	الشهر نفسه	بضعة أيام	الجيش بقيادة أبي تاشفين والشيخ أبي موسى عمران بن حريز اللؤلئي وتم إلحاق هزيمة بعرب المعقل
خروج السلطان أبي حمو بجيشه وحاشيته	29 رجب 761هـ/1359م		25 يوما	سبب الخروج هو استيلاء بني مرين على تلمسان
خروج السلطان بجيشه للمرة الثاني	شعبان 761هـ/1359م	8 رمضان 761هـ/1359م	40 يوما	السبب نفسه
خروج الجيش لتأديب بعض القبائل واسترجاع المدية وملیانة وتنس	18 رمضان 761هـ/1359م	13 ذي القعدة 761هـ/1359م	شهر و23 يوما	يعود نصف الجيش لحماية تلمسان من تحرشات بني مرين
خروج الجيش لقتال مغراوة المخالفين	محرم 762هـ/1360م	2 صفر 762هـ/1360م	قرابة شهر	هروب مغراوة والتحاقها ببني مرين
هجوم على وهران	5 شوال 762هـ/1360م	19 شوال 762هـ/1360م	14 يوما	
هجوم على جبل بني ورنيد	14 شوال 763هـ/1361م	20 شوال 763هـ/1361م	8 أيام	قيادة الجيش من طرف أبي تاشفين والشيخ عمران بن موسى
خروج الجيش لتأديب ابن عم	رجب 764هـ/1362م	4 شوال 764هـ/1362م	3 أشهر	بداية فتنة أبي زيان القبيّ

السلطان والإغارة على وطن حمزة				
خروج لحرب بني مرين	23 رجب 765هـ/1363م	8 شعبان 765هـ	15 يوم	قائد الجيش عبد الله بن مسلم
خروج الفريق الثاني من الجيش لنفس الغرض	11 ذي الحجة 765هـ/1363م	28 ذي الحجة 765هـ/1363م	17 يوما	
خروج الجيش لقتال بني مرين	2 رمضان 766هـ/1364م	4 شوال 766هـ/1364م	شهر ويومين	
خروج الجيش لمحاربة بني راشد	6 شعبان 769هـ/1367م	25 ربيع الأول 769هـ/1367م	5 أشهر تقريبا	
خروج لتمهيد الأقاليم الشرقية	18 صفر 770هـ/1368م	21 شوال 770هـ/1368م	شهران ونصف	القضاء على فتنة أبي زيان
خروج الجيش لقتال أبي زيان والمتحالفين معه	مستهل سنة 771هـ/1369م	1 ربيع الأول 771هـ/1369م	قرابة شهرين	ظهور فتنة أبي زيان من جديد
خروج كتيبة من الجيش لحصار سجلماسة		1 ربيع الأول 771هـ/1369م	قرابة 3 أشهر	تخريب بلاد "بقود" والاستيلاء على محاصيلها
خروج لتأديب قبائل الثعالبةبمتيجة والجزائر	18 ربيع الثاني 771هـ/1369م	13 جمادى الثانية 771هـ/1369م	شهر و25 يوما	
خروج لحصار مدينة الجزائر	771هـ/1369م	13 جمادى الثانية 771هـ/1369م	شهران	إخضاع هذه القبيلة
خروج السلطان	14 محرم	22 جمادى الأولى	أكثر من سنتين	استراتيجية عسكرية

وجيشه قاصدين الصحراء	772هـ/1370م	774هـ/1372م		كان ينتهجها السلطان أبي حمو ضدّ بني مرين
استمرار الصراع ضدّ مغراوة	20 ذو القعدة 776هـ/1374م	22 جمادى الأولى 776هـ/1374م	7 أشهر و8 أيام	انتهت الأحداث بإخماد فتنة أبي زيان واسترجاع طاعة بعض المدن كالجزائر والمدية

أوّل ملاحظة يمكن تسجيلها من خلال هذا الجدول هي كثرة الحروب في عهد السلطان أبي حمو[1] خاصة السنوات الأولى من بداية حكمه؛ وهي مرحلة ترسيخ أركان الدولة وبداية إحيائها من جديد ولذلك كان طبيعيا أن تتكثف الحملات على الجبهتين الداخلية والخارجية.

ولعل ما يسترعي الانتباه أيضا هو أنّ السلطان أبا حمو اضطرّ للقتال حتى في الأشهر الحُرُم التي نهانا الإسلام عن القتال فيها[2] مصداقا لقوله تعالى: "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِير وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ**"[3]، ونلاحظ أنّ أغلب هذه الحملات المتكررة خاضها ضدّ ابن عمه أبي زيان القُبيّ وأنصاره للقضاء على فتنتهم[4]؛ فكانت الأولى في شهر ذي القعدة من سنة

---

[1]- من خلال كتاب بغية الرواد الجزء الثاني الذي خصصه كاتبه يحي بن خلدون للحديث حول تاريخ السلطان أبي حمو موسى الثاني تم إحصاء عدد الحروب التي شهدها هذا العهد وكانت النتائج كما يلي: خمسة عشر (15) حربا خارجية وأكثر من أربعة وعشرين (24) حربا داخلية ضد بعض القبائل البربرية والعربية. بالإضافة إلى حصار بعض المدن مثل بجاية ووهران والجزائر.

[2]- أقر الإسلام بأربعة أشهر يجب فيها الامتناع عن القتال إلاّ إذا اضطروا إليه، وتلك الأشهر هي "ذو القعدة" و"ذو الحجة" و"المحرم" و"رجب" الذي بين جمادى الثانية وشعبان وذلك لأنّ الأشهر الثلاثة الأولى يكون فيها الذهاب إلى الحج، والحج ذاته جهاد، والشهر الرابع كان الناس يعتمرون فيه، أي يذهبون لزيارة البيت الحرام. فهي أشهر فيها مناسك إسلامية. محمد، أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، المملكة العربية السعودية: دار الفكر العربي، (د.ت)، ص107-108.

[3]- سورة البقرة آية 217.

[4]- وهنا حاولت أن أرصد عدد الصراعات التي وقعت في الأشهر الحُرُم فقط لأن العدد الإجمالي للحملات التي خاضها ضدّ ابن عمه كانت كثيرة.

761هـ/1359م[1]، والثانية في 23 رجب سنة 765هـ/1363م[2]، والثالثة في 25 ذي الحجة سنة 765هـ/1363م[3]، والرابعة في شهر ذي القعدة سنة 768هـ/1366م[4]، والخامسة في شهر ذي القعدة سنة 770هـ/1368م[5].

ومما يمكن أن نذكره أيضا في هذا الشأن هو هجوم الجيش المريني على تلمسان والاستيلاء عليها في 25 محرم من سنة 772هـ/1370م من طرف السلطان عبد العزيز المريني[6]، ومع استمرار الصراع على تلمسان اصطدم الجيشان مرة أخرى بأوماكرًا في 25 شوال سنة 773هـ/1371م انتهت بانهزام أبي حمو واستيلاء العدو على ماله وذخائره[7].

وكذلك ما حدث بعد استرجاع السلطان أبي حمو لعرشه سنة 772هـ/1370م حيث واجهته فتن ومشاكل عديدة اضطرّته إلى الخروج للقضاء عليها منها فتنة علي بن هارون الذي استقل بناحية شلف بمساعدة بني مرين، فبعث له جيشا بقيادة عطية بن موسى فهاجم عليه وألحقوا به هزيمة كبيرة[8]؛ لكن هذا الأخير لم يستسلم وسرعان ما بدأ يستغيث بأعداء أبي حمو وتحالف مع خالد بن عامر وقومه، وقبيله تجين فهاجموا على جيش عطية بن موسى في شهر رجب 774هـ/1372م وأرغموه على الالتجاء إلى تنس وحاصروه بها[9]. الظاهر أنّ الحملات التي كانت تستغرق الشهور والسنوات، مع تتابعها وتواليها، أفرزت ردودا متنوعة وترسبات أبرزها التذمر الذي أصاب الجند في الكثير من الحالات لأنهم غربوا عن نسائهم وذويهم ومواطنهم[10]؛ ولا غرو فقد أفضت بعض ردود الفعل لدى الجند إلى التمرد مما أدى إلى الإخفاق في بعض الحروب.

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 75/2.

[2]- المصدر نفسه، 137/2.

[3]- المصدر نفسه، 140/2.

[4]- المصدر نفسه، 188/2-189.

[5]- المصدر نفسه، 212/2.

[6]- المصدر نفسه، 772/2.

[7]- المصدر نفسه، 244/2.

[8]- المصدر نفسه، 259/2.

[9]- المصدر نفسه، 261/2. حاجيات، أبو حمو موسى الزياني –حياته وآثاره-، ص176.

[10]- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص368.

ومن خلال الجدول نكشف أنّ أطول مدد غياب الجند التي خرج فيها خلال فترة السلطان أبي حمو الثاني هي فترة بين سنتي 772هـ/1370م و774هـ/1372م حينما خرج السلطان أبي حمو بجيشه وحرمه وبطانته إلى الصحراء بعد سقوط تلمسان في يد عبد العزيز المريني في المرة الأولى؛ وكذلك بين سنتي 784هـ/1382م و786هـ/1384م حينما سقطت على المنتصر بالله أبو العباس أحمد؛ وغير خاف علينا تلك الأهوال والمشاق التي تعرضوا لها خلال هذه السنوات في القفار والفيافي.

ونشير بالذكر أنّ مهمّة الجيش في القتال كانت متواصلة خلال هذه الفترة لأنّ السلطان المريني بعث وزيره أبا بكر بن غازي في أثرهم وألحق بهم هزيمة بظاهر قرية الدوسن جهة الزاب[1]، فأكمل من بقي مع السلطان المسير في رحلة شاقة وقد "أخذ كل منهم طيّته مع الجهل بالبلاد وعدم الهداة فيها وتراكم بحر الظلمات. فجدَّ أيده الله سيره أربعة أيام بلياليها في تنائف ومجاهل لا يهتدي بها القطا لمسقط نوْءً، ولا يُسمع بها، سوى عزيف الجن، صوتٌ"، واستمرّ الوضع هكذا على السلطان أبي حمو ومن كان معه طيلة سنة 773هـ/1371م في محاولات لاسترجاع ملكه المسلوب ومحاربة القبائل التي انفصلت عنه وأعلنت طاعتها للمرينيين؛ ما يثبت أنَّ الجميع بما فيه الجند تعرض لإرهاق شديد وظروف صعبة وكذا عدم التمكن من الاستفادة بأوقات للاستراحة، وهو ما أدى إلى حدوث انشقاق في صفوف جيش أبي حمو حيث انفصل خالد بن عامر مع كثير من قومه، وتبعهم الوزير عمران بن موسى وغيره من وزراء أبي حمو منحازين إلى الجانب المريني[2]؛ و يمكن أن نسحب الظروف البائسة التي كانت السبب في تدهور حالتهم النفسية والمعنوية بسبب الاغتراب على الغياب الذي حدث خلال سنتي 784هـ/1382م و786هـ/1384م.

ومن الحملات التي عرضت الجند إلى الابتعاد عن ذويهم نضيف خروجه لحصار مدينة الجزائر التي كانت تحت سيطرة المرينيين تخللها صراع ضدّ قبائل بني عامر ومغراوة، حيث طال غيابهم لأكثر من سبعة أشهر دون تمكن الجند من العودة إلى أهلهم وذويهم.

واللافت للانتباه أنّ هناك حملات متكررة خرج فيها الجند الزياني وإن لم تكن فترات الغياب طويلة ولكن فترات الإستراحة كانت قصيرة جدا؛ ما من شأنه أن يرهق الجند بدنيا ومعنويا لأنه لم يستفد من مدة استراحة كاملة مثلما حدث بعد عودة السلطان أبي حمو بجيشه يوم 8 رمضان سنة 761هـ/1359م

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 230/2.

[2]- المصدر نفسه، 243/2. حاجيات، المرجع السابق، ص172.

بعد أربعين يوم من الغياب، نلاحظ أنه أصدر أمرا بعد عشرة أيام بخروج الجيش مرة أخرى بقيادة عمران بن موسى لحصار وهران ويتغيب الجند قرابة الشهرين بسبب ذلك.

ومن الحملات التي كان لها الأثر السيء على نفسية الجند نذكر تلك التي تكررت من أجل إخماد فتنة الأمير أبي زيان القبيّ المذكور سالفا والذي نافسه على بعض المدن واستولى عليها مثل لمدية وملیانة والجزائر بعد أن انضمت إليه بعض القبائل العربية[1]، فقد استمرت هذه الفتنة لمدة طويلة قاربت العشرين سنة حيث بدأت بوادر هذه الفتنة من سنة 761هـ/1359م إلى غاية 781هـ/1379م، وكذلك فتنة خالد بن عامر الذي انحاز إلى بني مرين هو وقبيله، والتي بدأت من شوال 774هـ/1372م إلى غاية 776هـ/1374م وقد تطلب ذلك تقسيم الجيش إلى أكثر من كتيبة، وبما أنّ النصوص التاريخية لم تمدنا بتواريخ دقيقة حول تاريخ خروج الجند للقتال وتاريخ رجوعه تعذر عليّ ضبط المدد الزمنية لغيابهم بدقة.

وتجدر الإشارة أنّ هذه الظاهرة ليست وليدة فترة حكم السلطان أبي حمو التي بدأت سنة 760هـ/1358م وإنما كان نشاطه العسكري مكثفا قبل ذلك بسنتين وذلك خلال سنتي 758هـ/1356م و759هـ/1357م في صراعه ضدّ بني مرين من أجل إجلائهم عن العاصمة تلمسان ومدن المغرب الأوسط التي أحكموا السيطرة عليها؛ وكانت هذه المحاولات سببا في إرهاق الجند، فقد أفادتنا بعض المصادر عن تعرضهم للصعاب والمشاق مثلما حدث في إحدى غزواتهم سنة 759هـ/1357م ضدّ جيش أبي عنان المريني حيث استمروا" في مشيهم عشرة أيام ولياليها، لم يحل بها ولا قومه سرجا، ولا حطوا فيها قتبًا"[2]، وفي زهر البستان تفيدنا إحدى الإشارات الواردة فيه أنّ الجيش يتعرض للإرهاق الشديد بدليل أنّ السلطان أبا حمو كان حريصا على توفير بعض فترات الاستراحة للجند قبل مواصلة حملاته، ففي إحدى هذه الحملات التي خرج فيها سنة 762هـ/1361م لافتكاك وهران من أيدي بني مرين التي استعصت عليه في البداية "أمر عند ذلك المولى أبي حمو بالإنفصال ليستريح النّاس من الكَلَالِ، ويُقابلها بأشدّ من هذا القتال وإلاّ أن يُذيقهم أشدّ النَّكَالِ"[3].

بعد هذا العرض يمكن القول أنّ فئة الجند تعرضت هي الأخرى إلى تبعيات الحروب المتكررة التي خرج فيها للقتال وتسببت في ابتعادهم عن عائلاتهم ومحيطهم الاجتماعي مما أثر سلبا على حالته النفسية،

[1]- حاجيات، المرجع السابق، ص160.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، 21/2.

[3]- مجهول، زهر البستان، 134/2.

وهذه الظاهرة لا يمكن حصرها في هذه الفترة فقط وإنما يمكن سحبها على الفترات الأخرى التي شهدت حروبا طويلة الأمد؛ كما أنّ هذه الظاهرة تدفعنا إلى إعطاء تفسيرات جديدة لبعض الإخفاقات التي مُني بها الجيش الزياني في حروبه وعدم ربطها فقط بالإستراتيجية العسكرية للدولة مما يفضي إلى فتح آفاق أخرى في الدراسات التاريخية.

ت/ المرأة

لعل من بين أبرز الفئات الأكثر تضررا المرأة والطفل كونهما أكثر المتضررين ليس على المستوى الجسدي فحسب وإنما النفسي (البسيكولوجي) كذلك، ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الشأن هو ما حدث عند هجوم محمد بن القوي على وادي رهيو فهرب الناس باكين خائفين على أنفسهم وحريمهم وصغارهم حسبما أورده صاحب كتاب مناقب صلحاء الشلف[1]، وكذلك ما حدث أواخر العهد الزياني حينما هاجم أسطول الملك الإسباني فرناند مدينة وهران، وقد تمكن من الاستيلاء عليها في يوم واحد نظرا لسوء التنظيم من طرف سكانها حيث أنهم خرجوا كلهم للقتال خارج المدينة ولم يتركوا بها إلاّ النساء، ولما علم العدو بذلك بعث فريقا من الجيش وهاجم على المدينة من جهة أخرى فلم يجدوا إلاّ النساء في حالة من الحيرة والخوف صعدن على الأسوار هروبا من بطش العدو[2].

وإذا كان الإحساس بالانفعال الذي يعتبر أحد ردود الأفعال نتيجة حالة القلق والألم أثناء معايشة بعض الأحداث أمام تصاعد وتيرة العنف بمختلف أشكاله. فقد لمسناه من إحدى نساء بني عبد الواد من خلال السب والشتم الذي وجهته إلى السلطان أبي الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م) في فترة استيلائه على تلمسان حيث "قالت على قدرها شتمت أقبح شتم"[3].

لقد كانت معاناة المرأة الزيانية شديدة ومأساوية في فترات الأزمات والحروب المستشرية طيلة العهد الزياني، فبعد فقدان الزوج والابن والأخ في الحروب تبقى وحيدة لا سند لها ولا معيل، مما يزيد من وضعها تأزما خاصة إذا ما تعلق الأمر بفقدان الزوج نتيجة قتله أو أسره، وقد جاء الخطاب الفقهي للحسم في مسألة النفقة على الزوجة الغائب عنها زوجها غيبة بعيدة نظرا لما سيلحق بها من الفاقة والعوز، في حين تسقط

[1]- المازوني موسى بن عيسى، مناقب صلحاء شلف، ص145-146.

[2]- الوزان، وصف افريقيا، 2/30-31.

[3]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص184.

هذه النفقة في حالة فقدانه[1].

وللأسف فإنّ الحوليات التاريخية لم تفصح لنا بما فيه الكفاية عن أسباب غياب الرجال عن زوجاتهم[2] فكانت الكتب الفقهية هي المعول عليها في هذا الشأن؛ وللأسف فقد ركزت هذه الأخيرة على الغياب بسبب التجارة أو الحج غير أنّ المشاركة في الحروب حسبما يقول أحد الباحثين[3] شكلت عاملا آخر من عوامل هذا الغياب؛ إذ كان لا يعرف هل قتل الزوج في المعركة أم لا يزال على قيد الحياة والإشكالية نفسها طرحت لدى أسير الحرب.

ومهما كان سبب الغياب، سواء تعلق الأمر بقتل الزوج أو أسره فإنّ سؤالنا يرتكز حول **تأثيرات هذا الغياب في وجدان المرأة وما هي الأضرار النفسية المترتبة عنه؟**

يشكل الإحساس بالوحدة والفراغ العاطفي والحرمان الجنسي أهم وأعمق الآثار النفسية التي يسببها غياب الزوج عن زوجته؛ مما يؤثر سلبا على وضعها النفسي؛ زد على ذلك تراكم وتضخم المسؤوليات عليها حيث تجد نفسها وحيدة ومجبرة على تربية أولادها وحمايتهم خاصة في ظروف عصيبة كظروف الحرب والحصار.

ث/ الطفل

عاش الإنسان الزياني على مدى عشرات السنين حالة حرب مستعرة تتفاقم يوما بعد يوم مهددة توازنه النفسي نظرا للآثار السلبية الناتجة عنها، فمن شأن هذا الجو، جو الحرب المفعم بمظاهر العنف إثارة الاضطراب في نفوس الجميع، وبشكل خاص في نفوس الأطفال الذين هم أكثر حساسية من الراشدين بالنسبة لكل ما يهدد محيطهم من أزمات؛ وقد تنبه ابن خلدون إلى مدى تأثير هذه الظروف على نفسية الأطفال والتي من شأنها انتزاع كل شعور بالطمأنينة.

---

[1]- "كل من غاب عن زوجته غيبة بعيدة فلها النفقة عليه، بخلاف المفقود قبل الوجوب على المعروف...". انظر المقري أبو عبد الله محمد، الكليات الفقهية، ص133.

[2]- رغم أنّ كتب النوازل احتفظت لنا ببعض النوازل حول المرأة المفقود عنها زوجها (الغائب) لكن نبقى عاجزين حول إثبات سبب الغياب وربطه بالحرب. من الأمثلة انظر ابن قنفذ، نوازل قاضي الجماعة ابن قنفذ القسنطيني، عناية: عبد الرحمن حمّادو الكتبي، الجزائر:دار عالم المعرفة، 2015، ص8. وأيضا الونشريسي، المعيار المعرب، 230/3. 232/3. 285/3.

[3]- القادري، بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع- الذهنيات- الأولياء، ط1، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993، ص40-41.

عبر ابن خلدون عن ذلك بأنّ ممارسة العنف والتنكيل على الطفل، دون أن يقدر على منعه ورده، سببا في زرع بذور الانكسار والضعف والمذلة في شخصيته؛ إذ "الأحكام بالعقاب مذهبة للبأس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه، يكسب المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك"[1].

ومهما تضررت المرأة يبقى تضرر الطفل أكبر بحكم صغر سنه وعدم نضجه العقلي[2]، وهو ما يؤدي حتما إلى عدم القدرة على استيعاب العنف الذي يمكن أن يشاهده[3]، كأن يشاهد حالات وفاة مروعة لأشخاص مقربين منه مثل مصرع أبيه بسلاح عدوه أو إذلاله في حالة أسره أو سبي أمه[4]؛ خاصة وأنّ علماء التحليل النفسي أثبتوا أنّ الأسرة بالنسبة للطفل هي مصدر الطمأنينة بالنسبة له والمرجع الأساسي لقدرته على الاحتمال[5].

وعلى الرغم من أنّ المصادر التاريخية الخاصة بمرحلة البحث وقفت عاجزة عن إعطاء الصورة الكاملة للحالة النفسية للطفل ومعاناته نتيجة ما تفرزه الحرب من آلام وأضرار؛ إلاّ أنّي لا أعدم بعض

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص135.

[2]- أثبتت الدراسات الحديثة أنّ تأثير التجارب القاسية والأحداث الصدمية على الأطفال قد يفوق تأثيرها على الكبار، ويرجع ذلك إلى نقص نمو مهارات مواجهة الضغوط وآليات الدفاع بوصفها أساليب للتوافق مع المواقف الضاغطة ونتائجها، وكذلك إلى طبيعة الطفولة ذاتها فالطفولة مرحلة حساسة وحرجة. يحي، فايز الحداد: "الحروب وآثارها النفسية على الأطفال"، مجلة عالم الفكر، ع2، مجلد36، الكويت، أكتوبر- ديسمبر، 2007، ص273. ويرى إركسون أنه عندما تتفاعل الضغوط الناجمة عن الأحداث الصدمية مع صعوبات ومشكلات النمو عند الأطفال الأمر الذي يجعلهم أكثر استعدادا للتأثر بتلك الأحداث وذلك ما يعبر عنه "بالأزمة المحتملة" **Potential Grises** " عند الأطفال.

[3]- سوسن، ماهر: "عندما يكون الأطفال ضحايا الحروب والكوارث"، مجلة العرب، ع9427، لندن، 2014، ص21.

[4]- سوسن ماهر، "عندما يكون الأطفال ضحايا الحروب والكوارث"، ص21. اهتم العديد من الباحثين الغربيين بتتبع مختلف الآثار النفسية لدى الأطفال الناجمة عن مشاهدة أعمال عنف مثل تعذيب آبائهم أو أقاربهم أو اعتقالهم بصورة وحشية أو إعدامهم ومن هذه الدراسات:

- Baider, L. & Rosenfeld, E.(1974). Effect of Parental Fears on Children in Wartime. Social Casework; 55.

- Kaffman, M. &Elizur, E.(1984); Children's Bereavement Reactions Following Death of the Father.

Special Issue: Family Psychiatry in the Kibbutz. International Journal of Family Therapy. 6 (4).

- Schirmer, J.(1986); Chile: The Loss of Childhood. Cultural Survival Quarterly; 10 (4).

[5]- يحتاج الطفل إلى الأسرة (الوالدين بشكل خاص) كعامل يثبت الطمأنينة والارتياح في نفسه التي أنهكتها مختلف المشاعر السلبية المحدثة فيها نتيجة سيطرة جو العنف عليها. هذه الأسرة التي تشكل ضمن المجتمع الأكبر أهم نواة اجتماعية تحيط بالطفل منذ ولادته وتؤمن له الحب والرعاية والتربية التي هو بأمس الحاجة إليها ليس في الظروف العادية فقط لكن خاصة في ظروف الحرب. انظر: نصار، كرستين: واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل حالة خاصة الطفل اللبناني، ط1، لبنان: منشورات جروس برس، 1991، ص25.

الإشارات وإن كانت غير مباشرة استخلصتها من تلك الظروف العصيبة التي عاش تحت وطأتها الطفل منها على سبيل المثال مشاهد الغصب والتهجير القسري والهروب من العدو القوي في حالة هجومه؛ هذه الظروف التي من شأنها أن تترك أثرا في نفسه؛ وذلك مثلما حدث عندما قام الجيش الحفصي بالهجوم على تلمسان وما وراءها سنة 640هـ/1242م ما نتج عنه هروب السلطان يغمراسن وذويه والتحصن بإحدى القلاع يصف ابن خلدون ذلك قائلا: "ونجا يغمراسن بن زيّان وبنو عبد الوادى بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامززدكت قبلة وجدة فاعتصموا بها"[1]، وخلال الأحداث الأخيرة التي شهدتها فترة السلطان أبي تاشفين حينما دخلت عليه بني مرين في رمضان سنة 737هـ/1336م كان يقاتل دون الحرم والأولاد[2].

ومن القرائن أيضا التي تكشف لنا عن مشاعر الخوف من احتمال هجوم العدو هو ما حدث في إحدى تلك الهجومات[3] "...وانفض أهل البلد إليه، وبعضهم بعياله وولده، مستمسكين به متفادين من معرّة هجوم عساكر المغرب"[4]. وقد استعرضنا فيما سبق نازلة أفادتنا فيما يخص حالة الخوف التي اعترت أهل القرية التي هاجمها الأعراب[5] ومن بينهم الأطفال الذين كانوا ضمن المصابين بالخوف والذعر نتيجة تلك الهجومات.

من خلال ما تم عرضه حول هذه الشرائح وما وقع عليها من صدمات ونكبات بسبب الحرب وتأثيراتها القصيرة المدى والبعيدة المدى؛ جعلها تعيش في مواجهة نفسية مع الحرب والصراع؛ فكلما تزايدت ضغوط الحرب تزايد معدل أعراض الاضطرابات والمشكلات النفسية؛ ولابد أنّ هذا الوضع في النهاية أفرز فئة غير طبيعية أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مريضة نفسيا تعاني مشاعر الضغط (Stress) والقلق الدائم، والخوف من المستقبل المجهول.

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 97/7.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. ("دون" معناها "عن" أي كان يقاتل دفاعا عن الحرم والأولاد).

[3]- هذا الهجوم هو عبارة عن رد فعل من السلطان عبد العزيز المريني نتيجة أعمال التخريب التي قام بها السلطان أبو حمو الزياني أثناء حصاره لمدينة تازى وتخريبه لقصر الملك ومسجده المعروف بقصر تازورت. للتفصيل أكثر حول هذه الوقائع انظر: ابن خلدون، العبر، 413/7-415.

[4]- المصدر نفسه، 414/7.

[5]- "عن أهل قرية جاءتها أعراب خيلا ورجالا بنجوعها، فقاتلهم من بقي بها يوما واحدا، وكان الجل من أهل القرية قد فرّ بنفسه وبعياله...فاشتدّ الخوف...".

ثانيا: الوضع النفسي للمجتمع الزياني كما تعكسه النقوشات الواردة على النقود

يُقال أن عن طريق دراسة النقود يمكن فك كثير من غوامض التاريخ والاقتصاد والسياسة ومجالات حضارية أخرى[1]؛ ونطمح من خلال هذه الدراسة إلى إبراز الدور المهم الذي لعبته النقود المضروبة بمدينة تلمسان مرحلة الدراسة، وذلك من خلال تحليل تلك الكتابات والنقوش التي سوغت على الدنانير والدراهم الزيانية، والتي عكست مدى ارتباط تلك النقوش الكتابية بالأوضاع السياسية المضطربة التي مرت بها الدولة نتيجة للصراع المستمر بينهم وبين جيرانهم المرينيين.

وبناءا على ما تقدم يمكن لنا أن نطرح الإشكاليات التالية: **ماذا كانت تعكس الأدعية والآيات القرآنية التي نقشت على السكة الزيانية؟ هل احتفظت العملة الزيانية بقيمتها المعدنية ووزنها رغم ما شهده العصر من تدهور اقتصادي بسبب الحروب؟**

سيتم التركيز في هذه الدراسة على خمسة نماذج من الدنانير ودرهم واحد والتي ضربت في مدينة تلمسان خلال القرن الثامن الهجري، وقد كانت هذه النقوش بمثابة مرآة عاكسة لذهنية السلاطين ونفسيتهم المتأثرة بالظروف التي آلت إليها الدولة وما شهدته من مآسٍ نتيجة الحروب والحصار.

1- دينار مضاعف ضرب في مدينة تلمسان على عهد أبي حمو موسى الأول بن عثمان (707-718هـ/1307-1318م). وزنه 4.66 غ[2].

هذا أول دينار سنسوقه في هذه الدراسة وحسبما يذكر الأستاذ أسامة أحمد مختار حسن مصطفى[3] بأنّ هذا الدينار متواجد بمتحف قطر الوطني[1] وقبل الولوج إلى تحليل ما كتب على هذا الدينار يجب استعراض تلك العبارات كاملة على النحو الذي كتبت عليه.

---

[1]- دنيال، أوسطاش: تاريخ النقود الإسلامية وموازينها في المشرق وبلاد المغارب من البدايات الأولى إلى الآن، ترجمة: محمد معتصم، ط1، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011، ص11.

[2]- مزدور، "المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط"، ص204.

[3]- أنجز الأستاذ أسامة مصطفى وهو أستاذ المسكوكات الإسلامية بجامعة سوهاج دراسة قيّمة حول النقود التي تداول على ضربها سلاطين بني زيان وبني مرين في مدينة تلمسان؛ كما قدم تحليلات جادة لمختلف النقوشات التي سوغت عليها، وهو أوّل من قام بنشر بعض هذه النقود وإخراجها إلى النور ومنها: الدينار الأول وهو الدينارالمضروب فيعهد أبي حمو موسى الأول، والدينار الثاني وهو دينار أبي تاشفين عبد الرحمن الأول؛ وهاذان الدينارانِ كانا متواجدين في متحف قطر الوطني؛ كما كان له الفضل في إخراج دينار آخر ودرهم كانا محفوظين في مجموعة توبنجن بألمانيا (**FINT**)؛ والدينار يعود إلى عهد السلطان أبي عنان فارس المريني ضربه في مدينة تلمسان عندما تمكن من السيطرة عليها سنة

الوجه		الظهر	
المركز:	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وعلى آله لا إله إلا الله محمد رسول الله ما أقرب فرج الله	المركز:	عن أمر عبد الله موسى أمير المسلمين المتوكّل على ربّ العالمين أيده الله ونصره
الطوق	وإلهكم اله/ واحد لا إله/ إلا هو/ الرحمن الرحيم	الطوق	ضرب بمدينة/ تلمسان/حرسها الله/ تعالى وأمنها/

نلاحظ على وجه هذا الدينار أنّ ما كتب موّزع على خمسة أسطر أوّل سطر يحتوي على البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) كاملة ثم في السطر الثاني التصلية على الرسول (صلى الله على محمد وعلى آله)، وهو ما يبين بأنّ الدولة الزيانية على المذهب السنّي؛ ثم تليها شهادة التوحيد والرسالة المحمدية في السطرين الثالث والرابع بعبارة (لا إله إلا الله) (محمد رسول الله)، ولا غرابة أنّ مثل هذه العبارات كلها متداولة على النقود الإسلامية منذ تعريبها على يد الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/684-705م)[2].

وجاء في السطر الخامس عبارة "ما أقرب فرج الله"[3]، وإن كانت هذه العبارة ذات طابع ديني لكنها تحمل بعدا سياسيا، لأن الظروف التي ضُربت فيها هذه النقود كانت استثنائية بالنسبة لتلمسان لأنها تعرضت للحصار سنة 714هـ/1314م من طرف السلطان المريني أبي سعيد عثمان (710-732هـ/1310-1331م)[4]، وبما أنّ السلطان أبا حمو كان حسبما يصفه ابن خلدون "صارما يقظا

753هـ/1352م، وكذلك الدرهم المريني الذي ضرب في بالمدينة نفسها خلال القرن الثامن الهجري لكننا نجهل صاحبه.

[1]- ويشير هذا الأستاذ إلى وجود نماذج أخرى مشابهة لهذا الدينار محفوظة في هذا المتحف.انظر:

Lavoix ,Henre : Catalogue des Monnes Musulmanes de la Bibliotheque Nationale. Vol. II, Espagne Et Afrique. Paris 1891, p.460 , no. 1010 ; Hazar Hary W :the Numismatic History of late medieval North Africa. New Yorth 1952, p. 182, no.646, pl. IV ;Mitchiner, Michael : the World of Islam, Oriental. Coins and Their Values. London 1977, p. 104, nos. 444-445.

[2]- محمد، عبد الستار عثمان: "دلالات سياسية ودعائية للآثار الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان"، مجلة عصور، ع1، دار المريخ للنشر، يناير 1989م، ص47-48.

[3]- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 103/4.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 236/1.

حازما داهية قوي الشكيمة، صعب العريكة، شرح الأخلاق ومفرط في الذكاء والحدّة"[1] فقد تمكن من صرف السلطان المريني عن حصار تلمسان باستخدام الحيلة في مخاطبة الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم، ويخادعهم عن نصائح سلطانهم وقد نجح أبو حمو في مسعاه هذا وتمكن من إيقاف الحصار وقفل السلطان أبي سعيد راجعا إلى فاس[2].

ويفهم أيضا من خلال هذا النص أن النقود تعد من أسرع وسائل الإعلام التي تحمل للرعية أراء وأفكار حكامهم[1] كما يمكن إعطاء بُعدٍ حِسِّيٍ لهذه العبارة من خلال كلمة الفرج[1] التي تعكس حالة الفرح والطمأنينة التي شعر بها أهالي تلمسان بعد النجاة بأنفسهم من مصير بائس.

واللافت للنظر حسبما تشير إليه أغلب المصادر التاريخية أنّ هذا الشعار ظهر لأوّل مرة على نقود بني زيان بمدينة تلمسان في عهد السلطان أبي زيان محمد الأول بن عثمان (703-707هـ/1303-1307م)[3]، وهو أوّل من تنبه إلى كتابة عبارة -ما أقرب فرج الله- تضرعا لله وتعبيرا عن شكره له بعد الظروف القاسية التي عاشها أهالي تلمسان الحصار الطويل الذي ضربه السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685-706هـ/1286-1306م) في نهاية القرن السابع الهجري، والذي دام أكثر من ثماني سنوات عاملا على تشديد الخناق عليهم حتى اشرفوا على الهلاك بسبب الجوع والخوف، وقد انتهى هذا الحصار بمقتل السلطان يوسف المريني سنة 707هـ/1307م فكفى الله العناءة على أهل تلمسان ورفع عنهم البلاء فكتبوا على سكتهم "ما أقرب فرج الله" تعبيرا عن شكرهم لله بعد الفرج، وينقل لنا ابن خلدون نصا في هذا الصدد حيث يقول: "وأذهب الله العناءة عن أل زيان وقومهم وساكني مدينتهم، فكأنما نشروا من الأجداث، وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغرابا لحادثتهما".[4]

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 117/7.

[2]- الطمار، تلمسان عبر العصور، ص119.

[3]- باستثناء النصوص التاريخية لا نملك شاهدا ماديا يثبت لنا وجود هذا الدينار على عكس الدنانير الأخرى؛ وهذا ما يؤكد عليه الدكتور عاطف منصور محمد رمضان حيث يقول: "لم تصلنا أية نقود من ضرب السلطان أبي زيان محمد الأول تحمل هذا الشعار يمكن خلالها تأكيد ما ورد في المصادر التاريخية". انظر رمضان، عاطف منصور: الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في الغرب والأندلس، القاهرة: منشورات مكتبة زهراء الشرق، 2002، ص221.

[4]- انظر ابن خلدون، العبر، 114/7. ابن خلدون، بغية الرواد، 231/1. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص61.

وكتب كذلك على هامش وجه هذا الدينار الآية الكريمة "**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**"؛[1] تثبت هذه الآية وحدانية الله سبحانه وتفرده بالألوهية لا نظير له ولا ند له، وقد نزلت هذه الآية لما قيل للرسول صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك، وقوله "لا اله إلا الله هو الرحمن الرحيم" نفي واثبات ومعناها لا معبود بالحق إلا الله.[2]

ونشير بالذكر إلى أنّ أوّل من كتب هذه الآية على نقودهم هم الموحدون على يد الخليفة عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/1129-1162م) لاتفاقها ومبدأ التوحيد الذي سار عليه المهدي بن تومرت.[3]

وعلى أثرهم ضرب بنو زيان وبنو مرين وبنو حفص وبنو نصر بغرناطة دنانير على النقش والوزن نفسه[4] وذلك بخلفية أنّ كل دولة تعتبر نفسها الوريثة الشرعية للعرش الموحدي فظهر ذلك على نقودهم كتعبير عن ولائهم لهذه الدولة والسير على نهجها.

أما على ظهر الدينار فإننا نلاحظ الشيء نفسه فالكتابات موزعة على خمسة أسطر، وقد كتب على الأسطر الثلاثة الأولى عبارة "عن أمر عبد الله /موسى أمير/ المسلمين المتوكل/ نفهم من خلال هذه العبارة أن السلطان أبا حمو موسى الأول هو من أمر بضرب هذا الدينار عندما كان أميرا على العرش الزياني.

أما عبارة "المتوكل /على رب العالمين/ أيده الله ونصره" فتعني بأن صاحب هذه العبارة فوّض أمره لله[5] وهي تعبير منه أنه وفي تلك الظروف القاسية ليس له ولقبيله إلا التمسك بالله والتضرع إليه بالدعاء ليرفع عنهم ذلك البلاء والشقاء من جراء الحصار المفروض عليهم من طرف بني مرين.

---

[1]-سورة البقرة آية 162

2- أبو عبد الله محمد، بن محمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، (د.ب): دار الكتاب العربي، 1967، ج2/190-191.

3- مصطفى، أحمد مختار حسن: "العلاقات السياسية بين دولتي بني مرين وبني زيان في القرن 8هـ/14م كما تعكسها النقود"، ضمن كتاب – تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني- ج2، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ص123.

4- أوسطاش، تاريخ النقود الإسلامية، ص77.

5- منصور عاطف، الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في الغرب والأندلس، ص 144-145.

والعبارة الأخيرة التي نقشت على السطر الخامس وهي "أيّده الله ونصره"[1] فمن خلال العبارة دعاء إلى الله للتأييد والنصرة على أعدائه من بني مرين، في ظل تلك الظروف المتوترة.

وأخيرا كتب على هامش الظهر عبارة "ضرب بمدينة /تلمسان /حرسها الله/ تعالى وأمنها/" وهو دعاء لمدينة تلمسان التي شهدت ضربات متكررة من الشرق والغرب، والتعرض للحصار عدة مرات مما أنهك قواها، فجاء هذا الدعاء لرفع البلاء عليها وأن يحميها من أي خطر قادم، ونجد هذه العبارة أيضا مكتوبة على نقود بني نصر بالأندلس،[2] ومما لاشك فيه أنّ هذا الدعاء من أجل غرناطة وأهلها كي يحميهم الله من ضربات النصارى.

صفوة القول أن هذا الدينار ومن خلال الكتابات التي نقشت عليه من آيات قرآنية وأدعية عكست لنا من جهة الأوضاع الأمنية المتوترة بين الطرفين الزياني والمريني في تلك الفترة، والمتمثلة في الحصار الذي فرضه بنو مرين على تلمسان، وما له من تداعيات على الحالة النفسية للمجتمع الزياني بصفة عامة حيث استبدت بهم مشاعر الخوف والقلق والإحساس الدائم بالخطر الوشيك فترجموا ذلك على سكتهم من خلال التضرع إلى الله والدعاء إليه فهو القادر على خلاصهم من هذا الكرب.

ومما نستنتج أيضا أن النقود في تلك الفترة تعتبر بمثابة وسيلة من وسائل الإعلام، حيث قام السلطان بذلك بغرض سياسي دعائي يهدف من ورائه إلى بث روح الطمأنينة في قلوب بني زيان حتى يتمكنوا من الصمود أمام هذه المحنة ورفع المعاناة عنهم إلى أن يصرفها الله عنهم برفع الحصار،[3] وهنا أيضا نكتشف ذكاء السلطان أبي حمو باستخدامه للنقود كوسيلة لتوصيل رسالته إلى شعبه، بأنه متضامن معهم ويتقاسم آلامهم حتى يأتي الفرج.

1- المرجع نفسه، ص280.

2- صالح، بن قربة: "المسكوكات المغربية على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين خلال القرون السادس والسابع والثامن للهجرة (14/13/12 للميلاد)"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الجزائر، معهد الآثار، الجزائر، 1995/1994، ص806.

3- منصور عاطف، المرجع السابق، ص 125.

2-دينار مضاعف ضرب بمدينة تلمسان لأبي تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى (718-736هـ/1318-1335م). وزنه 4.58 غ وقطره32مم[1](ملحق رقم 1)

الوجه		الظهر	
المركز:	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد لا إله إلا الله محمد رسول الله ما أقرب فرج الله	المركز:	عن أمر عبد الله المتوكل على الله عبد الرحمن أمير المسلمين أيده الله ونصره
الطوق	وإلهكم إله/ واحد لا إله/ إلا هو/ الرحمن الرحيم/	الطوق	ضرب بمدينة/ تلمسان/ حرسها/ الله تعالى /

قبل الخوض في الحديث على النقوشات التي سجلت على هذا الدينار وما هي الدلالات والمعاني التي اكتسبتها؛ نلاحظ أنّ هذا الدينار قد احتفظ بالوزن والقطر مقارنة بالدنانير الذهبية للدولة الزيانية التي ضرب في المراحل السابقة للدولة وهو ما يوحي إلى أنّ الدولة مازالت تحتفظ بقوتها الاقتصادية.

إنّ المتأمل في هذا الدينار والنقوشات التي سجلت عليه لا يجد أي اختلاف مقارنة بدينار أبي حمو موسى الأول؛ فقد سجل على وجه هذا الدينار خمسة جمل موزعة على خمسة أسطر كما يلي: "بسم الله الرحم الرحيم/ صلى الله على محمد / لا اله إلا الله/ محمد رسول الله/ ما أقرب فرج الله" والملاحظ أيضا أنّ الكتابات كلها متشابهة باستثناء التصلية حيث كتبت بصيغة "صلى الله على محمد" في حين جاءت مكتوبة على دينار أبي حمو الأول بصيغة "صلى الله على محمد وآله" أي تزيد بكلمة واحدة وهي "آله" وهم آل محمد.

إذن على العموم لا نلاحظ أي اختلاف يستدعي الذكر وسيبقى تركيزنا فقط عن السبب الذي جعل السلطان أبي تاشفين يحذو حذو أبيه ويقوم هو الآخر بتسجيل عبارة -ما أقرب فرج الله- على ديناره؛ **فما هو بعدها في ذهنية السلطان أبي تاشفين؟**

1 -Lavoix : Op. Cit, pp.461-462 , no. 1012, 4.58 gr, 32 mm ; Hazard : Op. Cit ; pp. 182-183, no. 647, pl ; IV

إنّ تواتر الحروب والحصار على تلمسان الزيانية وما ينتج عنها من عنف واضطراب وخوف وقتل جماعي سيكون الدافع إلى التمسك بمثل هذه العبارات وعدم الاستغناء عن نقشها في نقودهم التي سبق وأن أشرت بأنها من أبرز وسائل الإعلام في هذه الفترة.

فبعد أن أنعم الله على ساكني مدينة تلمسان الزيانية بالهدوء والأمن والاستقرار لفترة من الزمن، خرج السلطان أبو الحسن علي بن عثمان (732-749هـ/1331-1348م) سنة 735هـ/1334م عاملا على غزو تلمسان فنزل بالمنصورة يوم 11 شوال من السنة نفسها فأحاطت عساكره بتلمسان لمدة سنتين[1] مما أدى إلى دخول أهلها في دوامة أخرى من الشدّة والفقر والجوع والخوف حتى أشرفوا على الهلاك، وانطلاقا من هذه الظروف سجّل السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن هذا الدعاء على نقوده عسى أن يرفع الله عنه وعن رعيته هذا البلاء ويعجل فرجا قريبا.[2]

فقد أصبح لهذه العبارة – ما أقرب فرج الله- بعدا معنويا في ذهنية بني عبد الواد حكاما ورعية فهي تذكرهم بفضل الله عليهم حين أنعم عليهم بالفرج في الأزمات السابقة التي مروا بها في عهد أبي زيان محمد، وأبي حمو موسى الأول، وعلى نهجهم سار أبو تاشفين على هذا التقليد طمعا في كرم الله أن يرفع عنهم مرة أخرى هذا البلاء كما رفعه في المرات السابقة؛ لكن مشيئة الله قدّرت شيئا آخر فقد انتهى هذا الحصار بسقوط تلمسان في يد السلطان أبي الحسن في ذلك اليوم المشؤوم.[3]

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. الطمار، المرجع السابق، ص128-129.

2- مصطفى أحمد مختار، "العلاقات السياسية بين دولتي بني مرين وبني زيان"، ص127.

[3]- يوم الأربعاء 28 رمضان 737هـ/29 أفريل 1337م. ابن خلدون، بغية الرواد، 243/1. ابن خلدون، العبر، 305/7. الناصري، الاستقصا، 125/3.

3- دينار مضاعف ضرب بمدينة تلمسان لأبي الحسن علي بن عثمان المريني (737-749هـ/1336-1348م)[1].

الوجه		الظهر	
المركز:	الواحد الله محمد رسول الله القرآن كلام الله نعم القادر الله ما أقرب فرج الله	المركز:	الشكر لله والمنة لله والحمد لله والعظمة لله والحول والقوة بالله
الطوق	بسم الله الرحمن الرحيم/صلى الله على سيدنا محمد/ وإلهكم إله واحد /لا إله إلا هو الرحمن الرحيم/	الطوق	هو الأول والأخير / والظاهر والباطن / وهو بكل/ شيء عليم/

بالنسبة للشكل الخارجي لهذا الدينار فهو لم يتغير وبقي على الشكل نفسه الذي كان عليه في عهد كل من السلطانين أبي حمو موسى الأول، وابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الأول، أما وزنه والسنة التي تم سكه فيها فإننا لا نمتلك معطيات بشأن ذلك، ولكن المهم بالنسبة لدينا هو التركيز على الكتابات التي أمر السلطان أبو الحسن بنقشها عليه، لأننا نلاحظ تغييرا جذريا في هذه العبارات باستثناء جملة واحدة وهي –ما أقرب فرج الله- التي بقيت على حالها وفي موضعها. فيا ترى **ماذا يريد السلطان أبو الحسن قوله من خلال هذه العبارة؟**

لا نستغرب حدوث مثل هذا التغيير في النقود الزيانية لأنّ الدولة شهدت تغيرات سياسية حاسمة فقد شهدت مرحلتين سياسيتين مختلفتين هما الحصار ثم التبعية.

[1]- عن نماذج مماثلة لدينار أبي الحسن علي بن عثمان الثاني انظر وليم قازان: المسكوكات الإسلامية، مجموعة خاصة، بنك بيروت،بيروت . لبنان، 1983م، ص 281 رقم 370، انظر أيضا:

– Hazard : Op. Cit ; p.208, no. 760 ; Mitchiner : op. cit, p. 108, no. 47

كتب على وجه دينار السلطان أبي الحسن المريني في السطر الأول عبارة "الواحد الله" وهو إقرار بوحدانية الله عز وجل، ثم التصلية في السطر الثاني بصيغة "محمد رسول الله"، وهذا تأكيد على أن الدولة المرينية سنية، ثم تأتي في السطر الثالث عبارة "القرآن كلام الله" وهي العبارة الخاصة بالدولة المرينية،[1] ومعناها أنّ القرآن منزل من عند الله عز وجل الواجب إتّباعه والعمل به.[2]

أما السطر الثالث فقد نقشت عليه عبارة "نعم القادر الله"، وعلى الرغم أنها عبارة دينية هي الأخرى لكن السلطان المريني أضفى عليها بعدا سياسيا فهو يقرّ بقدرة الله وبفضله على ما ناله في تلك المرحلة من انتصارات متتالية،[3] كيف لا ومشروعه السياسي بدأ يتحقق من خلال إخضاعه لبني عبد الواد وبني حفص،[4] في إطار رغبته في توحيد كافة المغرب الإسلامي واستعادة أمجاد الموحدين.

نأتي الآن إلى العبارة الشهيرة التي أصبح لها بعدان اثنان وهي عبارة –ما أقرب فرج الله– فكما أسلفت القول أن سلاطين بني عبد الواد وأخص منهم السلطان أبا حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318)، وأبا تاشفين الأول (718-736هـ/1318-1335م) كتبوها على سكتهم من خلفية ذهنية معينة وهي التضرع إلى الله والدعاء إليه بأن يرفع البلاء الذي أنزله عليهم بنو مرين من خلال إعمال الحصار على بنو عبد الواد وما ينجرّ عن ذلك من مآسٍ وشدّة وموت محقق.

وفي المقابل نلاحظ أن السلطان أبا الحسن المريني سيتخذ هو الآخر النقود كوسيلة دعائية يعلن من خلالها انتصاره وبسط سلطانه على تلمسان، حيث أنه سيقوم بضرب دينار مريني في مدينة تلمسان، معبرا على ذلك بالعبارة نفسها مكتوبة على الوجه نفسه والسطر نفسه وهي –ما أقرب فرج الله– ولم يبق الأمر عند هذا الحد بل حرص على أن يسجل على دنانيره أسماء المدن التي تمكن من إخضاعها مثل تونس

---

[1]– يشير الأستاذ أوسطاش بأنه يمكن التمييز بين الدول الإسلامية من خلال ما نقش على نقودها حيث أن لكل دولة عبارة خاصة بها، فعبارة "المهدي إمام الأمة" هي عبارة موحدية، و "المهدي خليفة الله" عبارة حفصية، و"القرآن كلام الله" عبارة مرينية، و"لاغالب إلا الله" عبارة نصرية، في حين نجد إقصاء منه للعبارة الخاصة بالدولة الزيانية. انظر: تاريخ النقود الإسلامية وموازينها في المشرق وبلاد المغارب من البدايات الأولى إلى الآن، ص77.

2 مصطفى أسامة، المرجع السابق، ص129.

[3]– تمكن جيش السلطان أبي الحسن المريني من إسقاط العديد من مدن المغرب الأوسط في مرحلة وجيزة حيث أخضع ندرومة سنة 735هـ/1334م، وبعدها في سنة 736هـ/1335هـ أخضع وهران وهنين وملیانة وتنس والجزائر والمدية. الناصري، الاستقصا، 124/3.

[4]– المصدر نفسه، 124/3-127.

والجزائر وبجاية وسجلماسة، كما قام بجمع العبارات الدينية والدعائية لكل من نقود الزيانيين والحفصيين على دنانيره الذهبية فسجل عليها شعار بني زيان —ما أقرب فرج الله- وكذلك شعارات الدولة الحفصية[1].

ومن هنا يمكن القول أنّ هذه العبارة أصبحت لها وظيفة مزدوجة فقد استخدمت من طرف بني عبد الواد وبني مرين، في ظرفين سياسيين مختلفين خلال القرن الثامن للهجري الرابع عشر الميلادي.

أما على هامش وجه هذا الدينار فقد كتب "بسم الله الرحمن الرحيم/ صلى الله على سيدنا محمد" وهاتان العبارتان ونعني بهما البسملة والتصلية هي شعار النقود المرينية، وبعدها تأتي الآية الكريمة **"وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ"**[2].

وفيما يتعلق بكتابات ظهر هذا الدينار فقد سجلت أسطر المركز الخمسة العبارات التالية موزعة على خمسة أسطر على التوالي وهي: "الشكر لله" و"المنة لله" و"الحمد الله" و"العظمة لله" و"الحول والقوة بالله". وبالنسبة للعبارات الثلاثة الأولى فهي تبين أنّ السلطان أبا الحسن يشكر الله على ما أنعم عليه من فضل وخير؛ وعبارة "المنة لله" معناها أنّ الله هو صاحب الفضل عليه فيما حققه من انتصار على بني عبد الواد وبني حفص، والمعنى نفسه تؤديه عبارة "والحمد الله" إذ أنه يحمد الله على ما حققه على أعدائه وتمكينه من إخضاعهم.

بعدها وفي السطر الرابع نقشت عبارة "والعظمة لله"، والعظمة صفة من صفات الله عز وجل العلي العظيم، وتليها عبارة "والحول والقوة بالله"؛ ومعناها أنّ الإنسان لا يقدر على شيء من دون عون الله، وهي اعتراف من السلطان المريني أبي الحسن بفضل الله عز وجل على ما أنجزه من انتصارات على أعدائه.

في حين سُجلت على هامش ظهر هذا الدينار الآية الكريمة **"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**،[3] ويبدو أنّ هذا النقش يعود إلى عهد السلطان يغمراسن بن زيان؛[4] وقد كتبها السلطان أبو الحسن المريني على نقوده ليعلن أنّ الله عز وجل يتّصف بالصفات الموضّحة في الآية

---

1 – http://knoz1.mosw3a.com/showthread.php?t– 4646

[2]– سورة البقرة، الآية –162–

[3]– سورة الحديد، آية –3– يشير ابن العربي في تفسيره لهذه الآية قائلا: "وقد بينا تفسير هذه الأسماء، وحققنا أنّ الأول هو الآخر بعينه لأنه واحد، وأنّ الظاهر هو الباطن، وأنّ الأول هو الباطن، وأنّ الآخر هو الظّاهر، إذ هو واحد تختلف أوصافه، وتتعدد أسماؤه، وهو تعالى واحد". انظر ابن العربي، أحكام القرآن، 177/4.

[4]– مصطفى أسامة، المرجع السابق، ص132.

الكريمة هو وحده العليم بحاله لذا فهو من جزاه الجزاء الأوفى، ومكنه في الأرض فجعل سلطانه يمتد على كامل بلاد المغرب؛[1] وقد ظلت هذه الآية من أبرز خصائص السكة المرينية الذهبية حتى سقوط الدولة.[2]

4- دينار مضاعف ضرب بمدينة تلمسان لأبي عنان فارس المتوكل على الله (749-795هـ/1348-1392م)[3]ضرب بعد غزو سنة 753 هـ/ 1352م.

	الوجه		الظهر
المركز:	بسم الله الرحمن الرحيم صلي الله على محمد والحمد لله وحده لا اله إلا الله محمد رسول الله	المركز:	ضرب بمدينة تلمسان عن أمر عبد الله فارس أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين
الطوق:	وإلهكم / اله واحد / لا اله إلا هو / الرحمن الرحيم /	الطوق:	هو الأول والآخر / والظاهر والباطن / وهو بكل/ شيء عليم/

من ناحية الشكل لا يوجد اختلاف بين هذا الدينار والدنانير الثلاثة السابقة سواء الزيانية أو المرينية، أما الوزن والقطر فيه اختلاف حيث نلاحظ انخفاظا في الوزن والقطر، فمن خلال عملية مقارنة بين هذا الدينار الذي نحن بصدد دراسته مع الدنانير السابقة التي ضربت في عهد كل من السلطانين الزيانيين أبي يحي يغمراسن وأبي تاشفين الأول فإننا نلاحظ انخفاظا في الوزن والقطر؛ حيث أنّ الدينار المضروب في عهد السلطان يغمراسن كان وزنه يتراوح بين 4.48 غ و4.95 غ وطول القطر بين 31 مم و

---

[1]- المرجع نفسه، ص132.

[2]- صالح بن قربة، المسكوكات المغربية، ص809.

[3]- Hazard : Op. Cit ; p. 209, no. 770.

نلاحظ تشابها كبيرا بين الدنانير التي ضربها السلطان أبو عنان فارس المريني في عاصمة دولته فاس والعاصمة الجديدة تلمسان بعد أن تمكن من السيطرة عليها؛ مع اختلاف طفيف في كتابة التصلية فقط؛ حيث كتبت على الدينار الذي سكه في مدينة فاس بصيغة "صلى الله على سيدنا محمد" يعني بزيادة كلمة (سيدنا) ويتجلى الاختلاف كذلك في اسم المدينة التي ضرب فيها الدينار. انظر أوسطاش، المرجع السابق، ص78.

34مم، ودينار أبي تاشفين يقدر وزنه 4.58 غ وقطره 32مم كما أشرت سابقا، في حين يقدر وزن الدينار المضروب بمدينة تلمسان في عهد أبي عنان فارس 4.64 غ وطول القطر 27 مم[1].

وعموما فإنّ تدهور قيمة العملة مرتبط بخزينة الدولة وقوتها الاقتصادية وهذا ما يدل على الانحطاط الاقتصادي الذي شهدته الدولة الزيانية في هذه المرحلة بسبب النفقات العسكرية الكبيرة من أجل الحروب المتكررة[2]، كما نشهد أيضا في هذه المرحلة سقوط تلمسان العاصمة.

كذلك بالنسبة لما كتب فهناك اختلافات واردة في العبارات المنقوشة على وجه وظهر هذا الدينار مقارنة بالدنانير السابقة حيث نلاحظ استغناء هذا السلطان على كتابة عبارة –ما أقرب فرج الله– على ديناره.

وجاء ضمن كتابات مركز الوجه لهذا الدينار البسملة كاملة "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم التصلية بصيغة "صلى الله على محمد" ثم تليها عبارة " والحمد لله وحده" وبعدها " لا إله إلا الله" وفي السطر الأخير "محمد رسول الله"، وهذه العبارات الدينية مألوفة ليس في الدينار الزياني و المريني فحسب وإنما في الدينار الإسلامي بصفة عامة.

وفي إطار تحليل العبارات الواردة نلاحظ أن صيغة البسملة والتصلية جاءت مشابهة لتلك الصيغة التي كتبت على مركز وجه النقود الزيانية المضروبة في عهد كل من السلطان أبي حمو موسى الأول والسلطان أبي تاشفين عبد الرحمان الأول، أما عبارة "والحمد لله وحده" وإن كان فيها اختلاف طفيف في الكتابة مقارنة بدينار أبي الحسن علي بن عثمان حيث كتبت على مركز ظهر هذا الدينار بصيغة "الحمد لله" فإن المعنى بقي نفسه حيث أن كلاهما عبر على حمده وشكره لله تعالى على نجاحه في الاستيلاء على عاصمة الدولة تلمسان وإخضاع أهلها.

وبالنسبة للسلطان أبي عنان فارس فإن نجاحه لم يتوقف على إخضاع تلمسان سنة 753هـ/1352م[3] وحدها وإنما تمكن كذلك من السيطرة على بلاد الحفصيين[4]؛ وعلى هذا الإنجاز الكبير

---

[1]– **Hazard : Op. Cit ; p. 209, no. 770.**

[2]– على غرار ما حدث في عهد عمر بن الخطاب أوائل الفتح العربي حيث أنهك بيت المال النفقات العسكرية، وأعطيات الجند منها على الخصوص فقام الخليفة عمر بخفض درهم التعامل من 15 قيراطا إلى نحو 13 قيراطا. انظر أوسطاش، المرجع السابق، ص45-46.

[3]– ابن خلدون، العبر، 7/ 341-342.

[4]– المصدر نفسه، 7/ 343-346-347-352-353.

حمد الله كثيرا وأثنى عليه[1] وعلى هامش وجه هذا الدينار كتبت الآية الكريمة "**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**"[2] على غرار الدنانير السابقة الزيانيةوالمرينية فإن السلطان أبا عنان فارس يقر من خلالها على وحدانية الله وفضله ورحمته فيما حققه من نجاح من خلال الاستيلاء على مدينة تلمسان التي أصبحت مقرا لحكمه.

وفيما يتعلق بمركز ظهر هذا الدينار فقد نقش ما يلي: " ضرب بمدينة / تلمسان / عن أمر عبد / الله فارس أمير / المؤمنين..."، ونشير أنّ هذه العبارات سبق وأن كتبت على دنانير كل من السلطان أبي حمو موسى الأول والسلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول، وهي في مجملها تبين أنّ هذا الدينار ضرب في مدينة تلمسان بعد غزوها من طرف السلطان المريني أبي عنان فارس سنة 752هـ/1351م؛ وهو أول سلطان مريني يقبل على كتابة اسمه على الدينار الزياني، إذ لم يُقبِل والده أبو الحسن على ذلك من قبله. فهل يقصد من وراء ذلك تأكيدا على إسقاط عرش بني زيان وإخراجهم نهائيا ليس عن زعامة تلمسان فحسب وإنما رغبة في التسلط والزعامة على ملك وعرش زناتة كلها؟ أما من خلال عبارة "المتوكل على رب العالمين" فهي إيمان منه بأن التوكل على الله لا لغير في كل الأمور.

وعلى هامش ظهر هذا الدينار كتبت الآية الكريمة "**هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**"[3] وهذه الآية تم تسجيلها على النقود السابقة الذكر لبني زيان وبني مرين، ويبدو أن السلطان أبا عنان يريد أن يبين من خلالها أن الله عز وجل جزاه خيرا الجزاء من خلال توفيقه وإعانته على بسط نفوذه على كامل المغربين الأوسط والأدنى[4].

---

[1]- رمضان، الكتابات غير القرآنية، ص300.

[2]- سورة البقرة آية 162.

[3]- سورة الحديد، آية 3.

[4]- بعدما تمكن السلطان أبي عنان المريني من اقتحام تلمسان وغزوها سنة 752هـ/1351م استطاع أن يخضع بعض الأقاليم والمدن الأخرى، فاستولى على بجاية 754هـ/1353م، ثم مدينة قسنطينة في 12 شعبان من السنة نفسها ثم إفريقية عاصمة الحفصيين سنة 758هـ/1356م). ابن خلدون، العبر، 7/341-342-347-353. الناصري، الإستقصا، 202/3. الطمار، المرجع السابق، ص144.

5- دينار مضاعف ضرب بمدينة تلمسان لأبي فارس عبد العزيز الأول بن علي (767-774هـ/1366-1372م)[1].

الوجه		الظهر	
المركز:	بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله والحمد لله وحده لا إله إلا الله محمد رسول الله	المركز:	ضرب بمدينة تلمسان عن أمر عبد الله أمير المسلمين عبد العزيز ابن الخلفاء الراشدين أيده الله ونصره
الطوق:	وإلهكم / إله واحد / لا إله إلا هو / الرحمن الرحيم /	الطوق:	هو الأول والأخر / والظاهر والباطن / وهو بكل/ شيء عليم /

من خلال مقارنة الكتابات التي نقشت على وجه هذا الدينار مقارنة بالدينار الذي سبقه وهو دينار السلطان أبي عنان فارس فإننا نلاحظ أن الكتابات مشابهة تماما ماعدا اختلاف طفيف في التصلية من خلال إضافة كلمة (وآله) في دينار أبي فارس عبد العزيز المريني الأول، وهي في ذلك على نحو التصلية الواردة في دينار أبي حمو موسى الأول.

في حين نسجل بعض الاختلافات فيما يخص الكتابات المسجلة على مركز ظهر هذا الدينار وقد جاءت بالصيغة التالية: "ضرب بمدينة تلمسان / عن أمر عبد الله أمير / المسلمين عبد العزيز / ابن الخلفاء الراشدين / أيده الله ونصره /" ويكمن الاختلاف أولا في اسم السلطان مع الاحتفاظ باللقب الذي استحدثه السلطان أبو فارس وهو "أمير المؤمنين" أما السلطان فهو أبو فارس عبد العزيز صاحب هذا الدينار الذي نحن بصدد دراسته، في حين يكمن الاختلاف الثاني في عبارة "ابن الخلفاء الراشدين" المسجلة في السطر الرابع، وهي تدل على فخر السلطان أبي فارس عبد العزيز الأول بآبائه وأجداده الذين اعتبرهم

[1] – **Hazard** : **Op. Cit ; p. 214, no. 794.**

من سلالة الخلفاء الراشدين، أصحاب السيرة الحسنة والحكم العادل، والجهاد ضد الزيانيين[1]. وتليها في السطر الخامس عبارة "أيده الله ونصره" فإنها تحمل المعنى السابق نفسه وهو أنّ النصر والتأييد من عند الله بتمكينه من الاستيلاء على مدينة تلمسان في عاشوراء سنة 772هـ/ 1370م[2].

ويعتبر هذا آخر دينار ضرب في تلمسان على يد ملوك بني مرين، على الرغم من تمكن السلطان أبي العباس أحمد بالله ابن أبي سالم (789-796هـ/1387-1393م) من الاستيلاء على تلمسان سنة 786هـ/1384م وذلك في عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م)، لكنه لم يتمكن من المكوث فيها لأسباب سياسية أمنية اضطرته إلى العودة إلى فاس عاصمة ملكه[3].

6- درهم بني مرين ضرب بمدينة تلمسان في القرن الثامن الهجري.[4]

الوجه		الظهر	
المركز:	لا اله إلا الله الأمر كله لله ما أقرب فرج الله تلمسن [هكذا]	المركز:	الله ربنا محمد رسولنا القرآن إمامنا

نلاحظ اختلافا في الكتابات المنقوشة على هذا الدرهم مقارنة بما نقش على الدنانير السابقة الذكر الزيانية منها والمرينية، فقد سجل على مركز وجه هذا الدرهم أربع عبارات موزعة على أربعة أسطر، نقش على السطر الأول عبارة "لا إله إلا الله" وهو إقرار بوحدانية الله وكتبت على السطر الثاني عبارة

[1]- مصطفى أحمد مختار، المرجع السابق، ص137.

[2]- ابن خلدون، العبر، 390/7. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص33-56.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص414.

[4]- هذا الدرهم محفوظ في مجموعة توبنجن بألمانيا **FINT** (سجل 43-16-95). يقدم لنا أسامة أحمد مختار موصفات هذا الدرهم قائلا: "يتألف الوجه العام لهذا الدرهم من وجه نقش على مركزه أربعة أسطر من الكتابات الأفقية يحيط بها ثلاثة مربعات بارزة متداخلة، الأوسط يتألف من حبيبات متماسة، يلي ذالك حافة الدرهم، أما الظهر فله الشكل نفسه لكنه يحتوى على ثلاثة أسطر من الكتابات".انظر أحمد مختار حسن، "المرجع السابق، ص138. أوسطاش، المرجع السابق، ص78.

"الأمر كله لله" وهي من العبارات الشائعة للدنانير المرينية[1]، وتعني أنّ الآمر بتسجيلها قد فوض أمره لله القادر على كل شيء[2] في حين نلاحظ عودة العبارة الشهيرة –ما أقرب فرج الله– التي سجلت على السطر الثالث وهي العبارة التي تداولها سلاطين بني زيان ثم سلاطين بني مرين على دنانيرهم في مدينة تلمسان؛ وفي السطر الرابع سجل اسم المدينة التي ضرب فيها هذا الدرهم وهي مدينة تلمسان، مع اختلاف في كتابة هذا الاسم حيث جاء مكتوب "تلمسن"[3].

وبالنسبة لمركز ظهر هذا الدرهم فقد كتب على السطر الأول "الله ربنا" وهي من العبارات المألوفة في الدنانير المرينية[4] أما المعنى فهو إقرار بربوبية الله وحده لاشريك له، أما السطر الثاني فقد سجل عبارة "محمد رسولنا" وهي العبارات المميزة بالدراهم المرينية[5] وتبين كذلك سنيّة الدولة المرينية،وفي السطر الثالث والأخير نقشت عبارة "القرآن كلام الله" وهي خاصة بالدنانير المرينية[6].

ويستنتج مما سبق أنّ عبارة –ما أقرب فرج الله– هي الشعار الخاص بنقود الدولة الزيانية، ويعد السلطان أبو زيان محمد أوّل من أمر بكتابتها على دينار الذهبي.

إذا كانت العديد من الحضارات الإنسانية قد عرفت النقد وتعاملت به نتيجة للضرورات الاقتصادية؛ فإنّ النقد الزياني امتاز عن غيره بخصوصية فريدة وهي أنه يعكس تلك الظروف والأوضاع السياسية المضطربة لفترة هامة من تاريخ الدولة وهي فترة القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي؛ كما اعتبرت النقود أيضا في هذه الفترة وسيلة إعلامية يُنقل من خلالها اديولوجية الحكام ومشاعر الرعية.

---

[1] -**Hazard** : **Op**. **Cit**. **PP**. **276–277**, **nos**. **1141–1147pl**. **Hit**.

[2]– أسامة مصطفى، المرجع السابق، ص138.

[3]– من المصادر الزيانية التي ذكر فيها اسم تلمسان بهذه الصيغة "تلمسن" كتاب بغية الرواد ليحي بن خلدون ونقل عنه المقري صاحب نفح الطيب، وهذه الكلمة بلغة زناتة وبالتالي لا غرابة إذا كتبت على النقود المرينية بهذه الصيغة. لكن وحسب ما رجحه الباحث أسامة أحمد مختار على أنه خطأ وارد ذهب في استدلاله بأنّ حذف حرف الألف من أسماء الأعلام من الأخطاء الواردة على النقود المرينية وهذا مستبعد، وفي احتمال آخر أن تكون هذه إحدى اللهجات أو أساليب الكتابة المتبعة لدى بني مرين. مما يدل على أنه لم يتحقق من المصادر الزيانية. انظر بغية الرواد، 122/1. نفح الطيب، 133/7. مصطفى أحمد مختار، المرجع السابق، ص139.

[4] – **Hazard**: **Op**. **Cit**., **p227** , **not**. **1147**,**pl**. **VIII**.

[5]–**Hazard** : **Op**. **Cit**., **p227** , **not**. **1147**,**pl**. **VIII**.

[6]– أوسطاش، المرجع السابق، ص77.

نستنتج أيضا أنّ عبارة –ما أقرب فرج الله– وما تحمله من مضمون روحي كان لها بعدٌ نفسيٌ ومعنوي في نفوس بني زيان حكاما ورعية، فبقدر ما أفرحتهم هذه العبارة وبعثت في نفوسهم الحياة من جديد حينما نجاهم الله من الحصار المريني مرتين بقدر ما أوقعت الخوف واليأس والشقاء في نفوسهم بعد أن أعلنها السلطان أبو الحسن على نقوده حينما تمكن من إخضاع مدينتهم، وهو ما أدّى إلى عزوف السلاطين الزيانيين الذي جاؤوا فيما بعد عن كتابتها في نقودهم.

في اعتقادي أنّ التدهور الذي شهدته العملة الزيانية في نهاية عهدها راجع إلى إفلاس خزينة الدولة بسبب النفقات العسكرية الكبيرة من جراء الحروب المتواصلة التي خاضتها الدولة ضد خصومها، يصفها لنا الوزان قائلا: "ويسك الملك نقودا من الذهب الرديء كالدنانير التي تسمى بسلاتشي(خفيفة)... ويسك أيضا نقودا فضية غير خالصة، وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع"[1] زد على ذلك فترات الحصار التي أنهكت اقتصاد الدولة، كما أن فقدان السيطرة على تجارة الذهب التي كانت تغذي مصانع ضرب العملة بالدولة أبلغُ سببٍ في ذلك.

[1]– الوزان، وصف إفريقيا، 23/2.

الفصل الثالث

سلوكيات المجتمع الزياني لمواجهة الحرب والحصار

المبحث الأول: الاجراءات السياسية لمواجهة الحرب.

المبحث الثاني: سلوكات المجتمع في المجال الاجتماعي.

المبحث الثالث: سلوكات المجتمع في المجال الاقتصادي.

المبحث الرابع: سلوكات المجتمع في الحياة الدينية.

المبحث الأول: الاجراءات السياسية لمواجهة الحرب

حتمت ظروف الحرب المستشرية التي شهدها المغرب الأوسط الزياني إلى قيام المجتمع على اختلاف فعالياته بأدوار مختلفة لمواجهة ظروف الحرب والحصارات التي تواترت عليهم خلال الفترة محل الدراسة. وهذا ما يدفعنا لطرح التساؤلات التالية: **فيما تتمثل السلوكات التي انتهجها الفرد الزياني لمواجهة مثل هذه الظروف؟ وما هي الفئات التي كان لها حضور قوي وأدوار إجابية في هذه الفترات ؟**

أولا: السفارات والمراسلات المتبادلة، عرض تاريخي زمني من خلال النصوص

كان نظام السفارات والبعثات الدبلوماسية معروفا عند الدول الإسلامية المتعاقبة، لذا حرص العديد من سلاطين الدولة الزيانية على انتهاج مثل هذا الأسلوب فقاموا ببعث السفارات وتبادلوا المراسلات الرسمية مع عدة أطراف في ظل النزاعات المستمرة بين الدولة الزيانية والأطراف الخارجية؛ وفي هذه الدراسة سيتم التركيز على أهم السفارات والمراسلات الرسمية المتبادلة بين الدولة الزيانية وبعض الأطراف الخارجية نتيجة الاضطرابات والفتن السياسية المتكررة. **فما هي أكثر الفترات التي استدعت الدولة لبعث السفارات للتفاوض مع خصومها؟ وهل نجحت هذه المفاوضات في إيقاف نزيف الحرب؟ ومن هي العناصر التي تولت القيام بهذه المهمة؟**

– دور العلماء في السفارة

اقتضت العلاقة التي قامت بين نخبة تلمسان والسلطة السياسية في العهد الزياني إلى تقديم العلماء خدمات جليلة، ولم تنحصر تلك الخدمات بما جادت قريحتهم من علم وفقه فحسب، بل اقتحموا عالم السياسة بأعمال وأدوار كثيرة[1]، ومن هذه الأدوار استخدامهم في السّفارات؛ خاصة أنه كانت السفارات لسان حال السلاطين في تلك الفترة ومفاوضا بالنيابة عنه، لهذا اعتبر السفير حلقة الوصل لتحقيق أهدافهم[2]. وقد قيل:"اختر رسولك في الحرب والمسالمة، فإنّ الرسول يلين القلوب ويخشنها، ويبعد الأمور ويقربها، ويصلح الود ويفسده"[3].

---

[1]– نبيل شريخي، دور علماء تلمسان، ص77.

[2]– آمال، سالم عطية: "دور العلماء والفقهاء في السفارة بين دول المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م)"، مجلة عصور الجديدة، ع 26-27، الجزائر، جويلية- ديسمبر 2015، ص179.

[3]– ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص345.

1- السفارات الزيانيةالمرينية

ونظرا لتعدد السفارات والبعثات الدبلوماسية مع الطرف المريني ارتأيت تقسيمها حسب فترات الحكم للسلاطين الزيانيين الذين مارسوا العمل الدبلوماسي واكتفيت بذكر بعض النماذج فقط.

أ- سفارات في عهد السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)

كانت أولى هذه السفارات هي التي بعث بها السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني إلى السلطان يغمراسن بني زيان سنة 669هـ/1270م بشأن الصلح والمهادنة؛ وكان وفد هذه السفارة يضم بعض الأشياخ من زناتة والعرب[1]، يدعونه إلى الصلح واجتماع الكلمة من أجل التفرغ للجهاد في الأندلس ونصرة المسلمين بها أمام خطر ألفونسو[2]؛ وقال لهم في جملة قوله: "إنّ الصلح خير كله فان جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك وإلاّ فأسرعوا إلي بالخبر"[3]؛ لكن هذا الصلح قوبل بالرفض من طرف السلطان يغمراسن "وأقسم ألا يصالحه أبدا حتى يأخذ منه الثأر أو يموت دون ذلك"[4]. لأن المطالبة بهذا الصلح جاءت بعد أحداث معركة واد تلاغ التي هُزم فيها السلطان يغمراسن وقُتل فيها ولده عمر.

الواقع أنّ الخطاب الشرعي يقر على المسلمين تلبية الدعوة إلى السلام كلما عرضها عليهم الطرف الآخر، وذلك تنفيذا لقوله تعالى:"**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين**"[5]، لكن ما يمكن استنتاجه أنّ رفض السلطان يغمراسن لهذا الصلح نابع من حقده على بني مرين نتيجة مقتل ابنه عمر.

---

[1]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 309-310.

[2]- ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص309-310. مجهول، الذخيرة السنية، ص161. كان سلطان الأندلس في تلك الفترة هو محمد المدعو بالفقيه وهو ثاني ملوك بني الأحمر وهو الذي بعث بوفد إلى سلطان المغرب بشأن الجهاد. ابن خلدون، العبر، 105/7.

[3]- الناصري، الاسقصا، 32/3.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص310. الناصري، المصدر السابق، ص32. مجهول، المصدر السابق، ص161-162.

[5]- سورة الأنفال -61-62.

كان لاستمرار الصراع بين الزيانيين والمرينيين الأثر في إقدام السلطان يغمراسن على تبادل الوفود والسفارات مع ملك قشتالة الفونسو العاشر[1] الذي بعث بأسطوله إلى بحر الزقاق لمنع السلطان يعقوب المريني من الجواز إلى الأندلس، وفي الوقت نفسه "راسلوايغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجرة يعقوب، وشن الغارات على ثُغوره ليكون ذلك شاغلا له عنهم[2]، فبادر يغمراسن بإجابتهم، وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية إليه"[3]؛ كما تحالف يغمراسن مع ابن الأحمر الذي بعث إليه أموالا جليلة وهدية عظيمة ضدّ السلطان المريني بسبب الصراع على مالقة[4]، ولم يخف يغمراسن حلفه مع ملك قشتالةبل "أعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة مسلمهم وكافرهم من الوصلة"[5]، ونتج عن هذا التحالف انشغال السلطان يعقوب المريني عن الجهاد والتحرك مرة أخرى إلى الشرق وإلحاق الهزيمة بجيش يغمراسن في خرزوزة سنة 680هـ/1281م[6].

ويشير ابن خلدون إلى استمرار الوضع على هذا الحال بين الأطراف الثلاثة متمثلا في تحالف يغمراسن مع ابن الأحمر ضدّ يعقوب المريني "ولم يزل شأنهم في ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو ينتهز الفرصة في كل واحد متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا"[7].

وهناك من الوثائق ما يؤيد ويؤكد العلاقات الودية بين تلمسان وغرناطة وهي الرسالة التي تتضمن جواب السلطان عثمان بن يغمراسن على رسالة التعزية التي بعثها ابن الأحمر سنة 682هـ/1283م في وفاة السلطان يغمراسن[8] حيث ترددت العبارات التالية: "أخونا الذي أبرمنا عقد أخوّته في ذات الله أشدَّ الإبرام... ولئن كنتم فقدتم محلَّ الوالد، لقد أبقى لكم منَّا محلَّ أخ معاضد في كافة الأحوال...وقد تقرَّرَ بيننا وبينكم من خلوص السّرّ والجهر...".(الملحق رقم؟ ص168-169-170)

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 105/7.

[2]- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص335.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 106/7.

[4]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص837-838.

[5]- ابن خلدون، المصدر السابق، 106/7.

[6]- المصدر نفسه، 440/7-441.

[7]- المصدر نفسه، 106/7.

[8]- أحمد عزاوي: الغرب الإسلامي (خلال القرنين 7 و 8هـ)، الرباط: مطبعة الرباط نيت المغرب، 2007، 57/2.

نستنتج أنّ فترة السلطان يغمراسن كانت فترة عداء مستمر بينه وبين المرينيين مما جعله يتحالف مع النصريين بالأندلس والدليل واضح من خلال السفارات المتبادلة بينهم للتعاون على عدوهم المريني.

ب- سفارة في عهد السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م)

في سنة 684هـ/1285م بعث السلطان عثمان بن يغمراسن في طلب الصلح والمهادنة من المرينيين عملا بوصية أبيه حين نصحه قُبيل وفاته بمهادنتهم[1]، ولم تكن نصيحة يغمراسن لابنه من باب الصدفة وإنما كانت حسبما يقول أحد الباحثين[2] نتيجة دراسة معمقة ومعطيات استخبارية هامة عن خصومه من بني مرين؛ غير أنّ عثمان لم يحاول مصالحتهم إلاّ بعد فشله في إخضاع قبائل تجين ومغراوة، وبعد موت ملك قشتالة الفونسو العاشر وتردّد ابن الأحمر بين مهادنة ابنه سانشو والسلطان يعقوب المريني[3].

أرسل عثمان أخاه إلى السلطان يعقوب وهو في الأندلس لعقد الصلح قال ابن خلدون: " أوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدوة الأندلسية في إجازته الرابعة إليها فخاض إليه البحر ووصله باركش فلقاه برا وكرامة وعقد له من السلم ما أحب. وانكفأ راجعا إلى أخيه فطابت نفسه وفرغ لافتتاح البلاد الشرقية"[4]. ونلاحظ أنّ الصلح سيستمر لبضع سنوات فقط يتفرغ خلالها السلطان عثمان للثغور الشرقية؛ لكن سرعان ما يتجدد الصراع مرة أخرى مع السلطان يعقوب المريني بسبب فتنة أبي عامر وابن عطوا.

لقد بينت الأحداث فيما بعد عدم صدق النوايا في الصلح الذي تم بين الطرفين الزياني والمريني، حيث يستمر عثمان في علاقته مع ملك قشتالة وابن الأحمر الذي ساءت علاقته مع سلطان بني مرين، زد على ذلك استقباله لأبي عامر وابن عطوا الذين ثارا على السلطان يعقوب، مما أدى إلى حصار تلمسان حصارها الأول سنة 689هـ/1290م الذي انتهى بالإخفاق؛ فلجأ عثمان مرة أخرى إلى تحسين علاقته مع الأندلس فبعث وفدا إلى ابن الأحمر وملك قشتالة سانشو الرابع، وقد رد هذا الأخير بسفارة قام بها

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 109/7.

[2]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 24/1.

[3]- أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8هـ، ص58.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، 109/7.

الريك ركس، بعدها أرسل عثمان بن يغمراسن سفيرا آخر يسمى بالحاج مسعود[1]؛ وعن نتائج هذه السفارات اكتفى ابن خلدون بالقول "لم يُغْنِ ذلك عنه شيئا"[2].

وينفرد ابن مرزوق الخطيب في كتابه المناقب المرزوقية بذكر سفارتين بغرض الصلح كانت بين السلطانين عثمان بن يغمراسن الزياني وأبي يعقوب يوسف المريني؛ ما يبين أنّ الولي لعب دورًا كوسيط دبيلوماسي ومبعوث سلطاني للأخذ في الصلح[3]، حيث يذكر ابن مرزوق أنّ عمه[4] والشيخ أبو العباس ابن القطان[5] هما من تولى هذه المهمة والذهاب إلى السلطان يعقوب المريني[6]؛ أما السفارة الثانية فقد كانت من نصيب الفقيه أبي عبد الله ابن عثمان بن عامر وقد وصفه ابن مرزوق بأنه" نبيلا فصيحا، خطيبا مفلقا بليغا، فيه طلاقة، وإقدام وجسارة على أمور تحذر، فرغب منه الشيخ أن يتوجه في رسالة ليصلح بين السلطان أبي عثمان ابن يغمراسن والسلطان أبي يعقوب، وهي الرسالة الثانية"[7].لكن المؤسف أنّ ابن مرزوق لم يذكر لنا حيثيات ونتائج هاتين السفارتين. لكن ومما هو معلوم أنّ هذه الفترة شهدت نزاعا مستمرا بين الطرفين عززته الهجومات المتكررة للسلطان يعقوب المريني على تلمسان لذا لا نستبعد إرسال هاتين السفارتين.

---

[1]- الحريري، محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1987، ص90.

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، 111/7.

[3]- نللي، سلامة العامري: الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي، ط2، بيروت: دار الفارابي، 2006، ص270.

[4]- هو الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق، أمه فاطمة بنت الشيخ أبي زيد عبد الرحمن ابن النجار، تزوج ست الملوك بنت الهواري، وكانت قبله تحت السلطان أبي حمو موسى بن عثمان. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص146. الهامش

[5]- هو الشيخ الصالح الثقة الصدوق الصوفي المؤرخ المتبتل أبو العباس أحمد بن إبراهيم المعروف بابن القطان. لم ترد له ترجمته في كتب التراجم ولكن يتضح من خلال ما ذكره ابن مرزوق عنه أنّه كان في شبيبته صغيرا محتاجا لأنّ والده مات وخلفه صغيرا، فاشتغل بالخياطة ثم التجارة؛ زوجته بنت أبي عامر الذي كان من أولياء الله الصالحين، وقد سكن ابن القطان في دار متصلة بدار ابن مرزوق، وهو الذي ربى والده، واختص بخدمة جده لأبيه وجده لأمه، وقد حج بيت الله الحرام. ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص146 + الهامش من الصفحة نفسها. ابن مريم البستان، ص98 الهامش.

[6]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص278.

[7]- المصدر نفسه، ص284.

ت- السفارات في عهد السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت (749-753هـ/1348-1352م)

يبدو أنّ شهرة الفقيه ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/1379م) ومهارته وغزارة علمه رشحه لتولي المهمات الدبلوماسية؛ فقد اختاره السلطان أبي سعيد الزياني لسفارته التي وجهها إلى السلطان أبي الحسن المريني بشأن الصلح؛ فبعد أن تمكن السلطانان العبدواديان من استرجاع ملك تلمسان في آخر جمادى الآخرة من سنة 749هـ/1348م[1]، وكانا حديثي العهد بذلك مما يعني أنّ الظروف غير مهيأة للدخول في مواجهة عسكرية ضدّ السلطان أبي الحسن المريني الذي بدأ يتأهب من جديد لإعادة غزوها، وكان مركز انطلاقه هذه المرة من الجزائر بعد أن نجا من الغرق[2]، ومن حنكة السلطان أبي سعيد الزياني رأى أن يعقد معه صلحا فاختار لذلك الخطيب ابن مرزوق وبعثه في شأن الصلح بدون مشاورة أخيه أبي ثابت[3]، ويذكر ابن مرزوق ذلك قائلا: "فلما وصلت تلمسان رغب مني سلطانها أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان، وأخوه، أبو ثابت[4] محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن فأقمت بتلمسان ووجهت له فجاء من تونس إلى الجزائر عازما على الصلح"[5].

نلاحظ أنّ هذه السفارة لم تكتمل وذلك لظروف استثنائية لأن الخطيب ابن مرزوق سيتم سجنه من طرف السلطان أبي ثابت الزياني[6] الذي لم يكن راضيا عن هذه السفارة، حيث بعث من تقبض عليه في طريقه.

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، 139/7.

[2]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص62.

[3]- ابن مريم، البستان، ص340. حاجيات، "الحياة الفكرية في عهد بني زيان"، ص144.

[4]- ينفي عبد الرحمن بن خلدون اضطلاع السلطان أبي ثابت بهذه السفارة ومعرفته بها، ويشير في خضام بعض الأحداث أنه كان ببلاد مغراوة محاصرا لها، وبعد معرفته بأمر السفارة أنكر على أخيه ذلك بدليل أنه بعث من تعرض لابن مرزوق في الطريق وقبض عليه ثم أمر بسجنه مما يعني أنّ السفارة لم تكتمل. العبر، 142/7-370. رحلة ابن خلدون، ص 62.

[5]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص307.

[6]- ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص307. ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص62. التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص419-420. ابن مريم، المصدر السابق، ص340.

ث- سفارات في عهد السلطان أبي تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1336م)

كانت إحدى البعثات الدبلوماسية بين الزيانيين والمرينيين نتيجة ما حققه السلطان أبي تاشفين من انتصارات على الطرف الحفصي؛ إذ تمكن من الاستيلاء على مواقع هامة من أرضهم؛ بل تمكن من إسقاط العاصمة تونس سنة 730هـ/1328م بعد أن هزم سلطانها أبا يحي (718-746هـ/1318-1345م) شر هزيمة وأفلت جريحا إلى قسنطينة، ومكث السلطان أبو تاشفين أربعين يوما[1] قام خلالها بتنصيب منافسه الأمير محمد بن أبي بكر[2] على سدة الحكم.

الواقع أنّ كتب التاريخ السياسي كلها أشارت إلى أنّ الأمير الحفصي حينما أحس بخطورة الوضع بعث يستغيث بالسلطان المريني أبي سعيد، لكن تشير إحدى الروايات وهي لابن بطوطة[3] في رحلته بأنه لقي عند وصوله إلى مدينة تلمسان رسولي السلطان الحفصي وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزاوي[4]، والشيخ الصالح أبو عبد الله القرشي الزبيدي (ت740هـ/1339م)؛ وهذه الرواية تؤكد لنا أنّ السلطان الحفصي حاول الصلح مع السلطان أبي تاشفين قبل أن يستنجد بنظيره المريني؛ لكن يبدو أنها قوبلت بالرفض.

وأمام هذا الرفض لم يجد السلطان أبو يحي بدا من الاستغاثة بسلطان المغرب أبي سعيد الذي بعث هو الآخر رسلا إلى السلطان أبي تاشفين يدعوه إلى الإقلاع عن تونس؛ وكان على رأس هذا الوفد أبي العباس ابن مرزوق (ت741هـ/1340م) وهو والد ابن مرزوق الخطيب وضمن الوفد القاضي المحدث أبو علي حسن بن يحي الحسيني، وأبو عبد الله بن أبي العيش، والقاضي أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف بن

---

[1]- حكم الدولة الحفصية من تونس وقسنطينة. ابن خلدون، العبر، 128/7. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص143-144.

[2]- هو محمد أبو بكر اشتهر بأبي عمران كان يعيش عند الزيانيين منذ سنوات. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص65.

[3]- لكن فيما يخص تاريخ هذه السفارة هناك لبس لأنّ ابن بطوطة خرج في رحلته من طنجة المغربية سنة 725هـ/1324م والراجح أنها السنة التي دخل فيها على تلمسان، وسقوط تونس كان في سنة 730هـ/1329م، وبالتالي من المحتمل أنّ هذه السفارة كانت إثر محاولات أبي تاشفين لغزوه تونس. أبو عبد الله محمد، بن عبد الله بن بطوطة اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، بيروت: دار إحياء العلوم،1987، 34/1.

[4]- يذكر ابن بطوطة أنّ هذا القاضي لم يتمكن من العودة إلى تونس لمرض أصابه في مليانة فتوفي ودفن بها. رحلة ابن بطوطة، 34/1.

راع[1]، لكن أبي تاشفين رفض ذلك[2].

وينفرد ابن مرزوق بالقول أنّ السلطان أبوتاشفين الزياني بعث من جهته الشيخ الصوفي أبا عثمان سعيد سفيرا إلى سلطان المغرب أبي سعيد في سفارة مضادة[3]، وعلى الرغم أنه لم يذكر لنا نتائج هذه السفارة لكن يُفهم أنها موفقة وكُللت بالنجاح نظرا لما عُرف به سلاطين الدول الإسلامية من حبهم للأولياء وتعظيمهم والسعي لإرضائهم، فيقول بأنّ السلطان المريني "أكرم نزله وعظمه"[4]. لكن يبقى الشك عندنا وارد بخصوص نتائج هذه السفارة لأننا لم نعثر على من يؤازره هذا الطرح.

كان رفض أبي تاشفين لطلب السلطان المريني سببا في بعث سفارة ثانية إليه؛ لكن هذه المرة من طرف السلطان أبي الحسن إثر توليه الحكم بعد وفاة أبيه أبي سعيد، والسبب هو الكف عن حصار بجاية[5] مع التنازل عن تدلّس[6] ومن ضمن ما كتبه أبو الحسن مخاطبا أباتاشفين "كُفَّ عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أني نافحت عن صهري ويقدروا قدري"[7]؛ لكن رد أبي تاشفين كان أسوء من الأول حيث "أسمع الرسل بمجلسه هجر القول، وأقذع لهم الموالي في الشتم لمرسلهم ..."[8]، ونلاحظ أنّ هذا الموقف من أبي تاشفين سيثير حفيظة أبي الحسن ويسعى للانتقام لصهره الحفصي[9]؛ حيث يقوم بالهجوم على تلمسان وحصارها إلى أن تستسلم سنة 737هـ/1336م[10].

---

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص120-121.

[2]- ابن خلدون، العبر، 128/7-129. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص145. على عكس ما يذكره ابن مرزوق الخطيب أنّ هذه السفارة التي تولاها والده في غرض الصلح كانت ناجحة حيث قال:"فسكنت الفتنة بسفارته، وارتفع الضر من كل جانب عند ختام رسالته". انظر المسند الصحيح، ص121.

[3]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص178.

[4]- المصدر نفسه، ص178.

[5]- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 103/4. التنسي، المصدر السابق، ص145.

[6]- ابن خلدون، المصدر السابق، 129/7-130.

[7]- الناصري، الاستقصا، 123/3.

[8]- المصدر نفسه، 130/7.

[9]- الزركشي، المصدر السابق، ص68. التنسي، المصدر السابق، ص145.

[10]- العمري، المصدر السابق، 103/4. انظر تفاصيل حصار تلمسان وسقوطها. ابن خلدون، المصدر السابق، 130/7-131-132.

نستنتج أنّ إخفاق هذه المفاوضات بين الطرفين سيُدخِل الدولة الزيانية مرحلة عصيبة؛ وهي حصار مدينة تلمسان لمدة تقارب ثلاث سنوات؛ وينتهي هذا الحصار بسقوط تلمسان وبعض المدن التابعة للدولة، وهو ما سيدخلها مرحلة جديدة وهي مرحلة السيطرة المرينية لمدة تزيد عن عشرة سنوات[1].

ج-السفارات في عهد السلطان أبي حمو الثاني (760-791هـ/1358-1388م)

في عهد السلطان أبي حمو الذي يعتبر من أقوى العهود نشطت حركة السفارات والبعثات إلى بعض الأطراف الخارجية خاصة خلال العشرية الأولى من فترة حكمه؛ فقد افتتح عهده بإبرام عقد الصلح مع نظيره المريني السلطان أبي سالم المريني (760-762هـ/1358-1360م)[2] تأمينا لظهره[3]، حيث بعث هذا الأخير في شوال من عام 760هـ/1358م سفيره ابن روجي وهو من كبار وزرائه وأمضوا معا صلحًا حسبما كان يريده[4]، ونستنتج من خلال هذا التصرف دهاء السلطان أبي حمو الذي يتمثل في استعمال أسلوب المهادنة والمصالحة ضدّ العدو إذا كان مساويا له في القوة، كما أنّ هذا الصلح جاء في فترة كان ما يزال يقوم بتوطيد أركان دولته؛ ونظرا لنجاعة هذا الأسلوب فقد أوصى به ابنه قائلا: "اعلم يا بني أنه إذا كان العدو مساويا لك في جيشك وبلادك وحزمك وجلادك وكفايتك وسياستك ونجابتك ورياستك... أن تُحاوله بالمصالحة والمهادنة والموالاة والمحاسنة، فتكون مصالحتك من جملة المكائد..."[5].

---

[1]- اندثرت الدولة الزيانية من تاريخ سقوطها في 28 رمضان سنة 737هـ/1336م إلى غاية سنة 749هـ/1348م وهو تاريخ نكبة السلطان أبي الحسن المريني في معركة القيروان على يد عرب بني هلال وبني سليم، وعند تولي ابنه أبي عنان الحكم أرجعها إليهم يوم الأربعاء 22 جمادى الآخرة 749هـ/1348م. وبالتالي تكون مدة السيطرة المرينية إحدى عشرة (11) سنة وستة (6) أشهر.

[2]- هو إبراهيم بن أبي الحسن بن أبي سعيد بن أبي يوسف يعقوب يكنى أبو سالم، ولد سنة 735هـ/1334م وبويع يوم الجمعة منتصف شعبان من عام 760هـ/1358م وقُتل يوم الخميس سنة 702هـ/1302م وعمره 28 سنة ودفن بالقلة، وكانت مدة حكمه سنتين وثلاثة أشهر وأربعة أيام. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص30-31. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/155-156.

[3]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص185.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 2/55. يحي، بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر –الجزائر القديمة والوسيطية-، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، 2009، 1/225.

[5]- أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك، ص 189.

وكانت ثاني هذه السفارات سنة 762هـ/1360م مع السلطان نفسه وهو أبي سالم بعدما تمكن هذا الأخير من الاستيلاء على مدينة تلمسان مرة أخرى في شعبان 761هـ/1359م[1]، ثم غادرها بعد أن ولعليها أحد أفراد العائلة الزيانية وهو محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين الذي كان تحت طاعته[2]، ومما يثبت ولاء محمد بن عثمان للسلطان أبي سالم ما قاله هذا الأخيرفي رسالة كتبها إلى ملك أركون "ظهر لنا أن نردّ أمر تلمسان إلى حفيد السلطان أبي تاشفين الذي رُبِّيَ بدارنا...واستثنينا عليه ما عدا مستغانم من البلاد الساحلية، وشرطنا عليه السمع والطاعة لأمرنا، وتلقَّى شروطنا بالقبول..."[3].

فكر السلطان أبو حمو الزياني في الصلح مع المرينيين فبعث وفدا يتكون من ولي عهد ووزير وقاضٍ، ترأس هذا الوفد ابنه المولى أبو تاشفين الذي جمع بين العلم والحرب والسياسة، ومعه وزيره عمران بن موسى وقاضي الجماعة أحمد بن الحسن[4]، وقصدوا فاسأواخر شهر ربيع الأول سنة 762هـ/1360م[5].

ومن جهته استقبل السلطان المريني هذا الوفد بما يليق من الحفاوة والتكريم نقل لنا صاحب زهر البستان تفاصيل وحيثيات هذه السفارة وما دار بين الفريقين من محاورة أدبية تعبر عن رغبتهم في الصلح والكف عن القتال وتسريح أسرى بني عبد الواد، وكان من قول أبي تاشفين: "يا أيها الملك السعيد إنّ مولاي وجّهني للمصالحة والتسديد والكف عن المفاتنة، والجنوح إلى المهادنة؛ وأن يكون القبيلان يدا واحدة على الكفّار، وحماة لدين الله، وإخوانا للانتصار. فإنّ الصلح مندوب إليه شرعا والخلاف مُنهى قطعا، ويد الله مع الجماعة"[6]؛ أُعجب السلطان المريني بكلام أبي تاشفين فرد عليه بما يليق واستمر الحديث بينهما حتى انتهى بالموافقة على الصلح وعلى تسريح الأسرى العبد الواديين قال أبو سالم: "لك ما تمنيت علينا كرامة؛ وهذا غاية المراد"[7]، بعدها رجعوا إلى تلمسان ودخلوها في جمادى الأولى من السنة نفسها فرح بهم السلطان أبو حمو وبالصلح الذي تم عقده[8].

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 149/7.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، 149/7. الناصري، الاستقصا، 34/3.

[3]- أحمد، عزاوي: رجال الإدارة والأعيان في العصر المريني، ص27.

[4]- مجهول، زهر البستان، 125/2.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 85/2-86.

[6]- مجهول، المصدر السابق، 126/2.

[7]- مجهول، زهر البستان، 126/2-127.

[8]- مجهول، المصدر نفسه، 2/-128.ابن خلدون، المصدر السابق، 86/2.

وبعد شهر بعث السلطان أبو سالم الفقيه ابن رضوان إلى السلطان أبي حمو من أجل استكمال إجراءات الصلح[1]؛ حسبما تقتضيه شروط عقد المعاهدات[2]؛ قال صاحب زهر البستان على لسان ابن رضوان: "إنّ مولاي أبا سالم قد استحسن منك هذا الصّلح، ونعم الفعل المشكور، وإنه قد بعثني إليك لأُكمّل عقد المصالحة، وأشهد عليك بهذه الفعلة الصالحة"[3]، وبعد موافقة السلطان أبي حمو كُتبت العقود بمحضر الفقهاء والوزراء وكبار بني عبد الواد، والفقيه ابن رضوان مبعوث السلطان المريني تنصّ على مهادنة بين الطرفين لمدة أربعة أشهر كاملة[4].

نستنتج أنّ هذا العقد لم يتقرر فيه مصير الأسرى العبد الواديين الذين كانوا ضمن مطالب الصلح؛ كما أنّ اضطراب الظروف السياسية والأمنية بين الدولتين ستؤدي إلى نقض هذه المهادنة، والسبب هو رغبة المرينيين في الإبقاء على مدينة وهران والجزائر.

رأى أبو حمو ضرورة استرجاع المدينتين، لما لهما من أهمية في تمكين سلطته على البلاد ولدورهما الاقتصادي الهام، وطلب من قائد وهران والجزائر أن يقوما بسحب قواتهما، وأن يسلما له المدينتين، بموجب ما حدث بين القطرين من صلح[5].

قوبلت مساعي السلطان أبي حمو بالرفض من طرف السلطان المريني، فأرسل هذا الأخير وزيره عمر بن عبد الله إلى تلمسان في أواسط رمضان سنة 762هـ/1360م، ولم تنجح مفاوضاته مع الوزير ابن مسلّم، بل أدى إلى خصام شديد وغادر الوزير المريني بلاد أبي حمو مغضبا[6].

ونتيجة تأزم الوضع من جديد بين الطرفين بعد صلح دام أربعة أشهر، راسل السلطان أبو حمو أمير غرناطة محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن اسماعيل بن نصر يستعين به على تملك المغرب، فأجابه إلى ذلك، وبهذا الفعل يبدو لنا أبو حمو سياسيا حكيما إذ يريد من وراء ذلك أن يسمع به أبو سالم فيبادر

---

[1]- هذه السفارة لا يذكرها صاحب بغية الرواد.

[2]- يمر عقد المعاهدات في الإسلام بثلاث مراحل هي: التفاوض –التحرير –التصديق.انظر حول هذه المراحل إحسان، الهندي: أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، ط1، دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، 1993، ص75.

[3]- مجهول، المصدرالسابق، 2/128-129.

[4]- المصدر نفسه، 2/129.

[5]- مجهول، المصدر السابق، 2/129-130. حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص137.

[6]- حاجيات، المرجع نفسه، ص137.

إلى تغيير سياسته نحو الدولة الزيانية[1]. ثم أقدم السلطان أبو حمو على حصار وهران وأخذها عنوة من بني مرين في 13 شوال 762هـ/1360م[2]، أما مدينة الجزائر فقد اضطرّ أبو سالم إلى بعث الشيخ أونزمار بن عريف وسليمان بن عامر بن فتح الله[3] من أجل إعادة الصلح من جديد وتسليم الجزائر دون قتال[4]. قال أبو سالم في هذا الشأن :"إن انتهكت الجزائر بسببنا، فكأنه سوء يبقى في عقبنا؛ ويُقال إن حلت بهم أزمة من بني عبد الواد صبروا على خدمته، فأسلمهم رعاياه أنها للأعاد ولا قدرة لنا على نصرتهم، وإعطائنا إياها لأبي حمّوا بقاء لحرمتنا ولحرمتهم"[5].

وفي سنة 763هـ/1361م تكررت الوفود على السلطان أبي حمو مرة أخرى بشأن الصلح من طرفأبي زيان محمد بن يعقوب الذي تولى الحكم بعد مقتل السلطان أبي سالم حيث بعث بوزيره عمر بن عبد الله[6]لأنّ الفتنة كانت ضاربة أطنابها داخل البيتالمريني[7]؛ وقد نقل لنا صاحب زهر البستان الحوار الذي جرى بينهما كاملا، فقد كان من جواب الوزير على أبي حمو حين سأله عن الغرض من السفارة "...جئت لما فيه الخيرة لجميع المسلمين ولبيب عبد الواد ولبني مرين. بعثني مولاي إلى المهادنة والموالات والمحاسنة، وكَفِّ اليد العادية من أي جهة حدثت..."[8]، فأجابه أبو حمو بالقبول قائلا: "نعم ما ذهب إليه أبو زيان، ونعم السجية الأمان من السلطان. هذا رأي يجب أن يُساهر عليه شرعا، وينقاد عليه السّلم طوعا، لا سيما ألفة كلمة الإسلام التي هي عمدة الاعتصام..."[9]؛ ومن أجل استكمال الإجراءات الرسمية للصلح أرسل الفقيه أبو سالم البُرْجِيِّ الذي سيتولى مهمة كتابة العقد وبصحبته عمر بن مسعود التيربيعي[10].

---

[1]- الطمار، المرجع السابق، ص 117.

[2]- يُراجع تفاصيل هذا الحصار في زهر البستان الجزء الثاني ص132 وما بعدها. ابن خلدون، بغية الرواد، 87/2.

[3]- ابن خلدون، المصدر السابق، 87/2.

[4]- السلطان أبو يعقوب هو من تسلم مدينة الجزائر وذلك يوم 8 ذي القعدة. مجهول، المصدر السابق، ص 140. بن خلدون، المصدر السابق، 87/2. ابن خلدون، العبر، 149/7.

[5]- مجهول، زهر البستان، 140/2.

[6]- مجهول، المصدر نفسه، 157/2. ابن خلدون، بغية الرواد، 98/2.

[7]- مقتل السلطان أبي سالم تبعته منافسة شديدة على الحكم بين أفراد البيت المريني.

[8]- مجهول، المصدرالسابق، 170/2.

[9]- مجهول، زهر البستان، 171/2.

[10]- مجهول، المصدر نفسه، 171/2.ابن خلدون، المبغية الرواد، 98/2.

والجديد في شروط هذا الصلح هو تسريح أسرى بني عبد الواد مقابل عدم التعدي على سجلماسة التي كانت تحت السيطرة المرينية[1]، وبعد قبول الشروط تم الاستكتاب وإبرام الصلح وأُطلق سراح أسرى بني عبد الواد الذين كانوا بفاس[2]. ومما يمكن قوله حول هذا الصلح الأخير أنّه عاد بالفائدة على كلا الطرفين حيث أخمدت نار الفتنة، وهو ما نفهمه فيما قاله صاحب زهر البستان: "ولما انصرف الرسولان ورفع الله سبحانه سبب الخلاف والشنآن، شاع الخبر في الأقاليم، وفرح الخاص والعام بهذا الصلح الدائم"[3].

تتواتر السفارات بين الطرفين إلى غاية 767هـ/1365م حيث أرسل السلطان أبي حمو في 24 محرم من هذه السنة سفيره الفقيه أبا عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1369م) ومحمد بن عمر البرطيل إلى المغرب لاستكمال إجراءات المهادنة[4].

نستنتج بأنّ السر وراء تخوف الأمراء المرينيين من السلطان أبي حمو موسى الثاني هو ما تمتع به من شخصية قوية وعقلية سياسية ومهارة حربية فائقة جعلهم يحسبون له ألف حساب، والدليل هو تواتر السفارات معه مقابل الصلح والمهادنة؛ لأنّ المرينيين كانوا لا يترددون في غزوهم للمغرب الأوسط وبالتالي فإنّ هذه السفارات تكشف عن نواياهم الخبيثة من وراء الصلح والمهادنة؛ فمما عرف عنهم أنهم لا يترددون في نقض العهود بل أنّ عقد الصلح بالنسبة لهم ما هو إلاّ أسلوب في مماطلة الطرف الآخر إلى حين استجماع قوتهم لإعلان الحرب من جديد. عبر عن ذلك السلطان أبو حمو قائلا: "...ثم تمادوا على نقض العهود وتمادوا على حقر الأباء والجدود، لا نعقد معهم صلحا إلاّ نقضوه، ولا نولوهم صلحا إلاّ رفضوه، ولا نوافقوهم عن الكف عن شيئا إلا تعرضوه، إلى أن تبين لنا أنّ غاية مطلوبهم الفتن، وأنّ التردد إليهم من المحن، وإن أظهرت ظواهرهم الموالات فإنما حشوها الحقد والنكايات"[5]، ومما يؤكد هذا الطرح هو أنّ السلطان أبو حمو استشهد بما حدث له مع السلطان أبي سالم من سفارات انتهت بالصلح لكنه عمل على نقضها، وذلك في كتابه واسطة السلوك في صدد حديثه حول خيانة العدو وكيفية التعامل معه[6]؛ ويبدو أنّ ذلك ما جعله ينصح ابنه قائلا: "فلا تأمن عدوك في مهادنة ولا في موالات ولا محاسنة"[1].

---

[1]- مجهول: المصدر نفسه، 171/2.

[2]- مجهول، المصدر نفسه، 176/2. حاجيات، المرجع السابق، ص140.

[3]- مجهول، المصدر السابق، 193/2.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 159/2.

[5]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق ، 189.

[6]- يشير السلطان أبو حمو أنه في إحدى السفارات قام السلطان أبو سالم بكتابة الصلح بخط يده على ختمة من القرآن

2- السفارات الزيانية الحفصية

كان هناك تناوب في ميزان القوى بين الزيانيين والحفصيين؛ فبعد أن كان الحفصيّون قوة موحّدة تفرض تبعيّتها –ولو اسميا- على الزيانيين، دخلت في مرحلة ضعف وانقسام[2] وهنا بدأت القوة العسكرية الزيانية تشكل خطرا عليهم وتنافسهم على المناطق الشرقية المحاذية للدولة الزيانية مثل بجاية وبونة وقسنطينة وتدلّس وغيرها، ونتيجة لهذا الصراع المستمر غالبا ما اضطرت هذه الأطراف إلى إرسال السفارت والوفود من أجل الصلح والمهادنة بدلا من الاصطدام العسكري.

أ- سفارة في عهد السلطان أبي حمو الأول (707-718هـ/1307-1318م)

على الرغم من أنّ كتب التاريخ السياسي لم تشر إلى أي سفارة بعث بها السلطان أبي حمو إلى نظيره الحفصي أبي يحي بن أبي بكر (718-747هـ/1318- 1346م)[3] لكن استفدنا من خلال إحدى الإشارات الواردة في كتب المناقب التي جاءت على ذكر نية الشروع في بعث هذه السفارة مما يدل على إمكانية الاستفادة من هذا النوع من الكتب في التأريخ للأحداث السياسية.

فقد وردت إشارة عند ابن قنفذ القسنطيني تؤكد على أنّ السلطان الحفصي أراد أن يبعث سفارة إلى نظيره الزياني يطلب منه الصلح، فعلى الرغم أننا لم نقف على تاريخ هذه الوساطة لكن ما هو معروف أنّ هذه الفترة التي شهدت فتن واضطرابات كثيرة4 يشير إليها ابن الشماع بقوله: "وكانت بينه وبين عبد الوادى حروب كثيرة، ووقائع شهيرة"[5]؛ وبالتالي لا نستبعد أن تكون هناك نية الشروع في بعث سفارات ورسل من أجل الهدنة والصلح؛ وقد اختار لها جد ابن قنفذ[6] لكنه رفضها، ويذكر لنا ابن قنفذ ذلك قائلا:

العظيم، وجعل كتاب الله حكما بينهم وعهده على أن يلتزم بالمهادنة والمصالحة وكتب كل ذلك على ظهر المصحف؛ لكن مع ذلك نقض العهد وخان كتاب الله. انظر المصدر نفسه، 189-190-191.

[1]- المصدر نفسه، ص189.

[2]- أحمد عزّاوي، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8هـ، 72/2.

[3]- هو أبو يحي أبو بكر بن زكريا بن إسحاق بن زكريا بويع في 18 ربيع الآخر عام 718هـ/1318م. قال فيه ابن الشماع "كان شجاعا مهابا محسنا معتقدا في الفقهاء والصالحين، وكان أشد الملوك حبا وأكبرهم همة، وكان محبوبا عند العامة والخاصة"، وحكم هذا الأمير بجاية وقسنطينة إلى غاية وفاته في رجب عام 747هـ/1346م وكانت مدته تسعة وعشرين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوما. أنظر حياته في الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص87-91.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 236/1.

[5]- ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية، ص89.

[6]- هو يوسف بن يعقوب الملاري جد ابن قنفذ للأم توفي سنة 764هـ/1362م وسنه أربعة وثمانون سنة ودفن بزاويته

"حدث جدي للأم غير مرة قال: كلفني السلطان أمير المؤمنين أبو يحي أبو بكر أن آخذ في الصلح بينه وبين أبي حمو، صاحب تلمسان فترددت في ذلك حتى أشاور ناصر الدين فاجتمعت به، فعندما رآني قال من غير أن أكلمه: "لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس"[1].

رفض جد ابن قنفذ لهذه السفارة يجعلنا غير متأكدين من إتمام هذه السفارة أم لا؛ فمن المحتمل أن السلطان الحفصي اختار لها شخصية أخرى؛ لكن وفي ظل سكوت المصادر الأخرى عن ذكرها يبقى السؤال مفتوح حولها.

ب–سفارات السلطان أبي حمو الثاني (760–791هـ/1358–1388م)

من تداعيات الصراع القائم بين أفراد البيت الحفصي حول بجاية وذلك بين الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي[2] وعمه أبي إسحاق بن أبي يحي، والذي أدى إلى تسابق هذين الأميرين لكسب ود السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ فقد بعث الأمير أبي عبد الله حاجبه الفقيه يحي بن خلدون[3] يطلب النصرة والحماية[4]، ويستأذنه في القدوم إليه، ولما رأى الحاجب القبول من السلطان أبي حمو تشجع أبو عبد الله على الوفادة بنفسه ودخل إلى تلمسان في 8 جمادى الأخيرة 764هـ/1362م[5] مجددا طلبه[6].

بملارة. البن قنفذ، وفيات ابن قنفذ القسنطيني، ص92.

[1]– ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م.، ص74.

[2] – هو أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا بن أبي يحي بن أبي بكر حكم بجاية مرتين، مات مقتولا سنة 767هـ/1365م من طرف أبو العباس صاحب قسنطينة. الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 102–103. من اسباب هذا الصراع أنّ أبو عبد الله كان أميرا على بجاية فاستولى عليها أبو عنان سنة 755هـ/1355م، وتذكر بعض المصادر أنه سلمها له دون قتال وأعلن بيعته لبني مرين فنبذه شعبه وأعلنوا عليه العصيان وتم طرده منها فانتهى به الأمر لاجئا عند عرب رياح. أنظر في زهر البستان، 2/233–234. ابن الشماع، المصدر السابق، ص102.

[3]– حضر الفقيه يحي بن خلدون في بلاط أبي حمو احتفال المولد النبوي الشريف لهذه السنة وقدم قصيدة مولدية مطلعها: تراءت لها أعلاها فحباها *** نسيم سرى من حافر ورباها. مجهول، زهر البستان، 2/218–219.

[4]– مجهول، المصدر نفسه، 2/217.

[5]– ذكرت الباحثة آمال سالم عطية في مقالها أنّ هذه السفارة حدثت سنة 766هـ/1364م وهذا خطأ. أنظر المرجع السابق، ص189.

[6]– مجهول، المصدر السابق، ص 2/234–235.

ومن جهة أخرى أرسل الأمير أبو إسحاق الوزيرين محمد بن يوسف أومازير ومحمد بن يعقوب بن علي الريحاني إلى أبي حمو يعرض عليه الصلح[1]، ويطلب منه أن يلتزم باعتقال أبي زيان[2] وألاّ يساعد أبي عبد الله في شيئ، فرضي أبو حمو بهذا الاتفاق ولم يجب الأمير أبي عبد الله[3]؛ فبعث السلطان أبي حمو من جهته الفقيه العالم أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) برفقة رسولي صاحب بجاية أبو إسحاق؛ لكن هذه السفارة لم تكتمل لفتنة حدثت وهي فرار أبي زيان من بجاية واستقراره بحفص حمزة عند أبي الليل بن موسى شيخ بني يزيد وكان هذا الأخير حانقا على أبي حمو، لما قام به الوزير ابن مسلم من غارات في تلك الناحية[4]، فبعث السلطان أبي حمو من استرد الفقيه أبا عبد الله الشريف، وقبض على الرسولين الآخرين قرب المدية[5].

من خلال هذه السفارة نلاحظ ما وصل إليه الفقيه أبو عبد الله الشريف التلمساني من مكانة كبيرة وثقة عالية عند السلطان أبي حمو الذي قربه إليه واستعان به في المهام العلمية والدينية والسياسية، فبالإضافة إلى ما أبداه من جهد واضح في النشاط العلمي والديني كان له دورا بارزا في مضمار السياسة بالدولة الزيانية فكان سفيرا لأبي حمو إلى بني حفص وبني مرين، ومما ينهض حجة على قيمة هذا الفقيه ما قاله لابنه عبد الله بعد دفنه: "ما مات من خلفك وإنما مات أبوك لي لأبي أباهي به الملوك"[6].

وفي آخر سنة 766هـ/1364م أوفد الأمير أبي عبد الله رسله[7] إلى السلطان أبي حمو يطلب منه الصلح والمهادنة مقابل التنازل عن تَدَلَّس[8]؛ وكانت رغبة أبي عبد الله من خلال هذه السفارة هو تحسين

---

[1]- وصل هذين الوزيرين إلى تلمسان في 5 جمادى الأخرى عام 764هـ/1362م. ابن خلدون، بغية الرواد، 125/2-126.

[2]- ابن خلدون، العبر، 151/7. أبي زيان هو حفيد أبي تاشفين رُبي عند بني مرين وسبق التعريف به.

[3]- حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص 143.

[4]- المرجع نفسه، ص143.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 127/2.

[6]- الطمار، تلمسان عبر العصور، ص 183.

[7]- لم تفدنا المصادر بأسماء الشخصيات التي كانت ضمن هذا الوفد.

[8]- ابن خلدون، العبر، 153/7.

علاقته بالسلطان أبي حمو وتسوية الخلاف الذي كان بينهما[1]، وقد كُللت هذه السفارة بالنجاح وتم عقد الصلح بين الطرفين واسترجع إثرها السلطان أبي حمو تدَلَّس[2].

ومن الملاحظات التي تستوقف الدارس حول هذه السفارة هو غيابها تماما في المصادر الحفصية على الرغم من أهميتها في مصير العلاقات السياسية بين أمراء بني حفص والسلطان أبي حمو في تلك الفترة؛ إذ لا نجد لها ذكرا عند الزركشي في تاريخ الدولتين ولا ابن الشماع في الأدلة البينية النورانية؛ كما لا نجد لها ذكرا عند ابن قنفذ في كتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

ت- سفارة في عهد السلطان المتوكل (866-873هـ/1462-1468م).

تجدد الصراع مرة أخرى بين الزيانيين والحفصيين في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري 15م، وذلك في عهد السلطان أبو عبد الله محمد الثالث المتوكل على الله[3] الذي عينه السلطان الحفصي على تلمسان، ونظرا لجرأة هذا السلطان فقد حاول أن يخلع بيعة السلطان الحفصي ويفرض سيطرته على تلمسان، لذا قرر سلطان تونس أبو عمرو عثمان غزو تلمسان لتأديب المتوكل[4]، فهجم على تلمسان سنة 867هـ/1462م فلما أحس المتوكل بعدم قدرته على المواجهة والدفاع عن البلد سارع إلى بعث وفد ثلاثي يتكون من ولي وفقيه وأمير[5]وهم أبو الحسن علي بن حمو ابن أبي تاشفين وهو خال السلطان الزياني محمد بن محمد بن أبي ثابت[6] والشيخ الصالح أبو العباس أحمد ابن الحسن والفقيه العالم محمد العقباني (ت871هـ/1031م)[7]، إلى السلطان الحفصي يطلبون منه أن يكف عن البلد مقابل أن يلتزم له بالبيعة

---

[1]- حول الظروف التي أدت إلى بعث هذه السفارة أنظر ضمن هذه الأطروحة عنصر المصاهرات السياسية المبحث الثالث الفصل الثالث.

[2]- ابن خلدون، العبر، 153/7. ابن خلدون، بغية الرواد، 152/2.

[3]- ذكره الزركشي بهذا الاسم "محمد بن محمد بن أبي ثابت".

[4]- نصر الدين بن داود، أسر العلماء بتلمسان ومساهمتها في حضارة تلمسان، ص322.

[5]- نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، ص271.

[6]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص153.

[7]- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني كان فقيها وعارفا بالنوازل ذا ملكة في التصوف أخذ العلم عن جده قاسم العقباني وغيره، اشتغل بالقضاء في تلمسان ومن تلاميذه أبو العباس الونشريسي وأحمد بن حاتم؛ له عدة مؤلفات أهمها: "تحفة الناظر وغنية الذاكر" في الحسبة. توفي في 23 ذي القعدة سنة 871هـ/1466م. ابن مريم، البستان، 394-395. حاجيات، الحياة الفكرية في عهد بني زيان، ص147. هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، ص83.

ويدخل تحت طاعته ونظره[1]، وقد استضهروا للسلطان الحفصي عقدا أمضاه أعيان تلمسان يؤكد صلاحية الوفد في إبرام الصلح، فما كان على هذا السلطان إلاّ أن قبل إنابتهم ولم يحرم إجابتهم فعقدوا على أنفسهم عقدا بالبيعة وانصرفوا إلى بلدهم[2]، وهكذا يكون هذا الوفد قد نجح في رد الخطر والظلم على سكان تلمسان بعد أن رجع السلطان الحفصي أدراجه إلى تونس وذلك يوم الأربعاء 17 صفر عام 867هـ/1462م[3]؛ وانصرف عن احتلالها.

3- الهدايا، المحتوى والرمز

تمثل الهدايا عنصرا رئيسيا في توثيق العلاقات السياسية بين الدول المختلفة، ومن خلال المصادر الوسيطية تبين لنا حضور هذه الظاهرة والتي لمسناها من خلال تبادل الهدايا بين ملوك دول المغرب الإسلامي فيما بينهم، وبينهم وبين ملوك المشرق الإسلامي والأندلس، وقد كانت هذه الهدايا تحمل عادة من طرف الوفود الرسمية المبعوثة من طرف هؤلاء السلاطين والملوك، وقد أفادتنا المصادر الإخبارية في هذا الشأن خاصة من كان صاحبها من المقربين إلى السلطان[4] حيث أمكن لهم الاطلاع على هذه الهدايا.

وسنعرض في هذا المقام بعض الهدايا المتبادلة بين سلاطين بني زيان مع نظرائهم من الدول الأخرى في إطار السفارات المتبادلة بينهم من أجل الصلح والمهادنة بدلا من الحرب، وكذلك بعض الهدايا لملوك المغرب في فترة احتلالهم لتلمسان. **فما هي قيمة ومحتويات هذه الهدايا؟ وإلى ماذا كان يرمز هذا المحتوى؟**

قبل الخوض في عرض مختلف الهدايا المتبادلة بين ملوك وسلاطين الدول الإسلامية لابأس أن أنوه إلى حرص السلطان أبي حمو على مهاداة نظرائه من الملوك وإن كانوا معادين لبعضهم من خلال ما ذكره في كتابه واسطة السلوك "يا بني أكثر لعدوك الهدايا ونصر على أرساله جزيل العطايا، وأنسه ووالليه، وأكرمه وصافيه..."[5].

---

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص152-153.

[2]- الزركشي، المصدر السابق، ص153. نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص322.

[3]- الزركشي، المصدر السابق، ص153.

[4]- لطفي، بن ميلاد: "إفريقية وشرق البحر المتوسط من أواسط القرن 5هـ/11م-10هـ/16م"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تونس، تونس، 2007-2008، ص108.

[5]- أبو حمو الزياني، واسطة السلوك، ص191.

أول مثال سنعرضه في هذا المقام هي الهدية التي بعث بها السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى أبي سالم ملك المغرب مع الوفد الذي ترأسه ابنه المولى أبو تاشفين سنة 762هـ/1360م كما ذكرت أعلاه[1] وكانت هذه هدية ثمينة أطلعنا عليها كل من صاحب زهر البستان ويحي بن خلدون الذين كانا من رجال بلاط أبي حمو وكانت تشمل على: "مائة حصان من العتاق وما يوافقها من الذخائر والأعلاف"[2]؛ مما يدل على حسن النوايا والرغبة في الصلح، ومن جهته أمر السلطان المريني بهدية تليق بمقامه مع كسوتين للوزير والقاضي الذين كانا ضمن الوفد[3]، وفي إطار المعاملة بالمثل نلاحظ أنّ الهدايا ستتواتر بين الطرفين بتواتر السفارات والوفود وكلها كانت تحتوي ملابس وكسوة فاخرة والمال الكثير[4].

ومما تجدر به الإشارة هو محتوى هذه الهدايا؛ حيث نلاحظ في الهدية الأولى أنّ الخيل هو العنصر الرئيسي فيها وهو **ما يدعو نحو التساؤل عن خصوصية الخيل المغربي وأهميته؟**

بما أنّ الخيل يعتبر أداة من أدوات الحرب فلهذا يبدو أنّ أبا حمو أراد من وراء هذا التصرف أن يشير إلى أنّ الدولة الزيانية قوية عسكريا وتمتلك من الخيول الحربية ما يكفيها لحروبها وأكثر؛ لكن ومن خلال بعض النصوص الأخرى التي كشفت لنا خاصية أخرى من خصوصيات الخيل المغربي وهي ما تتميز به من الشِّدّة والصّبر على المتاعب، على عكس خيول مصر التي قصرت بها الرّاحة والتَّنعُّم، عن الصبر على التَّعب[5]؛ لذا صار الخيل المغربي محل إعجاب ملوك المشرق والأندلس فصاروا يسعون للحصول عليه عن طريق المهاداة أو الشراء. ومن الشواهد على ذلك ما أشار إليه ابن خلدون في جزء خصصه للحديث عن "السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر"[6] عندما كان مقيما عنده بمصر حيث نقل لنا رغبة هذا الأخير وتشوّفه إلى جياد الخيل، وخصوصا من المغرب[7]؛ ويُعزى هذا الاهتمام بالخيول

---

[1]- مجهول، زهر البستان، 125/2.

[2]- مجهول، المصدر السابق، 125/2.ابن خلدون، بغية الرواد، 86/2.

[3]- مجهول، المصدر السابق، 127/2. ابن خلدون، المصدر السابق، 86/2.

[4]- ينفرد صاحب زهر البستان بذكر هذه الهدايا وكانت تحتوي مايلي: هدية السلطان أبي حمو للسفير المريني "أمر له بكسوة سنية، ووصله بجائزة من المال مرضية"، في حين تتمثل هدية سلطان بني مرين للسفيرين الزيانين في "كسوتين سنيتين، وبما أرضاهما من العين"، ومثلها سيقدمها السلطان أبو حمو للسفيرين المرينيين فيما بعد والمتمثلة "بكسوتين فاخرتين وبدرتين من العين". انظر 2/ 171-173-175.

[5]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص266.

[6]-ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص263 -271.

[7]- المصدر نفسه، ص 266.

المغربية حسب ابن خلدون إلى كون ركوب الخيل والفروسية هي الرياضة الأساسية للمماليك وهم أصحاب نظام عسكري فلذلك اشتهروا بهذه الرياضة[1] "لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحضور المسرّة بكلّ ظفر جديد"[2]، ولم تقتصر هذه الرياضة على السلاطين بل انتشرت بين الجماهير خاصة في المدن السورية مثل دمشق وحلب[3].

ومن خلال مكاتبة ابن خلدون لسلاطين دول المغرب يحثهم على تلبية رغبة الملك الظاهر؛ تظهر لنا مساعيه في توثيق العلاقات بين دول المغرب ومصر[4].

كان الحاكم على تلمسان في هذه الفترة السلطان أبو زيان الثاني عبد الرحمان (797-801هـ/1394-1398م) الذي بعث بهدية تضم ثلاثين من الجياد بمراكبها المموَّهة، وأحمالا من الأقمشة إلى الملك الظاهر بمصر سنة 799هـ/1396م[5] رفقة هدية السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز التي تشمل الأقمشة والسُّيوف والبُسُط ومراكب وكثيرا من تلك الجياد[6]. أما هدية سلطان المغرب والتي كانت تضم "خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللُّجُم الذهبية، والسيوف المحلاَّة، وخمسة وثلاثين حِملا من أقمشة الحرير والكتّان والصوف والجلد"[7].

إنّ المتأمل في محتوى هذه الهدايا يجد أنها لا تحتوي على الخيول فقط حسب رغبة الملك الظاهر؛ وإنما تشمل أغراضًا أخرى كالأسلحة المتمثلة في السيوف المدبجة بالذهب وأغراض الخيل كالسروج واللّجم الذهبية، وبما أنّ السلاطين والأمراء في العصر الوسيط مجمع على هذا التصرف فهذا ما يعكس لنا الحضور

---

[1]- لطفي بن ميلاد، إفريقية وشرق المتوسط، ص109.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص98.

[3]- شهدت هذه المدن الواقعة على الحدود هجومات المغول الهجوم الأول سنة 675هـ/1276م والهجوم الثاني سنة 803هـ/1400م، إضافة إلى صد الحملات الصليبية خاصة الحملة السابعة 649هـ/1251م، لذا انتشر الطابع العسكري بين الطبقات الشعبية وانصب اهتمامهم على إنشاء المدارس العسكرية. لطفي بن ميلاد، المرجع السابق، ص109.

[4]- لطفي بن ميلاد، المرجع السابق، ص266-267.

[5]- لطفي بن ميلاد، المرجع السابق، ص267-271. بعث السلطان الزياني برفقة هذه الهدية قصيدة لامية في غرض المدح من نظمه يمدح فيها الملك الظاهر، تحتوي على اثنين وستين (62) بيتا شعريا يقول في مطلعها:

لمن الرَّكائب سَيْرهن ذميلُ *** والصَّبرُ – إلاَّ بعدهن – جميلَ.

[6]- لطفي بن ميلاد، المرجع السابق، ص271.

[7]- لطفي بن ميلاد، المرجع السابق، ص271.

المكثف للحرب في واقع السلاطين وفي ذهنيتهم، إذ ترمز تلك الأسلحة والأدوات الحربية إلى الهيبة والعظمة والقوة من جهة؛ ومن جهة أخرى إلى إرهاب الطرف الآخر. أما الأغراض الأخرى والمتمثلة في المقتنيات الثمينة فإن دلت على شيء فإنها تدلّ على الازدهار الاقتصادي الذي كانت تتمتع به هذه الدول في تلك الفترة.

ولا يفوتني أن أشير في هذا العنصر إلى أنّ بعض النصوص التي جاءت على ذكر المهاداة بين الأمراء لم تطلعنا على محتويات هذه الهدايا منها الهدية التي بعث بها صاحب تلمسان المتوكل بعد سنتين من الصلح الذي أبرمه مع السلطان أبي عمرو عثمان سنة 866هـ/1461م، وذلك تأكيدا لحسن نية أمير تلمسان وتثبيتا لأواصر الصداقة[1] وقد أرسل القاضي محمد العقباني حاملا معه الهدية في أواخر جمادى الثانية من عام 868هـ/1463م، وإن كانت النصوص لم تكشف عن محتوى هذه الهدية لكن سلطان تونس فرح بها كثيرا وأمر بالاحتفال بهذا الحدث السعيد[2]؛ وبعد مدة من مقام سفير النوايا الحسنة محمد العقباني رجع إلى تلمسان مصطحبا معه هدية سلطان تونس عربونا لاستمرار الصداقة بين الطرفين.

أ- هدايا سلاطين بني مريني المتربعين على عرش تلمسان إلى نظرائهم في المشرق والأندلس

من الهدايا التي يمكن أن نضيفها في هذا السياق الهدية التي بعث بها السلطان أبو الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م) عندما كان متربعا على عرش تلمسان إلى نظيره ملك مصر وملك قطلان، فقد أطلعنا ابن خلدون بدقة على محتويات الهدية الثمينة التي بعث بها سنة 738هـ/1337م إلى ملك مصر والشام محمد بن قلاوون الملك الناصر، ونظرا لقيمة هذه الهدية فقد تحدث بها الناس دهرا في مجالسهم وأسمارهم[3]؛ لذا ارتأيت أن أذكرها كاملة وكانت تشمل على ما يلي: "...نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يده...ووُضع لها وعاءٌ مؤلّف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشّى بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة المرقوم أديمها بخيوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتّان. وأخرج من خزائنه أموالا عينا لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها... وفيها خمسماية من عتاق الخيل المقرّبات، بسروج الذهب

[1]- نصر الدين بن داود، أسر العلماء بتلمسان، ص322.

[2]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص155.

[3]- الزركشي، المصدر نفسه، ص265.

والفضّة ولجمها، خالصا ومغشّى وموّها. وخمسماية حمل من متاع الغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم، وأُزُراً مُعْلَمَة ومن نسج الحرير الفائق المعلّم بالذهب ملوّنا وغير ملوّن، وسادجا منمّقاً، ومن الدرّق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط، ومن حرثى المغرب وماعونه ما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مِكيل من حصى الجوهر والياقوت"[1].

إنّ المتأمل في هذه الهدية وقيمتها يكتشف حجم الثراء الاقتصادي الذي بلغته خزينة الدولة الزيانية عندما استولى عليها السلطان أبو الحسن سنة 737هـ/1336م، يذكر لنا صاحب الاستقصا ذلك في قوله: "واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديع الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الأثاث والماعون"[2] كيف لا وقد استطاع أن يبعث بهدية بهذا الحجم بعد سنة واحدة فقط؛ ولا نستبعد أنّ تكون خيرات تلمسان وثرائها المتنوع هو السبب من وراء غزوها مرارا من طرف بني مرين.

ومن الهدايا التي يمكن أن نضيفها تلك التي جهزها السلطان أبو عنان المريني (749-759هـ/1348-1357م) إلى ملك قطلان[3]، والتي كانت عبارة عن خيل عتيقة وسروج مفرغة زُكبُها من ذوب اللّجين، ولُجُم موشية[4]. لكن القدر سبقه فتمكن السلطان أبو حمو من استرجاع تلمسان واسترجاع مخلفات هذه الدولة ومن بينها هذه الهدية[5].

من خلال العرض السابق، أول ما يمكن استنتاجه هو أنّ الفقهاء والأولياء تصدروا قائمة السفراء الذين أوكلت لهم هذه المهمة ليس في المغرب الأوسط فحسب وإنما في افريقيا الحفصية والدولة المرينية كذلك، وهو ما يؤكد أيضا جدلية التعاون والتنافس بين الفقهاء والأولياء خاصة في افريقيا والمغرب الأوسط حسبما تشير إليه الباحثة التونسية[6].

---

[1]- ابن خلدون، العبر، 315/7. وأيضا رحلة ابن خلدون، ص265. لكن في الرحلة لم يذكر نسخة المصحف الكريم والأموال العينية.

[2]- الناصري، الاستقصا، 126/3.

[3]- سماه ابن خلدون بصاحب برشلونة بِطْرَه بن ألْقَنْط. انظر العبر، 358/7.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 37/2.ابن خلدون، العبر، 358/7.

[5]-ابن خلدون، بغية الرواد، 37/2. مجهول، زهر البستان، 50/2. ابن خلدون، العبر، 358/7.

[6]- نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، ص272.

ومما يمكن استنتاجه أيضا هو الدور الإيجابي لهذه السفارات التي انتهت أغلبها بالنجاح؛ حيث انعقد فيها الصلح والهدنة بدلا من الحرب والاصطدام العسكري بين الدولة الزيانية والأطراف الخارجية؛ فضلا عن أسلوب المهاداة كسلوك انتهجه سلاطين دول المغرب الإسلامي فيما بينهم في بعض الفترات تأكيدا لحسن النوايا وتعزيز علاقات الصلح والتقارب التي ساهمت في تقرير السلم بدلا من الحروب التي كانت دائما تداعياتها سلبية على المجتمع الزياني، ويمكن الإشارة أيضا إلى أنّ كثافة العمل الدبلوماسي في الدولة الزيانية اقترن بشخصية السلاطين الذي عُرفوا بالقوة والشجاعة، على غرار عهد مؤسس الدولة السلطان يغمراسن بن زيان والسلطان أبا تاشفين الأول والسلطان أبا حمو موسى الثاني، وما يميز نتائج السفارات بصفة عامة والتي انتهت بهدنة هو عدم تحديد مُدة الصلح وما تم تحديده ليست بمدد طويلة، ونستنتج كذلك أهمية كتب المناقب والرحلة في التأريخ لمثل هذه القضايا السياسية؛ بدليل أنها أمدتنا بمعطيات هامة حول السفارة لم تذكرها لنا كتب التاريخ السياسي.

ثانيا: النصح والمشورة والاستقطاب القبلي

1-النصح والمشورة

لقد عمل الفقيه لأجل تكريس قربه من السلطة على الترويج لخطاب يقوم على تفعيل واجب بذل النصيحة للحكام[1] ويعتبر الماوردي أحد المتبنين لهذا الخطاب حين حثهم على قبول النصيحة إذ أنهم "أحق من تُهدى إليه النصائح، ويُخول بالمواعظ"[2]. وفي هذا السياق أشير إلى تنويه ابن حزم في حالة ما إذا نزلت بالملك معضلة مهما كان نوعها وليس عنده فيها يقين، شاور من أصحابه وولاة جنوده من يرجو عنده فرجا في ذلك...ويسأل عن كل علم أربابه[3]، ومن خلال المراجعة الواسعة للمصادر أظهرت لنا إحدى هذه المواقف، من ذلك ما قام به السلطان أبو العباس أحمد العاقل (834-866هـ/1430-1461م)

---

[1]- لخضر، بولطيف: الفقهاء والسلطة في الغرب الإسلامي بين منطق الولاء ومنطق البراء"، مجلة منار الهدى، ع15، 2010، ص62.

[2]- علي، بن محمد الماوردي: نصيحة الملوك، تحقيق: خضر محمد خضر،ط1، (د.ب.ن): منشورات مكتبة الفلاح، 1983، ص39.

[3]- أفرد ابن رضوان العديد من الحكم والنصائح في الباب السابع تحت عنوان: في التدبير والرأي والمشاورة والمذاكرة وما يلحق بذلك. انظر ص149.

إذ قصد الفقيه أبو الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (ت857هـ/1453م) حينما أحس بالخطر أمام تحرك السلطان الحفصي نحو تلمسان[1].

وكان هذا السلطان يولي عناية عظيمة بهذا الولي فقد كان "يُكثر من زيارته، ويقتبس من إشارته"[2]، ومن خلال رواية صاحب البستان[3] يتبيّن أنّ السلطان قصده بنفسه ليستشيره ويأخذ رأيه في كيفية مواجهة هذا العدو قائلا: "يا سيدي إنّ هذا الإنسان توجه إلينا كما علمت، فأستشيرك في ثلاثة أمور، هل أذهب إليه وألقاه في الطريق، أو أصبر حتى يقدم إلينا، أو أذهب إلى هُنين فأركب منها إلى الأندلس". فكان من إجابة الشيخ أن اقترح عليه عرض الأمر على ولي آخر وهو محمد الهواري[4].

2- الاستقطاب القبلي

أشرت ضمن العناصر السابقة إلى أنّ الإستراتيجية المتبعة عند سلاطين بني زيان في حالات الخصاصة في عدد الجند نظرا لتعرضهم إلى الاستنزاف بسبب كثرة الحروب التي خاضتها الدولة الزيانية، إلى اللجوء إلى بعض القبائل العربية أو البربرية لتعويض ذلك النقص، ونظرا لصعوبة وحساسية هذه المهمة فإنها في الغالب لا توكل إلاّ لمن له معرفة سابقة بالقبائل المنتشرة في مجال المغرب الأوسط، ويتمتع بحنكة سياسية ونظرة ثاقبة من أجل القدرة على تطويعها واستمالتها؛ لذلك راهن السلاطين على بعض الفقهاء لأجل ذلك ومن هؤلاء عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحي وأولاد الإمام وغيرهم.**فهل نجحوا في ذلك؟**

لم يستسلم السلطان أبو حمو موسى الثاني بعد هزيمته في بجاية ضدّ أبي العباس الحفصي سنة 767هـ/1366م[5] بعدما أصابه من فشل وخيبة بعد تفرق جيشه[6]، ومما عُرف عنه هو تعويله على القبائل العربية في التصدي لأعدائه[7]، لذا سرعان ما أصدر الأوامر بجمع الجيوش مرة أخرى ولا خيار له إلاّ الاستعانة ببعض القبائل العربية التي تقع في المجال الجغرافي للدولة لما يربطها من تحالفات وذلك مقابل

---

[1]- ابن مريم، البستان، ص231.

[2]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص248.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص404.

[4]- ابن مريم، المصدر السابق، ص404.

[5]- تعتبر أكبر هزيمة في حياة أبي حمو حدثت بالضبط في 8 ذي الحجة 767هـ/1365م خسر خلالها الكثير من جيشه وعتاده الحربي وتعرضت نساؤه للسبي. انظر التفاصيل في ابن خلدون، العبر، 7/153-154-155.

[6]- حاجيات، أبو حمو موسى الزياني-حياته وآثاره-، ص158.

[7]- ابن الخطيب، المصدر السابق، 3/216.

الأموال والاقتطاعات،ومن هذه القبائل "الذواودة" من رياح لتعويض النقص من الجند؛ خاصة بعد أن انفصلت عنه بعض القبائل مثل قبائل زُغبة التي سئمت من دفع الضرائب للسلطان أبي حمو وانحازت إلى عدوه أبي زيان، فاستدعى لهذه المهمة عبد الرحمن بن خلدون(ت 808هـ/1405م) [1] الذي كان متواجدا في هذه الأثناء عند صاحبه أحمد بن يوسف بن مزني أمير بسكرة[2].

ولم يكن اختيار ابن خلدون لهذه المهمة اعتباطيا بل لكونه عالما فقيها جمع بين العلم والمهارة والحنكة السياسية والذكاء والدبلوماسية هذا من جهة، ومن جهة أخرى لسابق معرفتة بهذه القبائل وعلاقته الطيبة معها ويصف ذلك قائلا: "وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم، ومُلك زمامهم"[3]، ولكن نظرا لانشغال ابن خلدون بالعلم فقد اعتذر عن القيام بهذه المهمة وأوكلها لأخيه يحي[4] الذي نجح في "استمالة شيخ الذواودة يعقوب بن علي بن أحمد... مع أربعمئة فارس من أعيان هذا القبيل"[5].

ويذكر ابن خلدون أنّ الأمر سيتكرر معه بعد استفحال الصراع بين السلطان أبي حمو ضدّ ابن عمه أبي زيان الذي استولى على مليانة والمديَّة سنة 768هـ/1366م وسرعان ما أعلنت بعض القبائل الولاء لأبي زيان مثل قبيلة الثعالبة من المعقل، وتبعهم أهل الجزائر الذين انفصلوا عن أبي حمو[6]؛ نتيجة جور عمال المغارم عليهم حسبما يذكر ابن خلدون[7]؛ مما يعني خروج المنطقة الشرقية من سيطرة أبي حمو وهو ما يستدعي استعمال الدهاء والوسائل السياسية مرة أخرى بعد فشل المحاولات العسكرية، لذا سيعمل مرّة أخرى على استقطاب الذواودة بعد أن انسحبت من جيشه في هزيمة 769هـ/1367م، ويقول في هذا

---

[1]- أورد ابن خلدون في رحلته نص الرسالة التي بعث بها السلطان أبو حمو موسى إلى ابن خلدون يستقدمه ليقلده خطة الحجابة عنده، واستعماله كذلك في شحذ همم بعض القبائل لنصرة أبي السلطان أبي حمو، وقد بعث هذه الرسالة على يد سفير من وزرائه وهو مقيم في بسكرة. انظر فحوى هذه الرسالة كاملا في رحلة ابن خلدون، ص98-99.

[2]- المصدر نفسه، ص98.

[3]- المصدر نفسه، ص98.

[4]- نلاحظ أنّ يحي ابن خلدون في كتابه بغية الرواد في خضم حديثه حول هذه المهمة لا يشير إطلاقا إلى أخيه عبد الرحمن وإنما يقول: "ودفع لي من قبل الخليفة، أيده الله، كتابا يأمرني فيه بإعانته على غرضه من رياح لملابستي بالقوم وغنائي فيهم ثم القدوم معه بهم على بابه الكريم. فبادرتُ ممتثلاً، وقمت فيهم إلى مقامه العلي، داعيا غير مولٍ نصحا ولا مغادِرٍ جدّا إلى أن أصبت نهزَة القوم وحزَزْتُ مفصَله...". ابن خلدون، بغية الرواد، 193/2-194.

[5]- المصدر نفسه، 194/2.

[6]- ابن خلدون، العبر، 155/7-156. ابن خلدون، بغية الرواد، 186/2.

[7]- ابن خلدون، العبر، 155/7.

الشأن: "فوفدت عليه بطائفة من الذواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان..."[1]، وقد حدث هذا في أخريات سنة 771هـ/1369م؛ أما قبائل بني عامر من عرب زُغْبة الذين يتميزون بالشجاعة الفائقة فقد استمالها السلطان أبي حمو بإغرائها بالمال فانفصلوا عن أبي زيان وانضموا إلى جيش أبي حمو طائعين[2]؛ ورغم مشايعة ابن خلدون لأبي حمو وإيلاف ما بينه وبين الذواودة انهزم الملك أمام أبي العباس ومحمد بن أبي زيان ورجع إلى تلمسان[3].

ويبدو أنّ المرينيين يتحينون الفرص كعادتهم للهجوم على تلمسان ففي تلك الأثناء خرج السلطان عبد العزيز المريني في جيوشه لغزو تلمسان وانتزاعها مرة أخرى من بني عبد الواد فدخلها في 10محرم من سنة 772هـ/1370مدون قتال[4]، ونظرا لنجاح ابن خلدون في مهمته الأولى فقد كان المعول عليه دائما من طرف السلطان أبي حمو في شأن استقطاب قبائل رياح، لكن هذه المرة من أجل مساندته في حربه ضدّ السلطان عبد العزيز المريني (767-774هـ/1365-1372م)[5]؛ويقول ابن خلدون في هذا الشأن: "ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدّمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطّد أمره، وأحملهم على مناصرته، وشفاء نفسه من عدوّه، بما كان السلطان آنس مني استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة..."[6].

وبعد كل هذه الأحداث سار ابن خلدون في وفد من الرؤساء لزيارة أبي حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة فلقيه بالجزائر وبقي عنده وقتا ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده[7] فانقلب إلى عدوه السلطان عبد العزيز المريني يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده.

---

[1]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص119.

[2]-ابن خلدون، العبر، 389/7. حاجيات، المرجع السابق، ص164.

[3]- الطمار، المرجع السابق، ص192.

[4]- يختلف يحي ابن خلدون في تحديد تاريخ سقوط تلمسان على يد السلطان عبد العزيز المريني حيث حدده ب 25 محرم سنة 772هـ/1370م مقارنة بما أورده كل من عبد الرحمن بن خلدون والناصري اللذين حدداه في عاشوراء من السنة نفسها. انظر ابن خلدون، العبر، 390/7. ابن خلدون، بغية الرواد، 229/2-230. الناصري، المصدر السابق، 57/3.

[5]- ابن خلدون، العبر، 158/7.

[6]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص121.

[7]- المصدر نفسه، ص122.

وعلى الرغم من هذه المحاولة من ابن خلدون في استمالة أولاد محمد من رياح إلاّ أنّ الجيش المريني فاجأهم مرّة أخرى ففرّ بنو عامر أمام العدو، فانهزم السلطان أبي حمو ومن بقي معه هزيمة كبرى في قرية الدوسن من بلاد الزاب في أوائل ربيع الأول 772هـ/1370م[1].

وفي خضم الصراع العنيف بين السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت (حكما 749-753هـ/1348-1352م) ضدّ السلطان أبي عنان المريني (749-759هـ/1348-1357م)، اضطرّ السلطان أبو ثابت الزياني الاستعانة بأحد عماله من أجل تطويع بعض قبائل الشرق فأطاعته تدلّس على يد مولاه جابر الخراساني وذلك في أول شهر ربيع الأول سنة 753هـ/1352م[2].

ونشير بالذكر إلى أدوار أخرى قام بها العلماء في سبيل إرضاء سلاطينهم تتمثل في جلب طاعة بعض المدن وولائها للدولة الزيانية، مثلما قام به أحد أولاد الإمام وهو عبد الرحمن الذي كان من المقربين من السلطان أبي حمو موسى الأول فاختصه لمشورته وأكثر من ذلك فقد فوضه لأن يكون ممثلا له بمسقط رأسه ببرشك، وهذا في حدود سنة 708هـ/1308م، فاستقرت هذه البلاد على طاعتها لبني زيان بفضل حزم وثقة هذا الإمام[3]، وممن استخدمهم أيضا هذا السلطان الشيخ الآبلي (ت757هـ/1356م)حيث كلفه بقيادة قبائل بني راشد، لكن هذا الأخير لم يستحسن هذه المهمة مما أدى إلى فراره ومغادرة تلمسان إلى المغرب[4]؛ ونضيف دور عبد الله بن مسلم وزير أبي حمو الثاني الذي استعمله في استمالة عرب المعقل إلى بني عبد الواد بعد أن كانوا موالين لبني مرين[5].

صفوة القول تعددت أدوار النخبة في العهد الزياني نظرا للمكانة التي كانوا يحظون بها عند السلاطين لذا أصبحوا محل ثقتهم فكلفوا بمهام سياسية متنوعة منها الوساطة والشفاعة لدى الطرف الغازي وأخذ المشورة منهم والاستقطاب القبلي فوفقوا في أغلبها بحكمقدرتهم على التأثير والإقناع، ونستنتج كذلك أنّ أغلب هذه الأدوار كانت من نصيب الفقهاء الذين تمت المراهنة عليهم مما يدل على اتصافهم بالحنكة السياسية والبراعة الدبلوماسية.

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 230/2-231. حاجيات، المرجع السابق، ص171.

[2]-ابن خلدون، المصدر نفسه، 263/1.

[3]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص47. نصر الدين بوداود، المرجع السابق، ص317.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 157/1-158. ابن مريم، البستان، ص381.

[5]-ابن خلدون، العبر، 369/7.

ثالثا: الحرب والمرأة وتجليات الحضور (حريم السلطان)

ضمن الفعاليات الاجتماعية التي كان حضورها قويا في الفترات العصيبة التي عاشتها الدولة الزيانية نجد المرأة؛ فقد حتمت تلك الظروف أن تدخل المرأة الزيانية وتكون طرفا فاعلا فيها. **فما هي الأدوار التي اضطلعت بها؟**

1-مشاركة المرأة في اتخاذ القرار السياسي

على الرغم من أنّ المرأة كانت من أكثر المتضررين من الحرب، فإنّي لاأعدم بعض النصوص التي تثبت أنها قامت بأدوار هامة، وحركت من خلف الستار أمهات القضايا السياسية[1] كأن تتولى رئاسة قبيلتها[2]، أو تشارك في المفاوضات من أجل إيقاف الحرب أو رفع الضرر والمعاناة على الأهالي.

ومن ألمع أسماء النساء الزيانيات اللواتي كان لهن دور فردي في مرحلة تعرضت فيها تلمسان للغزو الحفصي هي أم السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م) المعروفة ب"سوط النساء"؛ وبحكم مركزها أم السلطان كانت لها تجارب في شؤون السياسة، وذلك من خلال مشاركتها على رأس الوفد الزياني للتفاوض مع العاهل أبي زكرياء الحفصي (625-647هـ/1227-1249م) نيابة عن ابنها الذي أخرج من تلمسان سنة 640هـ/1242م بعد استيلاء الجيش الحفصي عليها بقيادة أبي زكريا، وقد تمكنت هذه الأخيرة من إنقاذ عرش ابنها من خلال توقيع معاهدة صلح مع الحفصيين يعود بمقتضاها ابنها يغمراسن إلى عرشه، مقابل دفع إتاوة مالية قدرها مائة ألف دينار[3] وأن يذكر اسمه على المنابر في خطب الجمعة والأعياد[4].

ومن خلال هذا التصرف يبدو ذكاء هذه المرأة وحزمها وحرصها على تدعيم وتثبيت السلطة لإبنها، وهو ما أثار إعجاب السلطان أبي زكريا الحفصي بها "فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن

---

[1]- القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص48.

[2]- من القرائن التي يمكن أن نسوقها حول النساء اللائي تطلعن إلى رئاسة القبيلة وإن كانت في مرحلة مبكرة هو ما قاله ابن خلدون عن امرأة تدعى "شمسي" والتي تولت رئاسة قبيلتها بمساعدة أبنائها العشرة؛ وهي قبيلة يراتن إحدى القبائل البربرية في العهد الموحدي. للتفصيل عن هذه الأحداث انظر ابن خلدون، العبر، 153/6.

[3]- ابن خلدون، بغية الرواد، 113/1.

[4]- الحاج محمد، بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، 69/1.

وفادتها"[1]، وهذه هي الشهادة الوحيدة التي نقلتها لنا المصادر التاريخية الخاصة بالعهد الزياني حيث لم يشهد بمثله لأمهات السلاطين اللائي جئنا بعدها بترؤس مجالس المفاوضات.

2- المصاهرات السياسية الأطراف والأسباب

غالبا ما أدى الصراع المستمر بين الأطراف المتنازعة إلى البحث عن حلول أخرى وسطية بعيدًا عن استخدام السلاح وإراقة الدماء، ومن بين الحلول التي تم اللجوء إليها في خضم بعض الحروب التي شهدتها الدولة الزيانية ضدّ أعدائها المصاهرات السياسية من أجل إيقاف نزيف الحرب أو تفاديها وعدم الدخول فيها.

احتفظ لنا التاريخ بأدوار ساهمت فيها المرأة في المجالين السياسي والعسكري على غرار مشاركتها في دواليب السلطة أو خروجها جنبا إلى جنب مع الرجل إلى ساحات القتال كمثيرة للحماس أو ما كانت تساهم به في منع نشوب الحرب واستيعاب نتائجها؛ ومن ذلك الزج بها في مصاهراتسياسية وقبولها الزواج ولو مكرهة من الطرف الغازي أو المهدد بالغزو[2]، وهكذا فالتاريخ الزياني يسجل حالات لمصاهرات سياسية بهدف لجم الصراع والتناحر الذي كان ينشب بين الفينة والأخرى بين بني زيان وأعدائهم.

أ- مصاهرة بين السلطان يغمراسن والسلطان أبي إسحاق الحفصي

لقد حرص السلطان يغمراسن على تعزيز علاقاته وربط صلة وثيقة بالسلطان أبي إسحاق الحفصي تفاديا لأي حرب محتملة[3]؛ وأكد ذلك بالمصاهرة فخطب ابنته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان سنة 681هـ/1282م[4]، وهي التي ستنجب له فيما بعد سلطانين من سلاطين بني زيان وهما أبو زيان محمد (703-707هـ/1303-1307م) وأبا حمو موسى الأول بن عثمان (708-718هـ/1308-1318م)؛ فأرسل للإتيان بها ولده أبا عامر[5]، وقد حرص السلطان يغمراسن الذي جاوز السبعين من

---

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص29. ابن خلدون، المصدر السابق، 96/7. ابن الشماع في كتابه الأدلة البينيّة النورانية وابن قنفذ في الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لا يذكران هذه السفارة.

[2]- تيتاو، الحرب والمجتمع، ص383.

[3]- هذا التصرف من السلطان يغمراسن الزياني يعبر عن ذكائه وحنكته في الشؤون السياسية فهو بهذه المصاهرة سيؤمن بلاده من الجبهة الشرقية لأنّ الدولة الحفصية في هذه الفترة كانت تتميز بالقوة، لكن بعد ضعفهم بدأ خلفاء يغمراسن ومنهم أبو حمو موسى الأول وأبو تاشفين عبد الرحمن الأول يتوسعون شرقا حيث وصلوا إلى أطراف تونس.

[4]-ابن خلدون، بغية الرواد، 207/1. ابن خلدون، العبر، 107/7.

[5]- ابن خلدون، بغية الرواد، 207/1. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص128.

عمره على الانتقال بنفسه لاستقبال الوفد المصاحب للعروسة حفاية بها وإرضاء لأبيها[1]؛ فلقيهم بمليانة لكن الأجل المحتوم أدركه قافلا برهيو من واد الشلف سنة 681هـ/1282م[2].

ومن نتائج هذه المصاهرة نقص حدّة التوتر التي كانت قائمة بين الطرفين؛ وذلك بشهادة أحد المؤرخين الذي يتحدث عن خجل السلطان عثمان من التوسع شرقا بسبب علاقة المصاهرة والنسب بينه وبين الحفصيين[3].

ب–مصاهرة بين السلطان أبي حمو موسى الثاني ووالى بجاية

ومن المصاهرات التي كان لها الأثر الطيب على وضع حد للحملات المتكررة التي شنها السلطان أبو حمو موسى الثاني على بجاية سنة 765هـ/1363م وحصارها بهدف إخضاعها؛ وأمام عجز صاحب بجاية المولى أبي عبد الله الحفصي عن المقاومة والدفاع لأنه تعرض في الوقت نفسه إلى هجمات عسكرية من قبل ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة الذي هزمه مرتين، الأولى بفرجيوة آخر سنة 766هـ/1364م، والثانية قرب سطيف في أوائل سنة 767هـ/1365م، فصعب عليه الأمر في إدارة الجبهتين الشرقية والغربية، فآثر أن يغير موقفه إزاء أحد الجانبين يستعين عليه على مقاومة الآخر[4]، فعمل على تحسين علاقاته مع أبو حمو بإيجاد صيغة للتفاهم[5]، فعرض عليه مصاهرته في ابنته، وتم ذلك أوائل ربيع الثاني سنة 767هـ/1365م[6] مقابل الهدنة والصلح، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد "فأوفد رسله على السلطان أبي حمّو صاحب تلمسان في المهادنة ... وأصهر إليه في ابنته، فأجابه وزفّها إليه؛ فتلقاها قبيله ووزراؤه بآخر عملهم من حدود بجاية"[7].

---

[1]– ابن خلدون، المصدر نفسه، 207/1. التنسي، المصدر نفسه، ص128. برونشفيك، المرجع السابق، 115/1.

[2]– 29 ذو القعدة 681هـ/ 28 فيفري 1282م. ابن خلدون، المصدر السابق، 207/1. التنسي، المصدر السابق، ص128.

[3]– روبار، برونشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15م، تعريب: حمادي الساحلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988، 134/1.

[4]– حاجيات، المرجع السابق، ص153.

[5]– خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، ص94.

[6]– ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص97. التنسي، نظم الدر والعقيان، ص144. ابن خلدون، بغية الرواد، 159/2.

[7]– ابن خلدون، العبر، 153/7.

ت– مصاهرة بين السلطان أبي عبد الله أحمد المتوكل وأبي عمرو عثمان الحفصي

كان للمصاهرة التي أبرمت بين السلطان الحفصيأبي عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1487م) مع السلطان الزياني أبي عبد الله أحمد المتوكل (866-873هـ/1461-1469م) الأثر الكبير لوضع حد لنهاية سلسلة الهجمات التي كان يشنها هذا الأمير الحفصي بين الفينة والأخرى على تلمسان، وذلك لتأديب سلاطينها الذين كانوا يعلنون التمرد في فترة كانت تلمسان خاضعة للحفصيين بعد أن تمكن أبو عمرو عثمان من الاستيلاء عليها سنة 867هـ/1463م[1].

وإثر الهجوم الأخير الذي شنه الأمير الحفصي سنة 870هـ/1466م بعث إليه المتوكل أشياخ البلد يعرضون عليه العفو والصلح وكتبوا إليه بيعة سلطانهم والولاء له، وتزويج ابنته البكر لحفيده أبي زكريا يحي بن مسعود دون خطبة[2]. فقبل ذلك وعفا عنه وكتب له بخط يده نصا يقول فيه: "شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلاّ بالله"[3].

ث–مصاهرة بين السلطان أبي يحي الحفصي والسلطان أبي سعيد المريني

وفي المقابل نشهد حالة أخرى لمصاهرة ذات أغراض حربية لها دور سلبي على الوضع الأمني لدولة بني عبد الواد؛ وهو ما تم بين الطرفين المريني والحفصي في ظروف اقتضت عقد تحالف بينهما وتوحيد الجهود من أجل تأديب السلطان أبي تاشفين الأول (718-738هـ/1318-1337م) وإخضاع تلمسان، وقد تأكدت هذه المصاهرة التي تمت بين الأمير أبي سعيد عثمان المريني (710-731هـ/1310-1330م) ونظيره أبي يحي الحفصي سنة 731هـ/1330م[4] بعقد قران الأميرة فاطمة شقيقة أبي زكرياء[5] بابنه أبي الحسن.

---

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص156-157.

[2]- المصدر نفسه، ص158.

[3]- المصدر نفسه، ص158.

[4]- الزركشي، المصدر السابق، ص68. ابن خلدون، العبر، 7/129-298-299. الناصري، الاستقصا، 3/117.

[5]- قتلت الأميرة فاطمة في معركة طريف سنة 741هـ/1340م، ثم يخطب بعدها أبو الحسن أختها سنة 746هـ/1345م. انظر الناصري، المصدر السابق، 3/135.

جدول يبين حالات المصاهرة بين سلاطين الدولة الزيانية مع نظرائهم من بني مرين وبني حفص

السنة	طرفا المصاهرة		المصدر
681هـ/1282م	الأمير العبد الوادي أبو سعيد عثمان بن يغمراسن	بنت السلطان الحفصي أبي إسحاق ابراهيم	بغية الرواد، 207./1 العبر، 107/7 نظم الدر، ص128
765هـ/1363م	السلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني	إبنة صاحب بجاية المولى أبو عبد الله الحفصي	بغية الرواد، 159/2 العبر، 153/7 رحلة ابن خلدون، ص97. نظم الدر، ص144
866هـ/1461م	ابنة الأمير الزياني أبي عبد الله محمد المتوكل	حفيد الأمير الحفصي أبو عمرو عثمان	تاريخ الدولتين، ص158
731هـ/1330م	الأمير المريني أبو الحسن	الأميرة فاطمة ابنة الأمير أبي يحي الحفصي	العبر، 129/7-298-299 الاستقصا، 117/3 الزركشي، ص68

3- حضور المرأة في الحرب

لقد كشف التاريخ العسكري على مدى قرون طويلة عن أدوار متفاوتة قوّة وتأثيرا لعبتها المرأة في شتى أوجه النزاعات العسكرية؛ فقد برزت في العديد من الحروب كقائدة ومقاتلة أو كمثيرة لحماس المقاتلين ومشجعة لهم على مواجهة العدو وداعية إلى البذل والعطاء[1]، بجانب تفانيها في أعمال أخرى تتقنها وهي ترافق الجيوش في ساحات القتال في مجال الطبابة والإمداد إلى غير ذلك من المهن التي تتناسب مع طبيعة تكوينها الجسماني والنفسي.

[1]- يشير ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في سياق حديثه حول فتوى جواز أو عدم جواز قتل المرأة المشاركة في الحرب نظرا لتعدد أدوارها فيها ومدى تأثيرها وذلك في قوله: "وللمرأة آثار عظيمة في القتال؛ منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، فقد كنّ يخرجن ناشرات شعورهنّ، نادبات، مثيرات للثأر، معيّرات بالفرار...". أبو بكر محمد، بن عبد الله بن العربي: أحكام القرآن، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، القسم الأول، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص149.

1-القتال وإثارة الحماس

على الرغم من أننا لا نمتلك أسماء لبطلات قُدْنَ الجيوش وخُضْنَ المعارك ضدّ أعداء بني زيان مثلما حدث في العهد المرابطي؛ فحسبما ذكرت مصادر تلك الفترة فإنّ النساء المرابطيات كُنَّ يخضن المعارك ويقاتلن في زي الرجال نظرا لما يتمتعن به من الشجاعة والحرية[1]، إلاّ أنّ ذلك لا ينفي مشاركة المرأة الزيانية هي الأخرى في الحروب إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال هذه الحقبة.

ويستفاد مما ذكرته المصادر التاريخية أنّ قادة الجيش الزياني اعتادوا أثناء خروجهم إلى المعارك أن يصطحبوا معهم هوادج تحمل فوق الجمال وبداخلها نساء[2]، وهذا ما يثبت حضورها إلى جانب الرجل إما لغرض الاستئناس بها أو للقتال إلى جانبه إذا دعت الضرورة؛ على الرغم أنّ الخطاب الفقهي نصّ على عدم جواز السفر بالنساء إلى أرض الحرب نظرا لما سيترتب عن ذلك من عواقب وخيمة[3].

ومن الشواهد التي تثبت لنا حضور المرأة الزيانية في ساحة القتال هو ما حدث عندما هاجم أبو الحسن المريني (732-749هـ/1331-1348م) مدينة تلمسان سنة 737هـ/1337م، كانت نساء تلمسان يَخُضْنَ المعارك إلى جانب الرجال خلف الأسوار[4].

---

[1]- لقد احتفظ التاريخ بأسماء بعض البطلات المرابطيات منهن زينب النفزاوية وفاتّو بنت عمر بن ينتان التي تحدث عنها أبو بكر الصنهاجي وعن شجاعتها حينما اقتحم الموحدون مدينة مراكش، "فكانت في ذلك اليوم تقاتلهم في هيأة رجل ملثم وكان الموحّدون يتعجّبون من قتالها ومن شدّة ما أعطاها الله من الشجاعة وهي بكر" انظر أبا بكر الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق: ليفي بروفنسال، باريس: (د.ن)، 1928، ص103. نقلا عن مليكة، حميدي: "المرأة المغربية في عهد المرابطين (448-541هـ/1056-1146م)"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، الجزائر، 2001-2002، ص76.

[2]- الناصري، الاستقصا، 26/3. مجهول، الذخيرة السنية، 147-148-168. لم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على بني زيان فحسب وإنما العرب أيضا كانوا يصطحبون نساءهم في حروبهم لتزداد شجاعتهم ويقل خوفهم. انظر الوزان، المصدر السابق، 64/1.

[3]- "لا يجوز السفر بالنساء إلى أرض الحرب، ويجوز للرجال، مع أنّ الأسر لا يؤمن على كل واحد منهما، لأنّ مفسدة أسر النساء أعظم من مفسدة الرجال، لأنّ أسر النساء فيه الاستخدام والوطء، وأسر الرجال ليس فيه إلاّ الاستخدام...". =انظر الونشريسي، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تحقيق: حمزة أبو فارس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص209.

[4]- فيلالي، المرجع السابق، 293/1.

ونظرا للتأثير النفسي العميق الذي تحدثه المرأة في الرجال عملت في ساحات القتال على تشجيع وتحفيز المقاتلين ورفع معنوياتهم من خلال مختلف العبارات والتلميحات والسلوكيات[1] بحيث تجعلهم لا يبالون في ساحة الوغى بالشدائد والأخطار والأهوال، ويعتبر هذا السلوك حسب أحد الباحثين نوعا من الدعاية والإعلام والإشهار سواءً قبل بداية المعركة أو أثناءها نظرا لما يحتاجه المحاربون من حماسة تفوق طاقاتهم الحقيقية[2]؛ ومن الأمثلة التي نسوقها للبرهنة على هذا الطرح ما حدث في معركة وادي تلاغ حينما احتدم القتال بين الطرفين وبلغ ضراوته إلى حد "أنّ النساء برزن في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض"[3].

وفي نفس السياق يؤكد صاحب الذخيرة بمشاركة نساء كلا الفريقين ويصف ثيابهن وفي ذلك يقول: "واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال..."[4]؛ لشحذ الهمم والحث على البذل والعطاء وعدم التراجع والتخاذل.

والجو يرمل في سمـاء فساطـل *** وبنابها ظللا على الفرسان

والسيف دنى المضربين كجدول *** في ضفتيه شقائق النعمان[5]

وفي خضم الصراع المستمر خاصة مع بني مرين وهو ما ترجمته كثرة الحروب ضدّهم نقلت لنا بعض المصادر بعض المواقف حول المرأة وهي تجابه الشدائد والأهوال وتعرض نفسها للخطر في الحرب؛ مثلما حدث أثناء المواجهة الشرسة بين الزيانيين والمرينيين عندما اقتربت إحداهن ودنت من مقام أبي الحسن

---

[1]- المرجع نفسه، 293/1.

[2]- يشير الباحث إلى تعدد طرق التحفيز من فترة إلى أخرى ففي الجاهلية والإسلام مثلا كانت الحماية والأشعار تصاحب المحارب وكانت النسوة يسبقن خروج أزواجهن للمعارك بالأشعار والأهازيج والطبول، فإنهن كن أيضا يحذّرن بعولهن بسوء المصير، وهجر الفراش، ووصمة العار إن هم تخلفوا عن المعارك أو لم يبلوا فيه البلاء الحسن. عبد الكريم، بوقرة: الإعلام والحرب من التمثيل إلى التقديم، ص7.

[3]- الناصري، الاستقصا، 25/3-26. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص305.

[4]- مجهول، الذخيرة السنية، ص115.

[5]- المصدر نفسه، ص116. الأبيات من البحر البسيط.

المريني، ورفعت صوتها تنادي بني زيان، وتحثهم على المقاومة والصمود، وفي الوقت نفسه كانت تهجو سلطان بني مرين وجنده، وتكيل له الشتائم[1].

ومن خلال المادة الخبرية نلاحظ أنّ ظاهرة اصطحاب النساء إلى الحرب تكررت كثيرا في عهد أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) الذي كان مهتما باصطحاب نسائه وأمواله كل ما خرج إلى الحرب أو إلى الصحراء، مثلما حدث في سنة 765هـ/1363م حيث "راح يسير الهوينا، والحرَم والمال بين يديه"،[2] وفي حربه سنة 767هـ/1365م "لزم أمير المسلمين ...فضم فساطيطه الكريمة لاستركاب حُرُمِهِ وحَمْل أموَالِهِ"[3]، وكذلك ما حدث بعد أحداث حرب 769هـ/1367م عند دخوله حضرة ملكه "بعد دخول وزرائه وجيشه وماله وحرمه إليها بيومين أو ثلاثة..."[4]؛ ومما يُفهم من هذا التصرف أنّ السلطان كان يقوم بذلك من باب الإحتياط كي لا تتعرض نساؤه للموت أو للسبي لأنّ تلمسان كانت تتعرض باستمرار للإجتياح من طرف المرينيين.

4- التدخل للمنع والتخفيف

لقد أفصحت المصادر التاريخية عن الأدوار المتعددة التي قامت بها المرأة خلال الحروب التي شهدها العهد الزياني، وذلك كرد فعل لتجنب تلك الصدامات المتكررة أو من أجل التخفيف منها، ومن المواقف الشجاعة التي تحسب لنساء السلاطين الزيانيين في فترة كانت تلمسان معرضة للحصار الطويل، والذي تسبب في مأساة أهالي تلمسان وذاقوا خلالها كل أنواع العذاب؛ لم تكن نساء البلاط على هامش الأحداث بل كان لهن موقف شجاع من خلال الدعوة إلى مواصلة المقاومة حتى الموت أو النصر؛ فأرسلن الخادمة "دعد" قهرمانة القصر لتقول للسلطان أبي زيان (703-707هـ/1303-1307م) "تقول لكم حضايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا وللبقاء، وقد أحيط بكم، وأسف لالتهامكم عدوّكم، ولم يبق إلاّ فواق بكيئة لمصارعكم؟ فأريحونا من معرّة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم، وقرّبونا إلى مهالكنا. فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم..."[5]. كما يستفاد أيضا من نص هذا الخطاب أنّ هؤلاء الحرائر وعلى الرغم من هذا الظرف الصعب الذي عِشْنَهُ لم يؤثر على حالتهن النفسية نظرا لما تميزن به من الشجاعة وقوة

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص184.

[2]- ابن خلدون، بغية الرواد، 140/2.

[3]- المصدر نفسه، 171/2.

[4]- المصدر نفسه، 197/2.

[5]- ابن خلدون، العبر، 114/7.

الشخصية في مقاومة الحصار؛ بدليل أنهنّ اخترن الموت على أن يقعن أسيرات في يد العدو، والتعرض للسبي والمذلة.

ومن النماذج الأخرى التي تعكس دور المرأة في التدخل للتخفيف من آثار الحصار الذي ضربه السلطان أبو الحسن المريني على سكان تلمسان؛ وإن لم تكن من بني زيان وإنما هي إحدى نساء بني مرين، لكن ومن خلال تصرفها النبيل وموقفها الإنساني تجاه أهالي تلمسان ارتأيت إدراجها ضمن النساء اللائي كان لهن دور متميز، والمتمثل في شفاعتها لدى ابنها لوقف هذا الحصار لما لحقهم جَرَّاءَهُ من مآسٍ وآلامٍ وإن لم تنجح في ذلك؛ وفي هذا الصدد يروي ابن مرزوق على لسان السلطان أبي الحسن قائلا: "فدخلت عليَّ يوما فكلمتني في شأن أهل تلمسان وإعفائهم من الحصار...قال: فقلت لها إنّ الشّرع أمرني بهذا، وبينت لها ذلك بطريق شرعي، فحينئذ أمسكت"[1].

خلاصة القول أمام حالة العوز للنصوص التاريخية التي تفصح عن المشاركة الفعلية للمرأة الزيانية في ساحة المعركة تقاتل أما الرجال فإني أعتقد بأنّ حضورها كان لغرض الاستئناس بها وإفاضة وجدان الجند بما يرددنه من أناشيد حربية تثير حماسهم للقتال، أما في الجانب السياسي فقد تقمصت المرأة الزيانية عدة أدوار سياسية خلال الفترة محل الدراسة كان لها الأثر الكبير في تغيير مسار الأحداث خاصة في الفترات العيبة التي شهدتها الدولة.

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص123.

المبحث الثاني: سلوكات المجتمع في المجال الاجتماعي

تميز المجتمع التلمساني بالتضامن الاجتماعي وبالتكافل والتآزر في الفترات العصيبة[1] والمتمثلة في فترات الحروب والحصارات المضروبة على تلمسان والتي تسببت معظمها في انتشار المجاعات؛ وينعكس ذلك في بعض السلوكيات وردود الأفعال التي قاموا بها والمتمثلة في فتح الأهراء والمطامير وتوزيع ما تحتويه من مختلف المواد الغذائية على المتضررين، وهم عموما من الشرائح السفلى من المجتمع كالفقراء والمتسولين وغيرهم.

أولا: أعمال التضامن فتح الأهراء وتوزيع الأقوات

1-فتح الأهراء السلطانية

تفيدنا إحدى نصوص الوزان التي أعطتنا مثالا بارعا في تضامن السلطان الزياني مع رعيته أثناء مجاعة الحصار الطويل حينما اشتكته الجوع، وهو السلطان عثمان بن يغمراسن الذي أجابهم بأنّه "قابل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لإعالتهم جميعا، إذ يعد بخسا بالنسبة لولائهم"[2]، ويعتبر اللجوء إلى الاحتياطات الغذائية المتراكمة في الأهراءات السلطانية كما نوهت إلى ذلك سابقا وتوزيعها على الرعية كسلوك من أجل التخلص من أزمة الجوع إلى أن تنفرج الأوضاع هو أحد الوسائل التي كان يلجأ إليها سلاطين بني زيان.

وقبل الخوض في أعمال الخير والتضامن التي قام بها السلطان أبو حمو موسى الثاني يجب أن أنوه إلى نظريته في كيفية التعامل مع رعيته؛ هذه النظرية الخاضعة للتغير بتغير ظروف البلاد، فإذا كان الزمن زمن رخاء وخير فإنّ على الملك أن يعدل فيهم ويسير بهم أحسن سيرة، ويضبطهم غاية الانضباط من غير تفريط ولا إفراط[3]؛ أما إذا كان الزمن زمن فتنة وثورة وفساد فيجب على الملك أن يظهر عليهم فضله حتى يضمن ولاءهم، وفي أوقات المجاعة يقدم الملك الرأفة على الشدّة في معاملته لها، فيرفق بهم في الجبايات، ويحسن لضعفائهم المحتاجين ويؤثر بما ادّخره لشدائدهم زمن الرخاء[4].

---

[1]- فيلالي، دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ص195.

[2]- الوزان، المصدر السابق، 18/2.

[3]- أبو حمو موسى الزياني الثاني، واسطة السلوك، ص153.

[4]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر نفسه، ص153. وداد القاضي، النظرية السياسية للسلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني، ص184.

كانت هذه النظرية نابعة من تجربته مع رعيته أثناء فترة حكمه التي تخللتها الكثير من الفتن والاضطرابات السياسية، فأحسن التعامل مع الرعية التي تضررت بسبب هذه الفتن، ومن الشواهد التي تبين لنا ذلك حين تصدق بنصف جباية الدولة وأمر بفتح الأهراء وتوزيع الأقوات على الضعفاء والمساكين والفقراء، محاولة منه للتخفيف من معاناتهم فقد أمر بتقديم الطعام لهم في الصباح والمساء[1]. وفي هذا السياق يشير ابن خلدون إلى إنفراد السلطان أبي حمو بهذا السلوك قائلا: "فكان ذلك عملا في البر راجحا، وأثرا في الصالحات خالدا، لم يُعهد مثله لملك سواه"[2].

كما كانت الحبوب المخزونة عنصرا فعالا في مكافحة الغلاء[3] فقد عمد السلطان أبو حمو الثاني في هذه المجاعة إلى عرض الاحتياطات الغذائية وأباح للناس بيعها في الأسواق وبأسعار منخفضة[4] عادة ما تكون أقل من الأسعار المتداولة. كما نصح ابنه بذلك بأن "تحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام، مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام"[5].

2- فتح أهراء النخبة

ممن بادروا إلى أعمال البر والإحسان تضامنا مع أفراد المجتمع نخبة تلمسان المتمثلة في الفقهاء والعلماء والمتصوفة والبيوتات الميسورة[6]، الذين قاموا بمجهود لا ينكر في سبيل تجاوز أزمة الجوع من خلال تضامنهم مع الفئات الفقيرة والمحتاجين من الناس، ومن الأساليب التي اعتمدوها للتخفيف عليهم أسلوب الصدقة كطريقة يغنون بها هؤلاء مؤونة السؤال[7]؛ ومن هؤلاء نذكر الولي الصالح أبا زيد عبد الرحمن بن

---

[1]-ابن خلدون، بغية الرواد، 298/2. فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 141/1. الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان، ص109.

[2]-ابن خلدون، المصدر السابق، 298/2.

[3]- الطبابي، الموت في مصر والشام، 140/1.

[4]-ابن خلدون، المصدر السابق، 298/2.

Marcais (G): Tlemcen les villes d'arts celebre, p 87.

[5]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص153.

[6]- فيلالي، المرجع السابق، 195/1.

[7]- الطاهر، بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين/ 12-13 الميلاديين، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص189.

يعقوب الذي تصدق بخبز عياله إلى رجل اشتكى له جوعه وجوع عياله رأفة به، وكانوا في سنة مجاعة[1]. وكذلك أبا العباس أحمد بن مرزوق (ت741هـ/1340م) الذي عرف بكثرة الصدقات وأعمال البر[2] حيث كان يتفقد الفقراء في بيوتهم[3] ويتصدّق بكميات كبيرة من القمح والفحم والخليع والزيت على الضعفاء في كل يوم فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ مطاميره[4].

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم التنسي (ت680هـ/1281م)[5] الذي كان يتصدق هو الآخر على الفقراء من أرباح تجارته[6]، ونضيف إلى هؤلاء أعمال الشيخ الصالح يعقوب بن محمد بن محيو الهواري من صلحاء البادية[7] الذي كان دائما رحيما بالفقراء والمساكين، ونذكر بعضا من أعماله الكثيرة التي تثبت ذلك منها ما ذكره أبو موسى عمران المازوني عنه أنه ورث خمسمائة دينار ذهبا بعد رجوعه من بلاد المشرق "فتصدّق بجميعها على الضعفاء والمساكين من الفقراء والأيتام والأرامل وذوي الحاجات وما أمسك منها شيئا"[8]؛ وفي إحدى المرات جاءته جماعة من الفقراء ولم يكن عنده ما يطعمهم ومع ذلك لم يقم بصرفهم، وبما أنّ الشيخ من أولياء الله الصالحين معروفي البركة؛ كان من كراماته أن تحول الرّمل في بيته إلى دقيق ونبات العُنصُل إلى لحم فأكلوا منه حتى شبعوا[9]. والنتيجة أن كانت أعمال هؤلاء كلهم عنصرا فعالا في مكافحة الجوع.

كما شهد القرن التاسع الهجري 15م بروز العديد من العلماء وأولياء الله الصالحين الذين كانت لهم أدوار اجتماعية مهمة ومن هؤلاء العالم الولي الصالح الحسن أبركان (ت857هـ/1453م) الذي كان رفيقا بالمؤمنين كثير الشفقة عليهم لا يتأخر على إعطاء الصدقات وإغاثة الملهوفين[10]، وكان الشيخ أحمد

---

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص299.

[2]- المصدر نفسه، ص188-190.

[3]- عبد الحق، حمّيش ومحفوظ، بوكراع بن ساعد: موسوعة تراجم علماء الجزائر علماء تلمسان وتوات، الجزائر: دار زمورة للنشر والتوزيع، 2011، ص234.

[4]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص191. فيلالي، المرجع السابق، ص255.

[5]- هو جد ابن مرزوق للأم.

[6]- بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7 الهجريين/ 12-13 الميلاديين، ص190.

[7]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص207.

[8]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص176.

[9]- المصدر السابق، ص205-206.

[10]- ابن صعد، روضة النسرين، ص119. التنبكتي، المصدر السابق، ص152.

الغماري (ت874هـ/1469م) "محبا للضعفاء والمساكين، مؤثرا لهم بالسؤال عن حالهم والصدقة سرا عليهم ينسلون إليه من كل حدب فلا يرد أحد منهم خائبا، ويعطيهم حتى كساءه التي تكون عليه وبرنسه الذي يغطيه"[1]، ومنهم أيضا الفقيه الولي الصالح الشيخ ابراهيم التازي (ت866هـ/1461م) حيث يقول ابن صعد أنه "محبا في الفقراء والمساكين مؤثرا لهم بإغاثة ملهوفهم، والقيام بشؤونهم دؤوبا على فعل الخيرات، وأنواع الطاعات حريصا على إيصال الخير لعباد الله يحب لكافة الخلق ما يحب لنفسه... وكانت الصدقات والنذر ترد عليه من الآفاق، فلا يدخر شيئا منها بل يصرف ذلك في وجهه، ويعود به على المحاويج"[2].

ثانيا: الشفاعة والوساطة (النخبة الفكرية)

كانت تدخلات النخبة العلمية مكثفة طيلة العهد الزياني وبخاصة فترة القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين، ومن بين المهام التي قامت بها الوساطة والشفاعة لدى الطرف الغازي.

نلاحظ أنّ هذه المهمة تولتها مجموعة من الشخصيات التي كان لها وزنها ومكانتها عند الخاصة والعامة كالعلماء والفقهاء والصلحاء؛ حيث لعبوا دور الوسيط بين المجتمع والسلطة، فقد سعى هؤلاء للشفاعة عند السلطان الغازي من أجل رفع ظلمه والكف عن إذاية الأهالي نتيجة تلك الحروب والاجتياح التي تمارسها جيوشهم، وعلى ضوء المادة العلمية المتوصل إليها تبين لنا أنّ الشفاعة أُلتمست من كلا الطرفين وأعني بهم المريني والحفصي. **فهل نجحت هذه السعايات والشفاعات واستطاعت أن تحمي المجتمع من مختلف أشكال العنف الناتج عن تلك الحروب؟**

1-الشفاعة لدى سلاطين بني مرين

كثيرة هي الاعتداءات التي صدرت من طرف بني مرين وأدت إلى سقوط تلمسان وبعض مدن المغرب الأوسط فتضررت ساكنتها؛ وهو ما استلزم تدخل بعض الشخصيات التي كانت لها حظوة لدى المجتمع، ومن هؤلاء أولاد الإمام أبي زيد عبد الرحمن (ت741هـ/1340م)[3] وأبي موسى عيسى

---

[1]- ابن صعد، روضة النسرين، ص189.

[2]- ابن صعد، النجم الثاقب، ص70. روضة النسرين، ص 154-155.

[3]- يختلف الونشريسي في سنة وفاته حيث يذكر أنه توفي سنة 743هـ/1342م. انظر الونشريسي: وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011، ص36.

(ت749هـ/1348م)[1] الذين حظيا بمكانة هامة لدى السلطانين أبي حمو موسى الأول ومن بعده ابنه أبو تاشفين[2]؛ فبالإضافة إلى أدوارهم العلمية البارزة في التدريس والفُتيا كان لهم دور إيجابي كذلك أثناء سقوط تلمسان في يد أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1336م[3]، حينما سعيًا إليه يشرحان أوضاع سكان تلمسان وما نالهم من الخوف والكرب متوسلين منه الرحمة والرأفة بهم[4]، وقد نقل لنا ابن مرزوق الحديث الذي دار بين السلطان وأولاد الإمام حيث قالا له: "العفو يا سلطان كفاك الله شرّ الانتقام" فقال لهما: "قد عفوت لله وعاملت وجه الله" فقالا له: "إذا هو أعلم بما في يقينك"[5]، ويُفهم من خلال هذا الحديث أنّ السلطان أبا الحسن قبل شفاعتهما اعتقادا في أهل العلم.

ومن القرائن أيضا موقف الشاعر ابن خميس التلمساني (ت708هـ/1308م) بعد مغادرته لمدينة تلمسان أثناء الحصار متوجها إلى الأندلس، ومن هناك خاطب المرينيين بقصيدة شعرية[6] يأمرهم بالكف عن الحصار وإذاية المحصورين بها قال فيها[7]:

كفاكم بها سجنا طويلا وإن يكن *** هلاك لكم فيها فهي لكـــم فخُّ

فكم فئة منّـــــا ظفرتم بنيلهـــا *** بأبشارها من حُجن أظفاركم برخ[8]

كأنّكم من خلفهـــا وأمامهـــا *** أسود غياضٍ وهي ما بينكـم أرخُ[9]

لكن الملاحظ أنّ مواقف العلماء لم تكن كلها إيجابية وإنما هناك بعض المواقف السلبية التي صدرت من بعض الفقهاء التلمسانيين في بعض الفترات المتأزمة؛ مثل فترة الحصار الطويل التي استدعت بعض التدخلات كما ذكرت آنفا؛ إذ فيهم من لم يحاول أن يتوسط ويرفع تلك الشدة والمعاناة على أهل

1- كذلك الأمر بالنسبة لأبي موسى يذكر الونشريسي أنه توفي سنة 750هـ/1349م. المصدر نفسه، ص44.

2- المقري، نفح الطيب، 215/5.

3- ابن خلدون، العبر، 305/7. الناصري، الاستقصا، 125/3.

4- ابن خلدون، المصدر السابق، 305/7-306. المقري، المصدر السابق، 215/5. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص126. الناصري، المصدر السابق، 126/3.

5- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص209.

[6]- قصيدة خائية مطولة تحتوي على واحدا وثمانين (81) بيتا شعريا....غرض القصيدة. وله ديوان شعري سمي"المنتخب النفيس في شعر ابن خميس". المقري، المصدر السابق، 372/5.

[7]- المقري، المصدر نفسه، 372/5. القصيدة من البحر الوافر

[8]- البرخ قطع اللحم، وشبه أظافرهم بالسيوف. المصدر نفسه، 372/3.

[9]- الفتي من البقر. المصدر نفسه، 372/3.

تلمسان وهو ما قام به الفقيه أبو الحسن بن يخلف التنسي[1] الذي حظي بمكانة مهمة عند السلطان المريني أبي يعقوب الذي "بالغ في برّه واحتفائه"[2]، كما كان يجالسه ويشاركه في الخاص من أمره[3] وقد عاش في بلاطه إلى أن توفي قُبيل انتهاء الحصار سنة 706هـ/1306م[4]؛ لكن على الرغم من تلك المكانة التي نالها إلاّ أنه لم يتشفع لهم عنده بيد أنه لو حاول لربما استطاع أن يُفرّج عنهم؛ على عكس ما قام به الهزميري رغم أنه مغربي مقارنة بأبي الحسن التنسي التلمساني المنشأ.

2-الشفاعة لدى سلاطين بني حفص

كانت بداية القرن التاسع الهجري 15م مرحلة نهاية الخطر المريني الذي كان يهدد المغرب الأوسط من الغرب، لكن سرعان ما تجدد الخطر الحفصي من الشرق وهذه المرة من طرف السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز الذي استطاع أن يبسط سيطرته على تلمسان سنة 827هـ/1423م، وأمام هذا الوضع جاء تدخل الأولياء للتخفيف من حدة الصراع بين هذه الأطراف وامتصاص شحنة الغضب وإطفاء نار الفتنة بينهم[5].

إذيُستفاد من إحدى كرامات الشيخ الولي الصالح الحسن أبركان (ت857هـ/1453م) أنّه بعدما تيقن سكان تلمسان من الهلاك جراء الحصار الذي ضُرب على تلمسان والذي تبعته القذائف النارية[6] من طرف الجيش الحفصي سنة 827هـ/1423م[7]؛ ولم يبق لهم سوى اللجوء إلى علمائهم وشيوخهم يستنجدون بهم فخرج الشيخ عبد الرحمن السنوسي والشيخ ابن عبد العزيز رفقة بعض الأطفال إلى الشيخ الحسن أبركان يتوسلونه بالخروج إلى السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1393-

---

[1]- هو أخو أبي إسحاق التنسي. يقول فيه يحي بن خلدون أنه "من كبار العلماء العاملين، معظّم عند الملوك والعامّة ذو ورع شديد" سافر مع أخيه أبي إسحاق التنسي إلى مصر وهناك أخذ كثيرا عن الشيخ أبي الفتح، والتقى فيها مع العبدري وحجا معا ثم رجع مع أخيه إلى تلمسان؛ ولم تحدد المصادر التي ترجمت له تاريخ وفاته لكن رُجح ما بين 700هـ/1300م أو 706هـ/1306م. انظر ابن خلدون، بغية الرواد، 151/1. العبدري، رحلة العبدري، ص53.

[2]-ابن خلدون، بغية الرواد، 151/1.

[3]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص294-295.

[4]- حاجيات: "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، ص140.

[5]- بن داود، أسر العلماء بتلمسان ومساهمتها في حضارة بني زيان، ص321.

[6]- ابن مريم، البستان، ص178.

[7]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص125.

1433م) للشفاعة وطلب العفو منه والكف عن إذاية الناس؛ لكن الشيخ رفض ذلك[1] وهو الذي قيل فيه أنّه "لا يخاف في الله لومة لائم"[2]؛ وهذا ما يدفعنا حول **التساؤل على هذا الرفض وما مبرره؟** وهو الذي عُرف بقبوله من العامة والخاصة فقد قال فيه الإمام السنوسي بأنه كان "رحيما شفيقا بالمؤمنين يفرح لفرحهم ويتأسف على ما يسوؤهم"[3]؛ وبعد الإلحاح عليه قال: "لا أخرج إليه والله سبحانه يحكم بيننا وبينه"[4].

وقد تبين مما قدمته من قرائن تباينا في نتائج تلك السعايات والوساطات التي تدخلت فيها هذه الشخصيات فمنهم من نجح في إعادة التوازن السياسي والاجتماعي ودرء الخطر الخارجي ودفع المكاره على المجتمع الزياني وحمايته فقاموا بما عجزت عنه السلطة؛ وهو ما يبين أنّ هذه الشخصيات تتميز بالحنكة السياسية والقدرة على الإقناع، ومنهم من أخفق في مسعاه مما يدل على حدة الصراع بين الأطراف المتحاربة.

[1]- ابن مريم، المصدر السابق، ص178-179.

[2]- أبو عبد الله محمد، بن عمر الملالي التلمساني: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تحقيق: علال بوربيق، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2011، ص66.

[3]- التنبكتي، الديباج المذهب، ص152.

[4]- المصدر نفسه، ص79-80.

المبحث الثالث:سلوكات المجتمع في المجال الاقتصادي

لقد دفع الجوع أهالي المغرب الأوسط إلى انتهاج سلوكيات عديدة من أجل تجاوز أزمة الجوع خاصة وأنّ هذه الأزمات تكررت مرارا نتيجة الحروب والحصُر التي شهدها العهد الزياني زمن الدراسة. **إذن فيما تجلت هذه السلوكيات؟**

أولا: تخزين المؤونة تحسبا لظروف الحرب والحصار

كان للمجاعة العظمى التي ضربت تلمسان وبعض المدن والأقاليم التابعة لها وقع كبير على نفوس الأفراد؛ فمن بقي منهم لم يستطع التخلص من شبحها إذ بقيت آثارها راسخة في الذاكرة الجماعية لمدة طويلة من الزمن.

وانطلاقا من هذه الظروف العصيبة فقد تولد لدى المجتمع الزياني حكامًا ورعية بعض السلوكات والإجراءات والمتمثلة في نظام الادخار تحسبا لأوقات المجاعة الناتجة عن الحروب والحصار لأنّ "الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظُمَ توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع"[1]. وجرت العادة لدى سكان مدن وبوادي المغرب الأوسط تخزين كميات كبيرة من الحبوب كالقمح والشعير ومختلف المواد الغذائية القابلة للتخزين كالزيت والسمن والعسل والشحم والقديد الذي يعرف عند التلمسانيين بالمسيلي[2]، وكانت هذه التصرفات من أجل كبح جماح المجاعات المتوقعة في المستقبل خاصة وأنّ تلمسان مهددة باستمرار لغارات خارجية من طرف جيرانها من الشرق والغرب.

1- الأهراء والمطامير

نشير بالذكر إلى أنّ هذه المواد الغذائية يتم تخزينها في أهراء[3] ومطامير[4] أُعدت خصيصا لذلك، ونسبة إلى ذلك عُرف أحد أحياء تلمسان بحي المطمر[5]. وتعمل هذه المطامير على الحفاظ على طراوة الطعام المخزن بها[6] ومن القرائن ما أشار إليه الحميري حول خصوصية المطامير المتواجدة بقسنطينة قائلا: "

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ص302.

[2]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص190. فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 254/1. والمسيلي هو اللحم المصبر أو المقدد.

[3]- مفرده "هُري" وهو بيت كبير ضخم يُجمع فيه طعام السلطان. المعجم الوسيط، ص983.

[4]- ذكرت في المعجم الوسيط بأنّ المطمورة مكان تحت الأرض قد هُيئ ليُطمر فيه البرُّ والفول ونحوه. انظر ص565.

[5]-ابن خلدون، بغية الرواد، 25/1. ابن مريم، البستان، ص200.

[6]- الوزان، وصف إفريقيا، 153/1-248.

والحنطة تقيم في مطاميرها مائة سنة لا تفسد، والعسل بها والسمن بها كثير، ويتجهز بها إلى سائر البلاد"[1]، ونضيف شهادة العمري (ت749هـ/1348م) كذلك على خصوصية المنطقة وصلاحيتها للتخزين وفي ذلك يقول: "لأنّ الغرب مخصوصة بطول مكث المخزونات بها فإنه ربما بقي القمح والشعير في بعض أماكنها ستين سنة لا يتغير ولا يسوس، ثم يخرج بعد خزن هذه المدّة الطويلة فيزرع وينبت وخصوصاً تلمسان في برّ العدوة وطليطلة في الأندلس"[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحروب المتعاقبة على الدولة الزيانية والحصارات التي كانت تُضرب لمدد طويلة حول العاصمة تلمسان والمدن التي يضمها المغرب الأوسط كانت من بين الأسباب الرئيسية التي دفعت بالفرد الزياني إلى ابتداع هذا النوع من العمران، وتنهض نوازل المعيار[3] شاهدا على ذلك فقد وردت العديد من النوازل الفقهية التي جاءت على ذكر المطامير والأهراء التي تضمها الدور والقصور والتي استخدمها إنسان المغرب الأوسط في تخزين الطعام.

ومن الإشارات الواردة في المصادر والتي توحي إلى أنّ سلاطين بني زيان اعتنوا كثيرا بسياسة تخزين الحبوب وسائر الأقوات[4] ما قاله ابن خلدون رواية على لسان شيخه الآبلي قائلا: "جلس السلطان أبو زيّان صبيحة يوم ذلك الفرج، وهو يوم الأربعاء في خلوة من زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنّما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها"[5]. وهو ما عرف كذلك عن السلطان أبي حمو الأول (707-718هـ/1307-1318م) فقد كان أول ما بدأ به بعد فك الحصار وتوليه الحكم هو "هدم مدينة يوسف بن يعقوب وإصلاح ما تلثم من تلمسان... وأمر بحفر الخنادق[6] وخزن فيها من الطعام والآدم والملح والفحم والحطب ما لا حد له ولا حصر"[7]، كما أشادت كذلك كتب الجغرافيا بشروعه في التخزين و"شرع حينئذ أبو حمو بعد إتمام سنة الفرج من رحيل بني

---

[1]- الحميري، الروض المعطار، ص480.

[2]- العمري، مسالك الأبصار، 104/4.

[3]- انظر على سبيل المثال: الونشريسي، المعيار المعرب، 268/8. 378/8. 108/9. 413/10.

[4]- مارمول، المصدر السابق، 349/2.

[5]- ابن خلدون، العبر، 114/7.

[6]- الكاتب يقصد بحفر الخنادق "المطامير" لأنها تحفر في الأرض وتستخدم لخزن الحبوب كالقمح والشعير كما ذكرت سابقا.

[7]- ابن خلدون، بغية الرواد، 235/1. التنسي، نظم الدر، ص135.

مرين...تحصيل قوتها...حتى سليت الشحوم، وملئت بها الصهاريج، وملئت أبراج المدينة بالملح والفحم والحطب واختزل أرض داخل المدينة كلها زرع"[1]، ومما ينهض دليلا على ذلك أنه عندما اختط مدينة البطحاء أمر العمال أن ينقلوا أعشار الحبوب إليها وسائر الأقوات[2] وتخزينها تحسبا لأوقات الحرب أو السلم، وعلى نهجه سار ابنه أبو تاشفين (718-737هـ/1318-1336م) الذي زادها تحصيلا من الأقوات[3]، ويتضح ذلك حينما أمر بحمل الزرع من مناطق مملكته الشرقية فشحنت مخازنها أقواتا نامية من القمح والشعير والسمن[4].

وممن كانت أيضا له عناية بالتخزين السلطان أبو حمو موسى الثاني كما كان يحث الرعية على الاقتصاد وتخزين المؤن كل سنة وجعلها إحدى الوصايا لولده وذلك في قوله: "واعلم يا بني أنّ الطعام قوام عالم الإنسان فلا تفرط في اختزانه في كل أوان واعتبر ذلك بحال نبي الله يوسف الصديق على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فإنه اختزن الطعام في زمن الرخاء وأمر الناس بذلك فوجدوا ذلك في زمن الشدة..."[5].

وتجدر الإشارة إلى أنّ مثل هذه السلوكات المنتهجة قد عادت بالفائدة على المجتمع والدليل أنهم لم يشتكوا الجوع في الحصارات التي أعقبت الحصار الطويل، وخير دليل ما قاله العمري في كتابه عن حالة الناس أثناء حصار أبي الحسن المريني لتلمسان إذ "لم يظهر منهم وهن ولا خور لانقطاع الميرة لما كان عندهم من المخزون حتى قدايد اللحوم، ومسليات الشحوم، ولم يتغير طعمها، لأنّ بلاد الغرب مخصوصة بطول مكث المخزونات بها"[6].

أما عن هذه الاحتياطات الغذائية فإنها متأتية من مصادر عديدة؛ منها الجبايات والمحاصيل الزراعية والخراج وأحيانا من المصادرات التي تستحوذ عليها بعد إخضاعها لبعض القبائل[7].

---

[1]- العمري، المصدر السابق، 103/4.

[2]- التنسي، المصدر السابق، 300/7.

[3]- العمري، المصدر السابق، 103/4.

[4]- ابن خلدون، بغية الرواد، 241/1. العلاقات السياسية والاقتصادية مع جنوب أوربا، ص79.

[5]- أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص153.

[6]- مسالك الأبصار، 104/4.

[7]- حول هذه النقطة راجع العنصر الخاص بموارد المادية للدولة المبحث الأول ضمن الفصل الأول.

ونلاحظ أنّ تجربة السلطان أبي حمو في هذه المجاعة سنجد لها صدى في كتابه واسطة السلوك من خلال كيفية جمع المال وتدبر كيفية إنفاقه باعتباره قوة اقتصادية فعّالة تؤثر على سلامة الملك وحفظ الدولة[1].

في الأخير يمكن القول أنّ الظروف الأمنية المتردية في مغرب العصر الزياني أدت إلى انتهاجه لأسلوب جديد في البناء تمثل في المطامير والأهراء التي يتم فيها تخزين مختلف المواد الغذائية، مما شجع الأفراد على الإقبال المكثف لتخزين كل ما يمكن تخزينه وإخراجه في وقت الشدة والحاجة.

ثانيا: أغذية تعويضية زمن الحصار الطويل

كثيرا ما أدت ظروف المجاعة بالناس إلى انتهاج سلوكيات غذائية لم تكن مألوفة لديه في زمن الرخاء؛ لكن الجوع أدى به إلى البحث عن وصفات وأغذية تعويضية ليقي نفسه من خطر الموت، وما حدث في زمن المسغبة الكبرى مع أهالي تلمسان أكبر دليل على ذلك؛ فقد دفع بهم الجوع إلى القيام ببعض السلوكات يمكن وصفها بالفضاعة وغير العقلانية.

نظرا لاشتداد هذه المسغبة فقد لجأ أهل تلمسان خاصة الفئات الدنيا إلى أكل الحيوانات الأليفة المكروهة استهلاكها كالكلاب والقطط والحمير والبغال[2] لكن في زمن المجاعة أصبح الأمر عاديا بل صارت هذه الحيوانات النجسة مندثرة نظرا لكثرة استهلاكها، ومما يوحي ذلك هو غلاء أسعارها في السوق حتى وإن كانت جيفا[3]، فقد أقبل الناس بدافع الجوع على أكل لحوم الجيف وإن كانت محرمة؛[4] وقد لا نجانب الصواب إن قلنا أنّ الواقع تحكم في تطبيق الشريعة الإسلامية وطوّعها وهذا الأمر لا يتنافى البتة مع مرونة النص الديني ومواكبته لعصره وإقراره مبدأ الضرورة[5]، ومن ثم أجاز للمضطر أكل الميتة[6] وذلك في قوله

---

[1]- أبو حمو موسى الزياني، المصدر السابق، ص62 وما بعدها

[2]- ابن خلدون، المصدر السابق، 113/7. الناصري، المصدر السابق، 85/3. ابن صعد، المصدر السابق، ص61.

[3]- جاء في كتاب ايضاح المسالك جواز بيع النّجاسات في أوقات المسغبة والمجاعات ضمن قاعدة الضرورات تبيح المحضورات. الونشريسي، ايضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، ط1، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص155.

[4]- حُرِّمَت الميتة في آيات منها قوله تعالى "**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**" البقرة آية 173. والمقصود بها ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير قتل بذكاة أو ما كان مقتولا بغير ذكاة. المقري، الكليات الفقهية، ص116. الهامش

[5]- ظافر، بلطي:"النجاسة والطهارة من خلال المعيار المعرب للونشريسي"، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، تونس (منوبة)، 2010-2011، ص79.

[6]- الونشريسي، إيضاح المسالك، ص155.

تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[1]، وكذلك في قوله: "قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[2].

وعلى الرغم أنني لم أعثر على فتاوى فقهيه خاصة بالعهد الزياني تم استصدارها من طرف الفقهاء لتشريع أكل اللحوم المحرمة مثل لحوم الجيف في أوقات العسرة كأوقات المجاعة الناتجة عن الحروب، لكن فقهاء المسلمين أجازوا ذلك خاصة وأنّ تاريخ المسلمين حافل بعديد المجاعات وإن اختلفت أسبابها، ونظرا للضرر الذي يلحق بالأفراد فقد أجاز بعض الفقهاء لهم أكل الميتة وحتى الخنزير "ويحل للمضطر الميتة والخنزير حيه وميته..."[3].

كما أقبل الناس أيضا على أكل الحشرات والفئران والعقارب والحيات والضفادع وغيرها[4]؛ وعلى الرغم من نجاسة هذه الحيوانات لكن أمام خطر الموت جوعا لا يضحى للنجاسة معنى بل أصبحت هذه الحيوانات مصدرا للحياة والمحافظة على الجنس البشري من الهلاك[5]، ولم يقف الحد عند هذا بل أقبل الناس كذلك على الإقتيات بجذور الأشجار وأوراقها[6] غير آبهين بنجاستها كذلك.

وبعد مدة من الزمن نظرا لطول مدة الحصار تدخل المجاعة أطوارا جديدة من الفضاعة والقسوة إذ لجأ الناس بعد استنفاذ كل ما أمكن أكله من حيوان أو نبات إلى تناول شيء يحمل كل معاني النجاسة

---

[1] – سورة المائدة –3–

[2] – سورة الأنعام –145–

[3]– انظر محمد عبد الله، بن عبد الرحمن بن أبي زيد القيرواني: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، ط1، تحقيق: محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999، 381/4.

[4]– ابن خلدون، العبر، 113/7. الناصري، الاستقصا، 85/3. ابن صعد، روضة النسرين، ص61.

[5]– ظافر بلطي، النجاسة والطهارة من خلال المعيار المعرب للونشريسي"، ص79.

[6]– مارمول، إفريقيا، 302/2.

والتقزز وهو "غائطهم" بعد أن جعلوه في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه[1]. وربما ذهب البعض إلى القول بأنّ هذا الفعل هو ضرب من الجنون والخيال إذ لا يستطيع بنو آدم الإقدام على فعله لكن حسبما ذكره أحد المؤرخين فإنّ الجوع يذهب العقل. فيصبح هذا الأخير في نظرهم مصدرا للحياة والعيش أمام الموت المحقق الذي كان ينتظرهم.

وبلغت الأوضاع في هذه المجاعة ذروة الفضاعة والمأساوية بدخولها مرحلة تضع إنسانية الإنسان في الميزان ويمحو من خلالها أي فاصل بين الحيواني والإنساني وهي الانتروبوفاجيا ومن مظاهرها أكل لحوم الأحياء من الآدميين وأكل الجيف البشرية[2]. وقد حدثت مثل هذه الظواهر في تلمسان في فترة محل الدراسة أولها ما حدث أثناء فترة الحصار الطويل إذ بسبب الجوع تجرد الإنسان من إنسانيته فأقبل على أكل أشلاء الموتى من الأناسي[3]. أما الثانية في المجاعة التي حدثت سنة 776هـ/1374م "حيث أكل الناس بعضهم بعضا"[4].

خلاصة القول إنّ سياسة التخزين التي انتهجها أفراد المجتمع الزياني قد عادت بالفائدة عليه والدليل أنهم لم يشتكوا الجوع في الحصارات التي أعقبت الحصار الطويل لأنهم تعلموا من تلك الظروف واكتسبوا ذهنية تخزين وادّخار المواد الغذائية المختلفة في الأهراء والمطامير تحسبا لأوقات المجاعة التي تأتي نتيجة الحرب أو الحصار.

[1]- ابن صعد، المصدر السابق، ص61.

[2]- الطبابي، الموت في مصر والشام، 150/1.

[3]- ابن خلدون، العبر، 113/7. الناصري، المصدر السابق، 85/3.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، 11/2.

المبحث الرابع: سلوكات المجتمع في الحياة الدينية

أجمع ثلة من الباحثين في العصور القروسطية على أنّ الاضطرابات السياسية والأمنية التي شهدها المغرب الأوسط خلال العهد الزياني كانت إحدى العوامل التي أدت إلى بروز الحركة الصوفية[1] وانتشارها[2]، إلى جانب العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية؛ واعتبروا حياة الزهد والتصوف هي المخرج الوحيد للمجتمع من أجل الهروب من هذه الأزمة.

أولا: الولاية والسلطة في العهد الزياني

لا جدال أنّ ظاهرة التبرك بالصلحاء والأولياء والتماس الدعاء منهم وكذا الحرص على زيارة قبورهم بغرض الحصول على نصيب من البركة؛ كانت السمة البارزة التي طغت على ذهنية المجتمع في العصر الوسيط عامة والزياني على وجه الخصوص، كما أنّ هذه الظاهرة لم تكن سائدة في الظروف العادية فحسب وإنما كانت الحروب المستشرية وما أفرزته من مشاكل اجتماعية واقتصادية ونفسية أسهمت من جانبها حسبما يشير أحد الباحثين[3] إلى رسم معالم الشروط التاريخية لتعاظم مكانة الولي واتساع قاعدة اللاجئين إليه. وهو ما سأحاول الوقوف عليه من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: **ما مدى نجاح الدور الذي قام به الولي في أوقات الحروب؟**

عُرف عن سلاطين بني عبد الواد حبهم للصلحاء وتقديسهم لهم والسعي في خدمتهم وكسب رضاهم بشتى الوسائل وذلك من أجل كسب مزيد من المشروعية من خلال استقطابهم لهؤلاء، فكانوا يتبركون بهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم، فقد كان السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)

---

[1]- اعتبر ابن خلدون التصوف بأنه علم من علوم الشريعة، وأصله مستمد من السلف وممن سبقهم من الصحابة والتابعين ويتلخص في العكوف على العبادة والانقطاع عن زخرف الدنيا. المقدمة، ص514.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/39-40. عبيد بوداود، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/ 13 و 15 الميلاديين، ص179-187. نقلا عن بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14 -15 الميلاديين، ص207. خالد بلعربي، "حركة التصوف بتلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)"، ضمن كتاب -ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني، الجزائر: دار هومة، 2014، ص123.

[3]- حميد تيتاو، المرجع السابق، ص467.

"يؤثر الصالحين والعلماء، ويجالسهم كثيرا"[1]، وكان المولى أبو يعقوب (ت763هـ/1362م) متبركا بالصالحين[2]، كما كان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) جميل الاعتقاد ببيت المرازقة وسماه "بيت البركة"[3]، وكان ابنه أبوتاشفين (718-737هـ/1318-1337م) يتبرك بهم أيضا وبضريح أبي مدين شعيب بالعباد ويزوره باستمرار[4]، وكذلك السلطان أبو العباس أحمد العاقل الذي كانت له عناية عظيمة بالولي الزاهد أبي الحسن بن مخلوف[5].

ومن القرائن أيضا التي تثبت تعلقهم بالأولياء هي وصية السلطان أبي حمو موسى الثاني[6] لابنه "يا بني عليك بالجود والإيثار لعباد الله الأخيار، وإكرام العلماء والصالحين".

ويتضح ذلك أيضا من خلال تلك الوصايا التي يطلبون فيها الدفن إلى جوار الأولياء الصالحين والمتصوفين وكبار الفقهاء المعروفين بالورع والصلاح والبر[7]، فقد ذكر ابن مرزوق (ت781هـ/1379م) بأنّ السلطان يغمراسن أوصى أولاده قائلا: "ليس لي إليكم حاجة، إلا أنّ سيدي أبا عبد الله بن مرزوق، إذا مات تدفنوه إلى جانبي، لعلّ الله أن يرحمني بجواره"[8]، كما أوصى بأن يُدفن بجواره من جهة أخرى أوّل صالح يموت بعده لكي تكتنفه الرحمة[9] فكان الولي الصالح أبو الحسن علي بن النجارية[10]، كما دُفن السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل بإزاء ضريح الولي أبي مدين (ت549هـ/1197م) بالعباد[11].

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 225/1.

[2]- هو والد السلطان أبي حمو موسى الثاني. مجهول، زهر البستان، 64/2.

[3]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 393/2.

[4]- المرجع نفسه، 390/2.

[5]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص248-249.

[6]- أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك، ص255.

[7]- فيلالي، المرجع السابق، 298/1.

[8]- المناقب المرزوقية، ص167. في حين يذكر ابن خلدون أنّ الولي أبا عبد الله بن مرزوق توفي قبل السلطان يغمراسن وأمر بدفنه في القصر القديم ليجاوره بجده تبركا به. انظر العبر، 370/7.

[9]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص170.

[10]- كان من الأولياء الصالحين ذوي الزهادة في الدنيا والإقبال على الآخرة. قبره إزاء قبر السلطان يغمراسن بن زيان قصد التبرك بجواره. ابن خلدون، بغية الرواد، 160/1.

[11]- المناقب المرزوقية، ص257.

ثانيا: ذهنية تقديس الأولياء في ظروف الفتن والحروب

الواقع أنّ الحرب أسهمت بدور رئيس في ترسيخ مكانة الولي وحظوته في نفوس سلاطين بني زيان حتى صاروا يصطحبونهم في حروبهم، ومن القرائن على ذلك ما ذكره صاحب زهر البستان عن أبي حمو الذي كان حريصا على ذلك[1].

وبالموازاة مع اصطحاب الأولياء في الحروب كان سلاطين بني زيان يحرصون كذلك على أن يأخذوا "المصحف العثماني"[2] معهم في حركاتهم تبركا به[3] اقتداء بما كان يفعله أمراء الدولة الموحدية[4].

ولم يتوقف الأمر عند التبرك بالأولياء وأضرحتهم فحسب بل كانوا يتبركون بكل ما يتعلق بالولي الصالح كداره وأغراضه، فقد كانت عتبة دار الولي الكبير القدر أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن مرزوق (ت681هـ/1282م) معروفة البركة، وكذلك بئره لأنّ الأولياء كانوا يفطرون على مائه[5]، ما جعل سلاطين بني عبد الواد يعتقدون في بركته؛ ففي الحصار الطويل الذي أُحكم على المدينة كان "سلطان تلمسان وإخوته لا يخرجون حتى يفطرون على مائه، ويزعمون أنهم يوم يفوتهم الفطر عليه، يجدون أثر ذلك"[6].

ويحسن الذكر أنّ مثل هذه السلوكات التي تظهر مدى تعلق السلاطين بالأولياء والتبرك بهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم لم تكن في هذه الفترة مقتصرة على ملوك بني زيان فحسب، فهناك من السلوكات ما يوضح أنها صدرت كذلك من طرف ملوك الدول الغازية للمغرب الأوسط حينما تمكنوا من الاستيلاء على بعض مدنه، ومن القرائن نذكر السلطان أبا الحسن المريني الذي كان يختص يوم الأربعاء لزيارة ضريح سيدي أبي مدين شعيب (ت549هـ/1154م) ومن دُفن معه من الصلحاء كالداودي وابن غزلون طوال

---

[1]- مجهول، زهر البستان، ص53.

[2]- كان المصحف العثماني ضمن الذخائر التي تحصل عليها بنو عبد الواد في حربهم ضدّ السعيد الموحدي بعد مقتله سنة 646هـ/1248م؛ وقد ذكر لنا التنسي ذلك في قوله:" وكان من جملة الذخائر التي ظفر بها هنالك العقد اليتيم وغدار زمرد، و"مصحف عثمان بن عفان" رضي الله عنه خطّه بيمينه وكان بين يديه حين استشهد...". التنسي، نظم الدر والعقيان، ص123. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص31.

[3]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 270/1.

[4]- التنسي، المصدر السابق، ص124.

[5]- التنسي، المصدر السابق، ص188.

[6]- التنسي، المصدر السابق، ص188.

مدة إقامته بتلمسان[1] اعتقادا فيهم، وكذلك السلطان أبا سالم المريني بعدما تمكن من غزو تلمسان زار خلال تلك المدة هذا الضريح و"عاهد الله هناك أن لا يكافئ من فعل سيئة إلاّ بخير"[2].

أما السلطان أبي زكرياء الحفصي (625-647هـ/1227-1249م) فلما استولى على تلمسان سنة 640هـ/1242م لم يجرؤ على مداهمة دار أبي عبد الله محمد بن مرزوق (ت681هـ/1282م)[3]، في حين عُرف عن السلطان يعقوب المريني حبه لبيت المرازقة والسعي لخدمتهم التماسا لبركتهم[4].

إنّ هذه السلوكات الصادرة من ملوك دول المغرب الإسلامي تفسر لنا تفشي ظاهرة تقديس رجال الصوفية من طرفهم كسياسية لكسب مزيد من المشروعية لحكمهم ولتبرير حروبهم.

ثالثا: حضور الولي إلى جانب المستضعفين في الحرب

يشير الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى حالة الفوضى واللاأمن التي شهدتها مرحلة ما بعد الموحدين بأنها هي التي جعلت العامة تقبل إقبالا لم تعرفه من قبل على أمور المجاهدات والكشف والإنخراط في الزوايا والربط وترسخ لديه الإيمان بالأولياء وكراماتهم[5]، وقد كشفت لنا نصوص المرحلة عن إقبال الناس على الأولياء يلتمسون الحماية منهم ومن الأماكن المقدسة كالمساجد والزوايا والرباطات والمصريات وبيوت الأولياء والصلحاء[6].

والحقيقة فإنّ الولي لم يكن بعيدا عن المستضعفين والمتضررين في فترات الحروب التي استشرت في المغرب الأوسط مرحلة البحث، بل كان موقفهم في الغالب إيجابيا تمثل في التخفيف من وطأة الحروب عليهم حينما توجهوا إلى الأمراء والسلاطين لنهيهم عن استعمال العنف والقتل ضدّ هؤلاء الأبرياء أثناء اقتحام المدن؛ وهنا اكتسى دورهم صفة الفعل، فبرز الولي كشفيع للناس لدى السلطة السياسية وكوسيط بينهم وبينها[7]، ونتبين هذا الدور من خلال ما قام به الولي الشهير أبو زيد عبد الرحمن الهزميري

---

[1]- ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص164.

[2]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص100.

[3]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص173. فيلالي، المرجع السابق، 390/2.

[4]- ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص294.

[5]- تاريخ الجزائر الثقافي، 39/1-40. نقلا عن بونابي، ص207.

[6]- ابن مرزوق، المصدرالسابق، 172.

[7]- نيللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، ص272.

(ت706هـ/1306م)[1] من كبار أولياء الله عز وجل عُرف عنه استجابته لمطالب الناس وكشفه عن حاجاتهم قبل السؤال[2]، ولذلك تدخل لدى السلطان المريني أبي يعقوب يوسف من أجل رفع الحصار على أهالي تلمسان بعد سبع سنوات من المعاناة ويكفه عما انتهى إليه المحصورون من الشدة[3]، ورغبه فيه غاية الترغيب[4]؛ لكن طلب الولي قوبل بالرفض من طرف سلطان بني مرين وأبى إلاّ التصميم على ما هو عليه[5] وهو ما يبيّن شدّة حقده على بني زيان.

كما أطلعتنا بعض النصوص على قلتها على أدوار أخرى قام بها المتصوفة تمثلت في المشاركة في مضمار الحرب والقتال، ومن هؤلاء الشيخ الحسن أبركان (ت857هـ/1453م)الذي قاتل إلى جانب أهالي تلمسان ضدّ السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي حينما هَجَمَ على تلمسان سنة 728هـ/1423م[6]، كما كان الناس أيضا يصطحبون الأولياء معهم حينما تكون الطرق غير آمنة اعتقادًا في قدرتهم على رد الخطر مهما كان نوعه[7]، ونضيف إلى ما سبق دور المتصوفة في افتداء الأسرى فقد كانت للشيخ أحمد الغماري جهود في "فك الأسارى، وعتق الرقاب"[8].

من جهة أخرى كان للأولياء والمتصوفة دور آخر حينما لجأت إليهم العامة المستضعفة وتجسد هذا الدور في الكرامة الصوفية[9] التي اكتست صفة السلطة القادرة على حمايتهم، ويشير أحد الباحثين[1]، إلى أنّ

---

[1] – يصفه التنبكتي بأنه الولي الشهير العالم ذو المناقب والكرامات وكانت له أحوال عجيبة وهو من أغماتْ إحدى مدن المغرب الأقصى ومات بفاس ودفن بها، أسس الزاوية الهزميرية مع أخيه أبي عبد الله محمد، ألف ابن تيجلات كتاب "إثمد العينين" في كراماتيهما. لكن اختلف في ذكر سنة وفاته حيث يذكر أنه توفي سنة 706هـ/1306مأو 707هـ/1307م.
انظر التنبكتي، المصدر السابق،ص 221-222-223. ابن قنفذ القسنطيني، وفيات ابن قنفذ القسنطيني، ص80.

[2] – ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص209.

[3] – ابن قنفذ، أنس الفقير، ص91.التنسي، نظم الدر والعقيان، ص133. التنبكتي، المصدر السابق، ص222.

[4] – التنسي، المصدر السابق، ص133.

[5] – التنسي، المصدر السابق، ص133.

[6] – ابن مريم، البستان، ص79.

[7] – الوزان، المصدر السابق، 46/2.

[8] – ابن صعد، روضة النسرين، ص189.

[9] – الكرامة هي ما وقع للأولياء من المتصوّفة من تصرّفات أو حوادث فعلية خارقة للعادة. وفي إثباتها قال الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني "أما كرامات الأولياء فجائزة عقلا وواردة سمعا ومن أعظم كرامات الله تيسير أسباب الخير وإجراؤه على أيديهم وتعسير أسباب الشر عليهم، وحيثما كان التيسير أكثر كانت الكرامات أوفر". انظر التشوف =إلى رجال التصوف، ص56-57. فائزة زيتوني: "نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مريم الشريف مقاربة

أنّ الكرامة تأخذ بأسلوبي الترغيب والترهيب، إذ يتمثل الترغيب في الحظ على القيم النبيلة بما فيها السلم والعافية، وفي إجابة دعوة الولي وقضاء حاجته. أما الترهيب فيحضر لزجر المخالفين لتلك القيم، ومنهم مثيرو الحروب والفتن.

تمكن الوقوف على العديد من النماذج في كتب التراجم والمناقب عن أدوار أولياء ومتصوفة تلمسان الذين عُرفوا ببركتهم وكثرة كراماتهم وخوارقهم؛ مما يؤكد أنّ الولي في هذه الأوقات -أوقات الحروب- أصبح هو المرجع والملاذ والملجأ[2] للعامة والمستضعفين. فعلى سبيل المثال كان الشيخ سيدي واضح (توفي بعد 681هـ/1282م) معروفا "بأنواع المكاشفات، وحماية الله لمن استغاث به واستجاره في أماكن الخوف ومواطن النهب والأزمات"[3]، ففي إحدى الروايات التي نقلها أبو عمران المازوني كشفت بأنّ الناس هربوا بخيامهم ومواشيهم إلى زاويته مستجيرين به من هجوم محمد بن عبد القوي وهم في حالة من الهلع، واستطاع الشيخ سيدي واضح أن يدرأ خطره بالدعاء عليه، حيث أصاب محمد بن عبد القوي وجع شديد وانتفخ بطنه حتى كان يصبُّ من فمه ودُبُرِه؛ فحضّه بعضُ خاصته أن يصرف عن نفسه ذلك الخاطر السيء وقال له: لعلّ هذا الذي أُصِبْتَ به من تغيير قلب هذا الصّالح عليك غيرة منه على جيرانه، وبكاء الصغار والكبار حوله، ولم يُشف من ذلك حتى رقى له الشيخ ماء وشربه[4].

ويُستفاد من إحدى كرامات الشيخ الولي الصالح الحسن أبركان (ت857هـ/1353م)[5] أنّه بعدما تيقن سكان تلمسان من الهلاك جراء الحصار الذي ضُرب على تلمسان والذي تبعته القذائف النارية[1] من

سيميائية"، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير في الأدب الجزائري القديم، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2008، ص11.

[1]- عبد الأحد السبتي، قضايا في دراسة التاريخيات، ص21-22. نقلا عن حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص472.

[2]- نللي سلامة العامري، المرجع السابق، ص290.

[3]- المازوني، مناقب صلحاء الشلف، ص132.

[4]- المصدر نفسه، ص146.

[5]- هو الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي الراشدي الشيخ الفقيه الإمام العالم الولي الصالح القطب الغوث الشهير الكبير. من قرية الجمعة الكائنة على مقربة من واد يسر، رحل صغيرا إلى المشرق للإستزادة فأخذ على علمائها وجاور بالحرم الشريف لمدة خمسة أعوام، ثم عاد إلى تلمسان وأخذ على علمائها وأوليائها منهم الشيخ إبراهيم المصمودي والإمام ابن مرزوق الحفيد والشيخ أبي يحي المطغري فصار من الفقهاء الكبار والمدرسين المتميزين، فكان مجلسه العلمي يعج بالطلبة منهم الحافظ التنسي والشيخ علي التالوتي والسنوسي الذي لازمه كثيرا وانتفع به. وكان يقول فيه: "رأيت المشايخ والأولياء فما رأيت مثل سيدي الحسن أبركان كان لا يخاف في الله لومة لائم ولا يضحك إلاّ تبسما...له =سبحة لا تفارقه، لا يفتر عن ذكر الله تعالى طرفة عين"، كان مثابرا على "رسالة ابن أبي زيد القيرواني" و"جامع

طرف الجيش الحفصي سنة 827هـ/1423م[2]؛ فما كان لهم إلاّ أن سارعوا إلى أولياءهم وشيوخهم يستنجدون بهم فخرج الشيخ عبد الرحمن السنوسي والشيخ ابن عبد العزيز رفقة بعض الأطفال إلى الشيخ الحسن أبركان يتوسلونه بالخروج إلى السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1393-1433م) للشفاعة وطلب العفو منه والكف عن إذاية الناس؛ لكن الشيخ رفض ذلك[3] وهو الذي قيل فيه أنّه "لا يخاف في الله لومة لائم"[4]؛ وقد عُرف بقبوله من العامة والخاصة فقد قال فيه الإمام السنوسي بأنه كان "رحيما شفيقا بالمؤمنين يفرح لفرحهم ويتأسف على ما يسوءهم"[5]؛ وهذا ما يدفعنا حول التساؤل على هذا الرفض وما مبرره لكن وبعد الإلحاح عليه قال: "لا أخرج إليه والله سبحانه يحكم بيننا وبينه"[6].

ويذكر لنا ابن صعد (ت901هـ/1495م) في ترجمته لهذا الولي أنّه مشهور بالصلاح ومستجاب الدعاء "وكان الأمراء يقبلون شفاعته ويسارعون لقضاء حوائجه، ومن المعلوم أنّ من توقف منهم عن قضاء حاجته، أو أهل كريم شفاعته عاد ذلك عليه بسوء في نفسه وأهله وماله"[7]، وهو ما تأكد لنا فعلا فعلى الرغم من أنّ الشيخ الحسن أبركان رفض الذهاب إلى السلطان أبي فارس إلاّ أنّ هذا الأخير تاب ورجع عما عزم عليه[8] وذلك لرؤيتين رآهما في منامه الأولى حينما "رأى الأولياء يعني أولياء تلمسان قادمين عرف فيهم الشيخ أبا مدين رضي الله عنه شتت الثلثين من جيشه، والشيخ سيدي الحسن شتت الثلث"[9]، والثانية بأنّ "الشيخ الحسن في تلك الليلة وبيده سيف، وهو صاعد نازل في مدارج البيت"[10].

الأمهات" لابن الحاجب. توفي في شوال عام 857هـ/1353م. انظر ابن صعد التلمساني، روضة النسرين، ص 115-116. الملالي، المواهب القدسية، ص65-70. التنبكتي، المصدر السابق، ص152-153. الونشريسي، المصدر السابق، ص97. ابن مريم، المصدر السابق، 169-198.

[1]- ابن مريم، المصدر السابق، ص178.

[2]- الزركشي، المصدر السابق، ص125.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص178-179.

[4]- الملالي، المصدر السابق، ص66.

[5]- التنبكتي، المصدر السابق، ص152.

[6]- التنبكتي، المصدر السابق، ص79-80.

[7]- ابن صعد، المصدر السابق، ص120.

[8]- ابن مريم، المصدر السابق، ص179.

[9]- ابن مريم، المصدر السابق، ص179.

[10]- ابن مريم، المصدر السابق، ص179.

وفي رواية أخرى عن الولي الصالح عبد الله بن منصور الحوتي[1] موقف ضد حملة السلطان الحفصي على تلمسان[2] الذي عاش أحداث هذه الحملة ونظرا لما يتميز به من الشجاعة ذهب إلى السلطان بنفسه ووبخه قائلا: "أنت ظالم لا يحل السلام عليك ءاش تسال لهذا الناس تخرب بلاد الإسلام"[3]. فقال له السلطان "أنتم الفقراء دخلتم في مسائل لا تعنيكم"[4]؛ ويقول ابن مريم أنّ من كرامات هذا الولي تم تخريب محلة هذا السلطان حيث " أعطاهم الله ظلمة وريحا وسحابا حتى لا يرى احد احدا ساعة وضرب الشيخ السلطان وبعض أخبية المحلة رمتها الريح والخيل والبغال قطعوا رباطهم وذهبوا فلما تاب السلطان ارتفعت الظلمة والريح والسحاب وطلعت الشمس..."[5]؛ ما أفضى إلى رحيل السلطان الحفصي[6] دون إكمال هذه الحملة، فأنقذت تلمسان ببركة هذا الولي.

ومثل هذا الموقف أبداه الشيخ أبو عبد الله الصفار حول حركة أبي عنان نحو تلمسان وافريقية[7]، وكذلك فعل الشيخ أبو هادي مع أبي الحسن المريني حينما خرج لغزو إفريقية[8].

وفي السياق ذاته أبدى الشيخ الصالح أبو العباس ابن الخياط تعاطفا كبيرا مع السجناء الذين كان معهم في سجن أبي يعقوب المريني أثناء حصاره لتلمسان، فعلى الرغم من أنّ السلطان المريني أمر بسراحه عندما تأكد من كرامات هذا الشيخ وخوارقه حينما انكسرت القيود التي كبلوه بها؛ لكنه رفض وآثر البقاء مع السجناء الذين يقدر عددهم نحو سبعمائة نفس، فكان له الفضل في تعليمهم وإرشادهم إلى الصلاة وتلاوة القرآن[9].

---

[1]- هو عبد الله بن منصور بن يحي بن عثمان الحوتي المغراوي من أولياء الله الصالحين بتلمسان يصفه ابن مريم بأنه صاحب الكرامات البديعة والأخلاق الحميدة" ولم يذكر لنا تاريخ وفاته. انظر البستان، 266- 271.

[2]- خالد بلعربي، "حركة التصوف بتلمسان"، ص136.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص268-269.

[4]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص269.

[5]- المصدر نفسه، ص269.

[6]- المصدر نفسه، ص269.

[7]- النميري، فيض العباب، ص219-220. نقلا عن حميد تيتاو، ص471.

[8]- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الفقير، ص71-72.

[9]-ابن خلدون، بغية الرواد، 155/1. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص179. ابن مريم، المصدر السابق، ص99.

رابعا: الرؤى والمنامات

تجسدت بعض كرامات الأولياء والصلحاء في التنبؤ لبعض الأحداث التي شهدتها تلمسان في مرحلة البحث، وذلك من خلال تفسير بعض الرؤى[1] والمنامات التي رآها هؤلاء، نذكر منها رؤية رآها الولي أبو عبد الله الكرموني في منامه حينما كان في سجن السلطان يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان تنبأ من خلالها إلى موت السلطان المريني ونهاية الحصار؛ إذ رأى "أبو جمعة علي الجرائحي منهم كأنه قائم على ساقية دائرة، وجميع أقداحها وأقواسها تصب في وسطها؛ فجاء ليشرب؛ فاغترف الماء؛ فإذا فيه فرث ودم. فأرسله واغترف فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر..."[2]، وبعد أن استيقظ قال لمن معه بالسجن إن صدقت الرؤيا فنحن عن قريب خارجون من هذا السجن فكان من تأويله بأنّ الساقية هي الزمان والنقير هو السلطان والجرائحي هو أبو جمعة التلاليسي[3] وفعلا ففي الغد من ذلك توفي السلطان يعقوب بطعنة خنجر مما أدى إلى فك الحصار عن تلمسان وفرج الله على أهلها.

خامسا:الولي والتنبؤ لما سيحدث في تلمسان

تفيض كتب المناقب بنماذج كثيرة من كرامات الأولياء التي تتنبأ لبعض الأحداث تتعلق أحيانا بغزو تلمسان من أطراف خارجية أو سلامتها من الغزو أو الفرج من الحصار وغيرها. فقد تنبأ الشيخ سيدي محمد المرشدي إلى سقوط تلمسان في يد السلطان أبي الحسن المريني نقل لنا هذا الخطاب ابن مرزوق الخطيب على لسان هذا الولي قائلا: "وأما بلدك، فبسم الله، وخطّ دائرة في الأرض في الرمل، ثم قام، فقبض بإحدى يديه على الأخرى وجعلها خلف ظهره، وجعل يطوف بتلك الدائرة ويقول: تلمسان، تلمسان، حتى طاف بتلك الدائرة ثم قال لي: يا محمد قد قضى الله الحاجة فيها...ويملكها هذا الذي

---

[1]- الرؤيا ذات مدلول ديني، يعكس صفاء النفس وطهارتها ومن ثمة استعدادها لتلقي أسرار وتجليات إلهية بعد أن يكشف لها عالم الغيب، لذا اعتبرها أبو حامد الغزالي(ت505هـ/1111م) من دقائق علوم المكاشفة، والحلم أشمل في مدلوله، بينما الرؤيا أصدق تعبيرا إذ يستشعر الرائي البشارة من الله –فتكون بذلك أكثر تنبأ- بالغيب من الحلم. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/434-435. نقلا عن مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط، ص390.

[2]- ابن مريم، البستان، ص305. التنبكتي، الديباج المذهب، ص392.

[3]- ابن مريم، المصدر السابق، ص305. التنبكتي، المصدر السابق، 392-393.

حاصرها"[1]، وقد صدقت صحة كرامة هذا الولي فقد دخلها السلطان أبو الحسن المريني يوم 28 رمضان 737هـ/1336م.

ومن الذين نقلوا لنا بعض المكاشفات حول أوضاع تلمسان وما سيحل بها في هذه المرحلة ابن مرزوق الخطيب؛ منها ما أطلعه عليه الولي أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي في اليوم الذي مات فيه حول ما سيحل بمدينة المنصورة من خراب وكثرة الموتى[2]، وكذلك ما كاشفه له الشيخ محمد عبد الهادي وهو "أحد أولياء الله البدلاء الخاشعين الأتقياء، صاحب كرامات وأحوال ومقامات، أحد المتصوفين الطاهرين..."[3] عن الحملة الكبرى التي خرج فيها السلطان أبو الحسن المريني من أجل غزو تلمسان وإفريقية، وبعض الأحداث التي تخللت هذا الغزو، كما نهاه عن عدم مصاحبتة السلطان المريني في هذه الحملة[4].

أما الولي محمد بن عمر الهواري فمن كراماته أنه كشف عن عدم تمكن السلطان الحفصي من دخول تلمسان في إحدى حملاته عليها، حينما بعث إليه أمير تلمسان أبا العباس أحمد العاقل (834-866هـ/1430-1461م) خديمه بكتاب يستشيره حول كيفية التعامل مع الأمير الحفصي القادم لغزو تلمسان، فكان من كرامة الشيخ أن بشره بعدم تمكن الأمير الحفصي من الدخول إلى تلمسان قائلا: "خذ من صاحب البشارة، وقل له إنّ السلطان أبا فارس لا تراه ولا يراك"[5]. وصدقت كرامة الشيخ بإخفاق غزو تلمسان هذه المرة بسبب مرض الأمير وموته.

أما الشيخ حدوش العبد الوادي فقد تنبأ هو الآخر بعدم تمكن النصارى من غزو تلمسان مرة ثانية[6]؛ فقد ذكر ابن مريم في ترجمته لهذا الولي قصة حدثت له معه حينما بعثه والده إلى هذا الولي يستشيره

---

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص268. التنبكتي، المصدر السابق، ص423.

[2]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص299.

[3]- المصدر نفسه، ص210.

[4]- المصدر نفسه، ص211.

[5]- ابن مريم، المصدر السابق، ص404.

[6]- اشتد الصراع حول السلطة بين أفراد البيت الزياني مما أدى بأحدهم وهو السلطان أبي حمو الثالث إلى طلب المساعدة من الأسبان فدخلوا تلمسان سنة 924هـ/1518م ولم يخرجوا منها إلا بعد مساعدة خير الدين بربروس الذي تمكن من إخراجهم سنة 935هـ/1528م. انظر تفاصيل هذه الأحداث عند مارمول، المصدر السابق، 2/306-307.

في إمكانية شراء منزل؛ لأنهم خافوا من غزو تلمسان للمرة الثانية من طرف النصارى[1]، فقال له الشيخ: اشتروا الدار؛ فإنّ النصارى لا يدخلون تلمسان إلاّ مرة واحدة"[2]، ونضيف إلى ما سبق الشيخ سعيد البجاوي (ت950هـ/1543م) الذي عاش في تلمسان[3]، فمن خلال مكاشفاته أنّ تلمسان بعدما أخذها النصارى أخبرهم برجوع أهالي تلمسان كلهم إلى بلدهم بما فيهم السلطان محمد بن أبي حمو (حكم 949هـ/1542م) إلا هو[4].

سادسا: دفن الأولياء بجوار أبواب تلمسان طلبا للحماية

من ضمن المعتقدات التي ترسخت كذلك في المجتمع الزياني في مرحلة البحث على غرار مجتمعات المغرب الإسلامي هي القيام بدفن أولياؤهم في أبواب مدنهم اعتقادا في قدرتهم على حمايتها من هجمات الأعداء، فحرصوا حسبما يقول أحد الباحثين[5] على أن تتسور مدنهم بأضرحة الأولياء قبل أسوار الحجر والطين؛ ولا نبالغ القول إذا قلنا أنّ مدينة تلمسان عُرفت بهذه الظاهرة أكثر من نظيراتها من مدن المغرب الإسلامي عامة، ففي كل باب من أبوابها ضريح أو عدة أضرحة للأولياء المشهورين بالصلاح والدعاء المستجاب، فقد ترسخ في ذهنية المجتمع الزياني بأنّ بركة الولي تحرس مدينتهم من الغزاة، لذا عمدوا إلى دفنهم على أبواب المدينة ومداخلها[6].

إنّ الشواهد التاريخية تحيل إلى أنّ المنقض لتلمسان من هجمات المرينيين والحفصيين هي صرامة سلاطينها وقوتهم وشجاعتهم، لكن من وجهة نظر صوفية فإنّ المخلص لتلمسان من تلك الهجمات والاعتداءات هو أولياؤها[7]، لذا لا نستغرب عما كشفته النصوص المنقبية عن ملوك بني مرين وبني حفص في بعض غاراتهم على تلمسان أنهم لم يسألوا عن قوة جيشها وحنكة قادتها وهيبة ملوكها، ولم يستفسروا

---

[1]- تفاصيل هذه القصة انظر ابن مريم، المصدر السابق، ص200-201.

[2]- ابن مريم، المصدر السابق، ص201.

[3]- أصله من بجاية انتقل إلى تلمسان وعُد من أكابر الأولياء بها توفي سنة 750هـ/1349م، ودفن في موضع يقال له عين السُرّق. ابن مرين، البستان، ص216-217.

[4]- ابن مريم، المصدر السابق، ص216.

[5]- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص478.

[6]- فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، 151/1.

[7]- فائزة زيتوني، "نصوص الكرامات في كتاب البستان"، ص197.

على أي شيئ يخص الجانب العسكري[1]، وإنما سألوا عن الأولياء المرابطين على أبوابها والذين عُرفوا بكراماتهم وخوارقهم وقدرتهم على درء الخطر، وخير شاهد على ذلك استفسار السلطان الحفصي على إمكانية الدخول إلى تلمسان أثناء اجتماعه بوزرائه؛ حينما سألهم عن أبوابها والأولياء المرابطين عليها قائلا: "كم من باب للبلد؟ فعدّدوها له؛ فقال: باب الجياد، من عليها من الأولياء؟ قالوا: سيدي أبي مدين، وباب العقبة من عليها؟ قالوا: سيدي أحمد الداودي، وباب الزاوية من عليها؟ قالوا: سيدي الحلوي، وباب القرمدين من عليها؟ قالوا له ما عليها أحد، قال لهم: من تلك الباب أدخل"[2]. ونظرا لكثرة القبور والأضرحة المتواجدة على أبواب تلمسان ارتأيت تقييدها في جدول.

جدول يوضح القبور والأضرحة المتواجدة على أبواب تلمسان

قبور وأضرحة الأولياء	أبواب تلمسان	المصدر والصفحة
روضة أبي سعيد الشريف الحسني	باب القرمدين	روضة النسرين، ص201 البستان، ص167
الشيخ الصالح وهب بن منبه	باب وهب	يحي بن خلدون، بغية الرواد، 154/1
قبر الشيخ الصوفي أبي عثمان بن أبي إسحاق	باب وهب	بغية الرواد، 143/1
قبر الشيخ سيدي أبي يعقوب التفريسي	باب وهب	بغية الرواد، 143/1 النجم الثاقب، 416/2 البستان، ص492
روضة سيدي أبي جعفر أحمد الداودي (ت402هـ/1011م)	باب العقبة	بغية الرواد، 165/1 المسند الصحيح، ص175
قبر الشيخ الصالح ابن غزلون	باب العقبة	بغية الرواد، 165/1
قبر الشيخ الصالح أبي عبد الله بن عيسى	باب العقبة	بغية الرواد، 149/1
قبر الولي الصالح يحي بن الصّقيل	باب العقبة	بغية الرواد، 153/1 البستان، ص505
قبر الشيخ أبي عمرو عثمان بن صاحب الصلاة	باب العقبة	بغية الرواد، 153/1
قبر الولي محمد الجاديري	باب العقبة	البستان، ص395

[1]- المرجع نفسه، ص197.

[2]- ابن مريم، المصدر السابق، ص268.

قبر الولي أبي العباس أحمد بن منصور ابن صاحب الصلاة	باب العقبة	المناقب المرزوقية، ص174
قبر الشيخ الولي أبي عبد الله الحلوي	باب علي	بغية الرواد، 167/1
قبر الشيخ أبي محمد المليتي	باب زيري	بغية الرواد، 168/1
مقبرة "مسند صالح" وهي المقبرة التي دفن فيها المرازقة	باب زيري	المناقب المرزوقية، ص148
الولي الصالح أبي يعقوب يوسف أحَصْري	باب الجياد	بغية الرواد، 160/1
قبر الولي الصالح أبي يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي	باب الجياد	بغية الرواد، 157/1 المناقب المرزوقية، ص199
قبر الشيخ أبي يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي	باب الجياد	المواهب القدسية، ص48
الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن توترت	باب الجياد	المواهب القدسية، ص51.
قبر الولي الصالح نصر الزواوي	باب الجياد	المواهب القدسية، ص49. البستان، 489-490
قبر الشيخ محمد الشريف التلمساني(ت847هـ/1443م)	باب الجياد	البستان، ص491
قبر الشيخ الولي يعقوب المغراوي	باب الجياد	البستان، ص492
قبر الشيخ الصالح عبد الله المجاصي الشهير بالبكاء(ت641هـ/1243م)	باب الجياد	بغية الرواد، 142/1 البستان، ص246
محمد أبو عبد الله الشريف التلمساني(ت847هـ/1443م)	باب الجياد	البستان، ص391
سيدي أحمد ابن مرزوق (ت741هـ/1440م)	باب الجياد	المناقب المرزوقية، ص188 البستان، ص95
الشيخ أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي	باب كشوطة	بغية الرواد، 140/1
الشيخ أبو عبد الله محمد بن محيو الهوّاري الشهير بالأبرش	باب البحر (تنس)	صلحاء الشلف، ص389-390
قبر الشيخ أبي عبد الله بن القاسم بن حمود	باب ايلان	نظم الدر والعقيان، ص179

مما لفت انتباهنا في هذا الجدول هو أنّ أحد أبواب تلمسان ضمت عدد كبيرا من أضرحة وقبور الأولياء وهو باب "الجياد" الذي يقع في الجهة الجنوبية للمدينة[1] حيث يضم عشرة أضرحة؛ ثم يليه باب "العقبة" الذي يقع شرق المدينة[2] والذي بُني بالأحجار الرومانية القديمة[3] ويضم ستة أضرحة، وغير مستبعد أنّ أسباب دفن الأولياء به كانت لدواعي أمنية وذلك لاتقاء هجمات الحفصيين من الشرق ببركة هؤلاء الأولياء؛ ثم يليهما باب وهب الذي يضم ثلاثة أضرحة.

أما الأبواب الأخرى فإنها تضم من ضريح إلى ضريحين في كل باب ونأخذ على سبيل المثال باب القرمدين[4] الذي يقع في الشمال الغربي لمدينة تلمسان يعتبر الحصن الدفاعي لها من هذه الجهة وقد سمي بهذا الاسم لتواجد أفران صناعة الفخار والآجر والقرميد به[5].

وظل الاعتقاد بقدرة أضرحة الأولياء والصلحاء في توفير الأمن والحماية من غارات المحاربين فكانت الملاذ الآمن لهم متى أحسوا بالخطر الوشيك، وقد أورد لنا صاحب كتاب صلحاء الشلف أمثلة عن ذلك فذكر ضريح الشيخ أبي يعقوب الشهير بالأبرش[6] الكائن "ببني حلوان بساحل مازونة مشهور متبرك به، يُقرع لحماه في أوقات النهب والفساد وشنّ الغارات على أهل هذه البلاد، فلا يُرَي الله من اعتصم به واستند لحرمه سواءا ببركته وبركة سلفه الصالح"[7]، وكذلك ضريح الشيخ سيدي واضح (توفي بعد

---

[1]- ابن خلدون، بغية الرواد، 129/2. ويذكر الأستاذ عبد العزيز فيلالي أنه من الصعب تحديد مكانه في الوقت الحاضر، لأنّ المباني المتواجدة في الجهة قد اندثرت كلها وربما يكون بعيدا نوعا ما عن الباب المسمى حاليا بباب أبي مدين. تلمسان في العهد الزياني، 128/1.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، 129/1.

[3]- فيلالي، المرجع السابق، 112/1.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، 129/2.

[5]- فيلالي، المرجع السابق، 113/1.

[6]- هو أبو يعقوب ابن السيد العالم القدوة أبي عبد الله محمد بن محيو الهوّاري الشهير بالأبرش من أهل تنس له مناقب وكرامات كثيرة وبنى زاوية له بمدينة الشلف، رحل إلى بلاد المشرق لطلب العلم، ولم تفدنا المصادر بتاريخ ميلاده ولا وفاته. قال فيه المازوني موسى بن عيسى "كان رضي الله عنه جليل المقدار، عالما صالحا زاهدا، تؤثر عنه غرائب وعجائب"، ويقال بأنه أحد تلاميذ الشيخ أبي زكرياء المغيلي، ظهر شرفه آخر المائة السابعة. أنظر المازوني موسى بن عيسى، مناقب صلحاء الشلف، ص175-287.

[7]- المصدر نفسه، ص286. يذكر الأستاذ بوباية أنّ ظريحه يقع في المنطقة الحدودية ما بين تنس ومستغانم بالضبط في جبل بيوم التابع لجبال الظهرة ويظيف أنّ الضريح قريب من منطقة الدشرية التابعة إداريا لدائرة تنس ولاية الشلف. ص286. الهامش

سنة 681هـ/1282م) "فمن لدن وفاته إلى هلمَّ لحوض مورودٌ وعيدٌ مشهودٌ تفيض بركاته حيا وميتا بفضل الله على زوّاره وأهل قراره ويعتصم أهل تلك النواحي في أوقات النهب بحرمه وجواره..."[1].

فضلا عن ذلك شاع الاعتقاد كذلك بقدرة أضرحة الأولياء على منح البركة والثقة والأمن في الطريق من غارات المحاربين، وقطاع الطرق[2]، ومن ذلك ما حدث للأمير أحمد العاقل (834-866هـ/1430-1462م) الذي فرّ بعد ثورة أخيه محمد المتوكل (866-873هـ/1461-1468م) عليه سنة 866هـ/1461م إلى قبر أحد الأولياء المعظمين عند أهل تلمسان وهو قبر أبي مدين (ت549هـ/1197م) بالعباد[3]، المشهور بالبركة والدعاء عنده مستجاب[4]، ويذكر ذلك التنسي "ففرّ الأمير أحمد إلى العباد واستجار بقبر الولي القطب الغوث شيخ الشيوخ السيد أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري أفاض الله علينا من أنواره"[5]، وكذلك ما حدث لابن قنفذ سنة 776هـ/1374م حينما أحس بخطر الطريق "وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أنّ كل من يقع قدومنا عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى إنّ منهم من يسمعنا ضرب الأكف تحسرا علينا، حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا"[6] ببركة قبر الولي أبي مدين وحرمته.

حصيلة القول إنّ استفحال الحروب في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني أدت إلى بروز التصوف كظاهرة اجتماعية، فقد أدّت الانعكاسات السلبية للحرب على الاقتصاد والمجتمع إلى انخراط شريحة عريضة من المجتمع الزياني في حياة الزهد والتصوف، كما أصبح الولي بحق الزعيم الروحي الذي لجأت إليه أغلب الفئات اعتقادا منهم على قدرته على حمايتهم ودرء الخطر عنهم، كما جعلوا من الأماكن المقدسة والمتمثلة في المساجد والزوايا وقبور وأضرحة الأولياء ملاذا يلجأون إليها متى اشتدّ الخطر.

---

[1]- المصدر نفسه، ص174-175.

[2]- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، ص478.

[3]- التنسي، نظم الدر والعقيان، ص254. الوزان، وصف افريقيا، 24/2.

[4]- يقع ضريح أبي مدين بالعباد خارج المدينة ونظرا لاعتقاد الناس ببركته صار يقصده المتبركين من كل أنحاء العالم الإسلامي، دُفن إلى جانبه بعض الشخصيات منهم السلطان الزياني أبو العباس أحمد بن أبي حمو لقب بالمتوكل حكم سنة 879هـ/1475م وكذلك بعض المتصوفة الآخرين، ويعتبر ضريح أبي مدين من بين الأضرحة الأربعة المشهورة بالبركة في العالم الإسلامي إلى جانب قبر الشيخ أبي زكرياء يحي الزواوي ببجاية وقبر الشيخ أبي مروان اليحصبي ببونة وقبر معروف الكرخي ببغداد. أنظر ، أبو العباس أحمد، بن عبد الله الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2006، ص11.

[5]- التنسي، المصدر السابق، ص254.

[6]- الناصري، الاستقصا، 83/4.

الخاتمة

انطلاقا من العرض السابق تم الوصول إلى جملة من النتائج منها ما كان إجابة عما طرحناه من تساؤلات في مقدمة البحث، ومنها ما جاء عرضيا توصلنا إليه من خلال عملية البحث في العناصر المكونة له.

لقد كشفت الدراسة على أنّ الحرب كانت ظاهرة بنيوية في تاريخ الدولة الزيانية الطويل الذي يزيد على ثلاثة قرون، خاصة القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ما يبين أنّ تاريخ بني زيان كان تاريخا عسكريا، وقد كانت هذه الحروب في مجملها استباقية ووقائية من أجل الدفاع على ملكهم، ولم تكن هذه الحروب خارجية فقط أي مع دول الجوار كالمرينيين من الغرب والحفصيين من الشرق، وكذا تحرشات الأسبان والأتراك، وإنما اصطدمت أيضا في حروب داخلية مع بعض القبائل البربرية والعربية، وقد تعددت أسباب الصراع وخلفياته فمنها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي، في حين لم تكن الأسباب الدينية والمذهبية سببا في ذلك.

ومما استنتجته في هذه الدراسة أنّ الأسباب السياسية غالبا ما كانت الدافع الجوهري للسلوك العنيف والمؤسس الذي تبناه أعداء الزيانيين؛ إذ بالإمكان التمييز بين نوعين من أشكال هذا العنف وهما: العنف الفردي والذي مورس على بعض الشخصيات سواءً السياسية أو الفكرية والعنف الجماعي وهو الذي مورس على الجماعات، كما توصلت إليه أنّ تداعيات الحرب كانت وخيمة وقاسية على كافة شرائح المجتمع دون استثناء بما فيها طبقة السلاطين على الرغم من تربعها قمة الهرم الاجتماعي والسياسي فإنها لم تسلم من عمليات الاغتيال والتصفية الجسدية على أيدي خصومها خاصة فترة القرن الثامن الهجري السادس عشر الميلادي والتي كانت مأساوية؛ فقد قُتل أبو تاشفين الأول وأبو سعيد ذبحا، وأبو زيان خنقا، وأبو ثابت قصعا بالرماح، وأبو زيان محمد وأبو مالك عبد الواحد وأبو عبد الله المستعين تم اغتيالهم لكننا نجهل الأسلوب العنيف الذي تم به ذلك، وعثمان بن يغمراسن مات بالسم.

ومما سبق يمكن القول أنّ مظاهر العنف خلال فترات العهد الزياني تعددت صوره وتباينت أشكاله تمثل في القتل الذي تعددت طرقه كالذبح والخنق والقصع والصلب الذي ينتهي غالبا بعدم دفن الجثة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تمثل العنف في السجن والأسر والنفي، كل هذه الأفعال مورست على المجتمع الزياني بمختلف شرائحه من القاعدة إلى قمة الهرم، وما ثبت من خلال البحث أنّ معظم الحالات التي تم رصدها تم تعنيفها من طرف عدوهم المريني، وهو ما يكشف لنا أنهم طغاة مستبدين مستعدين لفعل أي

شيء في سبيل إنجاح مشروعهم السياسي المتمثل في زعامة زناتة، وتوحيد كافة المغرب الإسلامي تحت رايتهم شانهم في ذلك شأن حكام الدولة الموحدية الذي انتهجوا العنف في سبيل إقرار ذلك.

مما يمكن استخلاصه أيضا أنّ تداعيات الحروب التي خاضتها الدولة الزيانية سواء على الجبهة الخارجية أو الداخلية والتي مست جميع الفئات لم تقتصر على حواضر ومدن المغرب الأوسط فقط وإنما شملت بواديه أيضا؛ وكذلك الأمر بالنسبة للفئات المستضعفة، إذ لم تقتصر على المرأة والطفل فحسب، وإنما شملت شريحة عريضة من أفراد المجتمع منها الشيخ والمريض والمعاق وغيرهم ممن طالتهم لعنة الحرب وأدت إلى استنزافهم ولكن النصوص على اختلافها تجاوزت ذكرهم، على الرغم مما سجلته أحيانا من نقص في المعلومات حول تداعيات الحرب على الفئات المستضعفة وما وقع عليهم من صدمات ونكبات بسبب الحرب وتأثيراتها القصيرة المدى والبعيدة المدى سواءً على المستوى الجسدي أو النفسي، تحتم عليا الاستعانة بالمنهج التحليلي والاستنتاجي من أجل استنطاق النصوص كما ينبغي، ولم أكتف بالقراءة السطحية التقليدية للنصوص الواردة في المدونة الزيانية على اختلاف فروعها.

ومما يمكن قوله أيضا أنه على الرغم من كثرة القتلى الذين سقطوا في الحروب والحصارات للعهد الزياني وكذلك ما نتج عنها من هجرة السكان إلاّ أنّ سكان مدينة تلمسان في ازدياد مستمر شفيعنا في ذلك ما جاء في إحدى الإحصائيات التي تشير إلى أنّ عدد سكان تلمسان ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين 13-14 الميلاديين أكثر من 125 ألف نسمة، وتبين لنا كذلك أنّ حروب العهد الزياني أثرت في توزيع السكان في جغرافية المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، حيث أفضت هذه الأخيرة إلى تعمير مناطق على حساب مناطق أخرى. فقد دفعت الظروف الأمنية المضطربة الناس إلى الهروب من المدن إلى البوادي والأرياف التي يقل فيها معدل الخطر وهو ما سيؤدي إلى نشوب اختلال في توزيع السكان بالمملكة في فترات معينة، حيث يتم إعمار البوادي على حساب المدن.

أثبتت وقائع التاريخ أنه في حالة وجود نقص في عدد الرجال المؤهلين للقتال خاصة في حالات الطوارئ تزداد المشاركة الرسمية للمرأة في الأعمال العسكرية كرد فعل للحاجة إلى المقاتلين في الحرب؛ لكن وأمام ندرة نصوص تاريخية تثبت المشاركة الفعلية للمرأة الزيانية بكثافة في ساحة القتال فإني أعتقد بأن حضورها كان لغرض الاستئناس بها وإثارة الحماس وهو ما لمسناه في العديد من النصوص التاريخية؛ وفي المقابل أريد أن أنوه إلى أنّ استراتيجية سلاطين بني زيان في حالات الطوارئ والحاجة إلى مزيد من المقاتلين

في حروبهم المتكررة لم يطبقوا هذه القاعدة؛ وإنما كانوا يلجأون إلى الاستعانة بالقبائل العربية والبربرية لتعويض ذلك النقص في عدد الرجال المحاربين حيث يقومون بتأجيرهم مدة العمليات العسكرية.

تمكنت المرأة الزيانية من تسجيل حضورها في العمل الدبلوماسي خلال الفترات الحرجة التي شهدتها الدولة الزيانية وتنوعت هذه الأدوار ما بين إنخراطها في شبكة الاستخبارات والجوسسة ومشاركتها في المفاوضات السياسية؛ في حين لا نكاد نجد لها دورا في أواخر العهد على الرغم من أنّ هذه المرحلة لم تخلُ من الحروب والصراعات.

أما على المستوى الاقتصادي فقد توصلت في بحثي هذا أنه على الرغم من الخصب والرخاء وكثرة الخيرات الذي تمتعت به مدينة تلمسان وكذلك معظم مدن وأقاليم المغرب الأوسط؛ إلا أنها تأثرت في كثير من الأحيان بالفتن والحروب والاضطرابات السياسية التي حدثت خلال القرنين السابع والثامن الهجريين12-13 الميلاديين، ومدى تأثيرها على الوضع الاقتصادي وبشكل خاص الجانب الفلاحي فقد تأكد لنا أن معظم الأماكن التي طالتها أعمال الحرق وإتلاف المزروعات كلها أماكن تشتهر بالزراعة وإنتاج المواد الغذائية المختلفة وتربية الحيوانات، وهو ما سيؤثر سلبا على سير العملية الإنتاجية، وحتما ستكون الآثار وخيمة خاصة إذا تزامنت هذه الظروف بموسم الحصاد والجني مما سيؤدي إلى تفشي الفقر وحدوث مجاعات وإزم غذائية حادة ستؤثر في بنيات المجتمع الزياني.

ومما توصلت إليه أيضا الدراسة أنّ العوامل التي أدت إلى حدوث المجاعات وتعرض الناس إلى أزمات غذائية حادة بسبب الحروب والحصارات التي شهدها العهد الزياني ولم تكن الطبيعة المسؤول الوحيد على ذلك على غرار ما شهده العصر الوسيط من طواعين وجفاف، ومما خلصنا إليه كذلك أنّ سياسة التخزين التي انتهجها أفراد المجتمع الزياني قد عادت بالفائدة عليه والدليل أنهم لم يشتكوا الجوع في الحصارات التي أعقبت الحصار الطويل لأنهم تعلموا من تلك الظروف واكتسبوا ذهنية تخزين وادّخار المواد الغذائية المختلفة في الأهراء والمطامير تحسبا لأوقات المجاعة التي تأتي نتيجة الحرب أو الحصار.

أما فيما يخص التجارة الخارجية في العهد الزياني وبالضبط تجارة الأسلحة فقد أشرت إلى دور الجالية الأجنبية المتمثلة في اليهود والنصارى الذين كان لهم الأثر الإيجابي من خلال سد العجز في العتاد الحربي الذي كانت تعاني منه الدولة خلال القرن 7هـ/13م في ظل عدم امتلاكها لصناعة حربية محلية، لكن من خلال ما توصلت إليه يمكن القول أنّ الأسلحة المستوردة من أوربا إلى تلمسان ذات طابع تقليدي فهي لم

تتعد السيف والرمح والخنجر وهذا ما يدل على أنّ الدولة العبد الوادية في مرحلتها الأولى كانت تعيش طور البداوة وما زالت تخوض حروبها بأسلحة تقليدية.

أما بخصوص الكتابات والنقوش التي كتبت على النقود في العهد الزياني وما تحمله من مضمون روحي كان لها بعدٌ نفسيٌّ ومعنويٌّ في نفوس بني زيان حكاما ورعية، إذا كانت العديد من الحضارات الإنسانية قد عرفت النقد وتعاملت به نتيجة للضرورات الاقتصادية؛ فإنّ النقد الزياني امتاز عن غيره بخصوصية فريدة وهي أنه يعكس تلك الظروف والأوضاع السياسية المضطربة لفترة هامة من تاريخ الدولة وهي فترة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي؛ كما اعتبرت النقود أيضا في هذه الفترة وسيلة إعلامية يُنقل من خلالها اديولوجية الحكام ومشاعر الرعية.

أما النخبة الفكرية في العهد الزياني فقد كانت لها أدوار عديدة باعتبارهم أبرز الشرائح الفاعلة في الدولة فكانت لهم مهام سياسية متنوعة منها الوساطة والشفاعة لدى الطرف الغازي وأخذ المشورة منهم والاستقطاب القبلي فوفقوا في أغلبها بحكم قدرتهم على التأثير والإقناع.

ونستنتج كذلك أنّ أغلب هذه الأدوار كانت من نصيب الفقهاء الذين تمت المراهنة عليهم مما يدل على اتصافهم بالحنكة السياسية والبراعة الدبلوماسية، ومن زاوية أخرى نلاحظ أنّ المشاركة في العمل الدبلوماسي في المغرب الأوسط قد تبنتها بعض النخب الأخرى منها حريم السلطان والوزراء وقادة الجند، ويمكن الإشارة أيضا إلى أنّ كثافة العمل الدبلوماسي في الدولة الزيانية اقترن بشخصية السلاطين الذي عُرفوا بالقوة والشجاعة، وهما عهد مؤسس الدولة السلطان يغمراسن بن زيان والسلطان أبي تاشفين الأول والسلطان أبي حمو موسى الثاني.

ومما تمكن الوقوف عليه هو التباين في نتائج تلك السعايات والوساطات التي تدخلت فيها هذه الشخصيات فمنهم من نجح في إعادة التوازن السياسي والاجتماعي ودرء الخطر الخارجي ودفع المكاره على المجتمع الزياني وحمايته، فقاموا بما عجزت عنه السلطة وهو ما يثبت جدارة هذه الشخصيات واعتباره البديل والمنقذ للمجتمع في هذه الظروف، ومنهم من أخفق في مسعاه مما يدل على حدة الصراع بين الأطراف المتحاربة.

ومما يمكن استنتاجه أيضا هو الدور الإيجابي للسفارات التي انتهت أغلبها بالنجاح؛ حيث انعقد فيها الصلح والهدنة بدلا من الحرب والاصطدام العسكري بين الدولة الزيانية والأطراف الخارجية؛ فضلا عن أسلوب المهاداة كسلوك انتهجه سلاطين دول المغرب الإسلامي فيما بينهم في بعض الفترات تأكيدا لحسن النوايا وتعزيز علاقات الصلح والتقارب التي ساهمت في تقرير السلم بدلا من الحروب التي كانت دائما تداعياتها سلبية على المجتمع الزياني.

ومن النتائج الأساسية أيضا التي توصلت إليها هي أنّ الخطاب السياسي في المدونة الزيانية الذي جاء على ذكر حروب العهد الزياني تميّز في بعض الأحيان بالعديد من النقائص منها الاختصار في سرده لأحداث المعارك وعن وصفها بدقة والتستر على بعض المواقف والمظاهر والنتائج، وأحيانا عدم الدقة في ذكر تواريخ المعارك على الرغم من أهميتها، وكذا عدم ذكر إحصائيات التي تفيدنا في عملية الإحصاء عدد القتلى أو الأسرى أو عدد الجند وغيره، وفي المقابل نقر بأهمية كتب المناقب والرحلة في التأريخ لمثل هذه القضايا السياسية؛ بدليل أنها أمدتنا بمعطيات هامة لم تذكرها لنا كتب التاريخ السياسي، وكانت الحروب والصراعات المتكررة وما نتج عنها من تداعيات اقتصادية ونفسية السبب في لجوء العامة إلى حياة الزهد والتقشف فكانت الظروف السياسية والأمنية إحدى الأسباب الرئيسية في ظهور حركة التصوف في هذه المرحلة، فأصبح الولي بحق الزعيم الروحي الذي لجأت إليه أغلب الفئات اعتقادا منهم على قدرته على حمايتهم ودرء الخطر عنهم، كما جعلوا من الأماكن المقدسة والمتمثلة في المساجد والزوايا وقبور وأضرحة الأولياء ملاذا يلجأون إليها متى اشتدّ الخطر.

نستنتج أيضا أنه فيما يخص نخبة تلمسان لم يكونوا بمنأى عن مضاعفات الحروب فقد تعرضوا للسجن من طرف سلاطين بني مرين في الفترات التي تمكنوا من إخضاع تلمسان أو تطبيق الحصار عليها؛ خاصة فترة الحصار الطويل الذي فرضه السلطان يعقوب المريني؛ ما يبن لنا أنهم كانوا مناوئين لأي غزو على تلمسان ومعارضين بشدة لمثل هذه الانتهاكات بدليل أنهم تحملوا عقوبة السجن بدلا من الخضوع.

في النهاية ينبغي أن نشير إلى حدة التنافس والتطاحن على الحكم بين أفراد البيت الزياني في الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إلى غاية سقوط الدولة وهو ما سمح للأطراف الخارجية بالتدخل مما عرضهم في كثير من الأحيان إلى الهروب والنفي والتغريب.

كما نستنتج من خلال ما سبق أنّ النصوص الوسيطية الخاصة بمرحلة الدراسة بقدر ما كشفت عن كثافة عمليات الأسر والسبي التي طالت أفراد المجتمع الزياني في حروبهم ضد بني مرين؛ فإنها في المقابل أغفلت تماما عن ذكر أسرى حروبهم ضد بني حفص، كما أنّ هذه النصوص ظلت متكتمة عن الإفصاح بأوضاع الأسير وحالته النفسية رغم أنه لم يسلم من مختلف الأضرار الجسدية والنفسية.

توصل البحث أيضا إلى القول بأنّ الحروب المتكررة التي عصفت بالدولة الزيانية كانت من أهم الأسباب التي أرهقت الدولة وأدت إلى إضعافها، وإن كانت الأسباب والبواعث لقيام هذا الصراع مختلفة، ففي البداية شكل الصراع حول زعامة قبيلة زناتة الكبيرة السبب المباشر إلى جانب وراثة العرش الموحدي، في حين تسترت الأطماع الاقتصادية في خيرات تلمسان ومقوماتها الاقتصادية حيث لا تظهر إلا خلال الغزو أو بعده، أما الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة واندثارها فإنها تتمثل في الصراع حول السلطة بين أفراد البيت الزياني فعاشوا نحو من المائة والخمسين سنة (153) الباقية تابعين لا متبوعين، ولم تكن لهم سيادة على أراضيهم، كل هذه الظروف أسالت لعاب الأسبان والبرتغال الذين شنوا هجومات للاستحواذ على المنطقة، لتكمل عليها تحرشات الأتراك الذين كان على يدهم إعلان نهاية الدولة الزيانية.

الملاحق

ملحق رقم (01): دينار مضاعف للسلطان الزياني أبي تاشفين الأول

لوحة (2) دينار مضاعف ضرب مدينة تلمسان لأبي تاشفين عبد الرحمن الأول بن موسى، محفوظ في متحف قطر الوطني، سجل رقم 1887 ح – لم يسبق نشره.

أحمد مختار حسن : العلاقات السياسية بين دولتي بني مرين و بني زيان

ملحق رقم (02) دينار مضاعف ضُرب بتلمسان للسلطان أبي الحسن المريني

لوحة (3) دينار مضاعف ضرب مدينة تلمسان لأبي الحسن علي بن عثمان الثاني فيما بين سنتي (737 – 749هـ). نقلاً عن: Hazard, p.208, no. 760, pl. V.

ملحق رقم (03) رسالة مودة بين أمير تلمسان عثمان بن يغمراسن ونظيره أمير غرناطة

الرسالة رقم (165)

تهنئة من أمير غرناطة وتأكيد
المودة والتضامن مع أمير تلمسان[1] [سنة682]

/ع123/ **أخونا الّذي أبرمّنا** عقد أخوّته في ذات الله أشدَّ الإبرام، وصفيُّنا الّذي لا تُحيل صفاءَنا له حوادثُ الأيّام، ولا تزال محبّتُنا فيه تَنمي على الاتّصال والدّوام، الأميرُ الأجلُّ الأعزّ الأسنى، الأرفع الأسمى، الأمجد، الأسعد الأوحد، الأطهر، الأشهر الأكبر، الأحفل، المظفّر الأمضى الأعدل الأفضل، المعظَّم الموقّر[2] الأخلص الأصفى الأكمل، **أبو عبد الله** بن الأمير الأجلّ الأعلى، الأعزّ الأسنى، الأرفع الأمجد، الأسعد الأوحد، الأطهر الأظهر، الأشهر الأكبر، الأحفل الأرضى، المؤيّد الأمضى، الموقّر المقدّس المرحوم أبي عبد الله **ابن نصر**، وصل الله أسباب سعده وإسعاده، وعرّفه من صنعه الأجمل، وعونه الأكفل، وعضدِه الموصولِ (حالُه)[3] بالمستقبل ما يزيد على عادِه[4].

معظّمُ إمارته الجليلة، العليم بما لها من المآثر الجميلة، المردّدُ لمَحامدها العريضة الطويلة، المبتهجُ بما يسنّي اللهُ لها من مساعدة الأقدار الميسّرة للأوطار المُنيلة، الأمير **عثمان بن الأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيّان**، سلام كريم عليكم ورحمة الله (تعالى) وبركاته.

وبعدَ حمدِ الله مقدّرِ الآجال، المحمودِ على جميع الأحوال، الحكيمِ الذي لا يُردّ قضاؤه، الكريمِ الذي وَسِعَ[5] الأمّةَ عطاؤه، قبل الاستنجاد والسؤال، **والصّلاة** على سيّدنا محمد رسوله الذي أنقذَنا بهدايته من مَهاوي الضّلال، وعلّم وبصّر، وبشّر وحذّر، وأوضَحَ سبيل الرّشَد[6]، وأعلمَنا أنّ الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجَسَد، فشفَى بتعليمه وإعلامه القلوبَ من الاعتلال؛ وعلى آله وأصحابه أربابِ اليقين/ع148/ الفائزين في نصرة الدّين بأشرف السّوابق وأفضلِ الأعمال.

فكتبناه – كتب الله لكم إعلاء الإمرّة، وخوّلكم من هيئات العَضْد في الحَلّ والعَقْد ما يُنبئ عمّا لكم لديه من عظيم الأثَرة–، **من تلمسان** حرسها الله، وفضلُ الله تصفو مَشارعُه، وتضفو مَدارعُه، وصُنعُه الأجملُ تتلاحق طلائعُه، والحمد لله كثيراً ؛ وإخاؤكم الكريم عَقْدُه وثيقٌ، ووجهُه سافرٌ أنيقٌ، والوفاءُ بأذمّته[1] المؤكّدة لا يُسلَك غيرُ طريقه طريقٌ، ولا يُتّخَذُ غيرُ فريقه فريقٌ، والتّعظيم لِجانبكم الرّفيع موصولٌ أبداً، موفًّى قولاً ومعتقَداً، وإنّه بكم[2] لَحقيق، والثّناءُ على مجدكم الأشهر وفضلِكم الأوفر مُرسَلُ العِنان طليق، والله يصله في ذاته ' بمنّه.

وإلى هذا، – وصل الله/ع124/ سعدكم– فإنّه وصل كتابُكم الخطير يَنصّع بياناً، ويجلو من مُصافاتكم صُوَراً حِساناً، **وعَزّيْتم** في المولى الوالد[3] المقدّس المرحوم – رضي الله عنه وجدّد الرحمة عليه– تعزيةَ مثلكم من الإخوان الّذين تلاقت قبل الجُسوم قلوبُهم، ولم يكن إلاّ التّواخي في ذات الله تعالى مطلوبُهم؛ وإنّه لَرُزءٌ لدينا جليل شَغَل الخواطرَ، وأسهَرَ النّاظر، لكن إذا كان الأسف لا يُغْني، والوجدُ لا يَرُدّ الفائتَ ولا يَثني، فالتّسليم لحكم الله أولَى بالمومن[4] وأجدَر، وثوابُه في التزام الصّبر أجزلُ وأوفرُ ؛ وذكرتم ما أصابكم لفقده من التّفجّع، ونالكم بمُصابه من التّألّم والتّوجّع، وكذلكم الصّفيُّ يَتفجّع لذهاب صفيّه، ويتأسّف لسماع نعْيه؛ **ولئن كنتم فقدتم محلَّ والد لقد أبقَى لكم منّا محلَّ أخٍ معاضد**، في كافّة الأحوال مُساعد، يقاسمكم (كم) في المُرّ والحلو، ويوردكم من مَوارد مصادقته في النّمير الصّفْو[5]؛ **وهنّأتم** –وصل الله سعدكم– بما هيّأ الله لنا من الخير بأن أحلّنا في محلّ إمارته، وملّكَنا زمامَ إيالته وإدارته[6]، ونحن نقابل هذا الميسَّر[7] من شكر الله تعالى بما نرجو أن يكون قيداً لأنعُمه[8]، وكفاءً لمننه الجزيلة وكرمه ؛ ولا نشكّ بحسب عملنا بودادكم الأصفى، وكمالكم الّذي أدلَّتُه بيّنةٌ لا تَخفَى، أنّكم تأخذون من أحوالنا بالقسم الأوفر[9]، والحظّ الأكبر؛ بارك الله فيكم من أخٍ جليل في الأمراء، مُساهمٍ لنا في السرّاء والضرّاء، أصفَى/ع149/ لنا المحبّةَ وأصفَيْناها له، وطابقت أقوالُه في (الوفاء و)الكرم أعمالَه، واعتذرتم[1] بمقتضى الفضل الّذي طُبعتم على سَجيّته، وتميّزتم بمزيّته عن تأخر كَتْبكم إلينا[2]، **وقد تقرّرَ بيننا وبينكم من خلوص السرّ والجهر ما لا يُحتاج معه إلى تكلّف العذر**، فإنّا ننظر إلى كلّ ما يصدُر عنكم بعين الرّضى، ونَقيس مستقبلَ حالكم في الوفاء على ما نتيقّنَا منه فيما مضى، بحول الله؛ وهو تعالى يُديم سعدَكم، ويَحرُس مجدَكم ويضاعِف صنائعَه الكريمة عندكم، والسلام.

الفهارس

1-فهرس الآيات القرآنية

نص الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
"وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ"	البقرة	162	152-149-143
"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"	البقرة	189	105
"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ"	البقرة	217	128
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"	المائدة	3	199
قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ	الأنعام	145	198
"وإن جنحوا إلى السلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين"	الأنفال	62-61	153
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ	طه	71	95
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"	سبأ	11-10	26
"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"	الحديد	3	152-149

2–فهرس الأحاديث النبوية

لا تهدموا بيتا ولا تعْقِرَنَّ شجرة إلاّ شجرا يمنعكم قتالا أو يحجر بينكم وبين المشركين"	52
"ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا"	94–93
"لا تغلّوا ولا تمثلوا"	94
"وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان"	105

فهرس الأشعار

البيت الشعري	البحر	الصفحة
فويحك يا يغمور هل لك منجد أيقظان حس أنت أم أنت نائم؟ أفي كل عام تترك إبنك للقنا ويُسبا لك الغيدُ الحسانُ النواعمُ	الطويل	70
فلا صلح حتى نروي السيف والقنى وتأخذ عبد الواد منكم بثأرها وأشفي غليلي من مرين التي طغت بسبي غوانيها وقتل خيارها	الطويل	70
ألم يأن أن تبكي الحمام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلت النصل وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي فلو أنصفتني وهي اشكال همتي لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلي ولا فترقت سبع الثريا وغاضها بجمعها ما فرق الدّهر من شملي	الطويل	78
يا حادثا ملأ المسامع شنعة والجفن ماء والجوانح نارا سقى الورى كأس الأسى حتى لقد سكر الجميع وما هم بسكارى بدر الملوك وسرها الشهم الذي دابا يجر الفيلق الجرار طوق المنية منه ليثا باسلا جم المحاسن نافعا ضرارا عجبا لترب صار فيه شخصه ما عذره أن لا يصير نضارا	البسيط	85
أرضى الله في سري وجهري وأحمى العرض من دنس ارتياب وأعطى الوفر من مالي اختيارا وأضرب بالسيوف على الرقاب	البسيط	103
تلمسان لو أنّ بها الزمان يسخو مُنَى النفس، لا دارُ السلام، ولا الكرخ وداري بها الأولى التي حيل دونها مثارُ الأسى لو أمكن الحنق اللبخُ وعهدي بها والعمرُ في عنفوانه وماء شبابي لا أجين ولا مطبخُ قرارة تهيام، ومغنى صبابة ومعهد أنس لا يلذبه لطخُ	الكامل	112
لعشرة أعوام عليها تجرمت إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراءُ يُطَنّبُ فيها عابثونَ وخرّبُ ويرحلُ عنها قاطِنونَ وأحياءُ كأنَّ رماحَ النَّاهبينَ لمُلْكِها قِدَاح وأمْوالُ المنازِل أبْداءُ فلا تبغين فيها مناخا لراكب فقد قلصت منها ضلال وأفياءُ	الطويل	112
نفسي تنازعني فقلت لها اصبري موت يريحك أو صعود المنبر ما قد قضى سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر	الكامل	113
والجو يرمل في سماء فساطل وبنابها ظللا على الفرسان والسيف دنى المضربين كجدول في ضفتيه شقائق النعمان	البسيط	173
كفاكم بها سجنا طويلا وإن يكن هلاك لكم فيها فهي لكم فخُّ فكم فئة منّا ظفرتم بنيلها بأبشارها من حُجن أظفاركم برخ كأنّكم من خلفها وأمامها أسود غياضٍ وهي ما بينكم أرخُ	الوافر	179

4-فهرس الأعلام البشرية

"أ"

إبراهيم بن حكم الكناني السلوي.....91

ابن الأعرج 21

ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل 100-143-144-145

ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن 2-4-10-11-15-16-27-71-42-45-46-49-50-53-58-66-69-71-80-81-82-86-88-94-96-97-98-101-102-107-127-144-145-159-160-164-165-169-183

ابن خلدون أبو زكريا يحي 3-11-16-34-36-37 -45-46-47-49-68-112-155-158-163-164-176

ابن الخطيب لسان الدين 5-6

ابن خميس التلمساني 112-179

ابن رضوان المالقي.....90-150

ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني.....45-46-47-114-136-154-156-201

ابن مرزوق أبي عبد الله الخطيب التلمساني 49-56- 61-63-73-74-81-107-148-174-179-189-190-196

ابن مريم عبد الله محمد الشريف 194-197

أبو إسحاق إبراهيم التنسي 177

أبو البيان واضح.....48-63-89-200-192

أبو تاشفين الأول عبد الرحمن بن أبي حمو 3-4-5-10-15-16-20-85-84-85-90-91-92-94-95-98-102-116-129-130-131-132-134-135-136-147-148-162-170-178-184-189

أبو تاشفين الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الثاني..... 22-38-79-112-116-149-150-158

أبو ثابت الزياني 4-11-12-13-14-68-69-71-73-83-87-93-97-116-146-147-165

أبو جمعة علي التلاليسي (الجرائحي) 195

أبو الحسن بن يخلف التنسي.....73-179-180

أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق 4-5-8--23--54-106-107-111-117--146-170-190-196

أبو حمو موسى بن عثمان الأول 11-96-97-126-128-129-130-136-154-166-168-178-183-189

أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف 2-3-4-5-8--13-14-16-17-20--27-34-35-36-37-38-39-47-48-54-55-56-120-121-138-149-150--156-158-161-162-163-164-165-173-189

أبو حمو الثالث.....86

أبو الحسن علي بن حمو بن أبي تاشفين 157

أبو الحسن بن مخلوف (أبركان) 163-177-180-192-193-194-198

أبو الحسن علي بن النجارية 189

أبو دبوس الموحدي.....95

أبو زيان القبي 3- 56-59-69-83-98-115-117-118-120-149-155-164-165

أبو زيان أحمد الثالث 86

أبو زكرياء الحفصي 4-6-12-55-58-63-106-167-170-190

أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام 50-163-166-117-178-179

أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن 3- 32-35-38-48-52-62-88-87-96-116-146-168-169-170-175
أبو سعيد عثمان الثاني.....11-14- 19-20 -73-83-85-87-92-146-165
أبو سعيد (ابن السلطان أبو تاشفين الأول).....85-90-94-95
أبو سرحان (ابن السلطان أبو تاشفين الأول) 85-90-94-95
أبو سالم إبراهيم المريني..... 54-58- 69-110-149-150-151-152-153-158-190
أبو العباس أحمد المعتصم (العاقل) 8-78-162-189-196-201-214
أبو عبد الله الحلوي 117
أبو عبد الله محمد العبدري 62-63
أبو عبد الله محمد الزركشي.....69-82-85-110-156
أبو عبد الله محمد (ابن الحمراء) 7-8-89
أبو عبد الله محمد الأول (ابن خولة).....77-78
أبو عبد الله محمد المستعين بالله 89
أبو عبد الله محمد بن سالم..... 31
أبو عبد الله محمد العبدري 111
أبو عبد الله محمد بن زكريا الحفصي 68-155-156-169-196
أبو عثمان بن أبي إسحاق.....117 -198
أبو عمرو عثمان ابن صاحب الصلاة 117-198-199
أبو عمرو عثمان الحفصي 9-78-156-160-169
أبو عمران موسى المازوني.....48-63-177-192
أبو عامر بن يوسف المريني 15
أبو عيس ابن الإمام 24- 74-112-112-135-136-137-161-163-165-166
أبو عنان المريني فارس بن علي بن عثمان 14- 19-68-69-71-72-82-87-93-135-136-137-165-161-195
أبو فارس عبد العزيز المريني..... 6-7-49-114-118-119-165
أبو فارس عبد العزيز الحفصي.....68-69-72-89-159-180-192-194
أبو القاسم سعد الله 191
أبو مالك عبد الواحد ..... 7 -78-89
أبو مدين شعيب 188-190-194-198-201
أبو موسى عيسى ابن الإمام .....117- 166 - 178-179-
أبو يحي يغمراسن بن زيان .2-3-6-7-8-10-11-12-13-15-16-17-30-32-36-39-48-52-63-69-70-72-89-90-91-96-100-116-124-133-134-143-144-162-167-170-189
أبو يحي الحفصي .....4-147 -154-170
أبو يعقوب يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي 199
أبو يعقوب (والد السلطان أبو حمو).....37-188
أبو يعقوب (ابن السلطان أبو تاشفين) 85-90-94-95
أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني 8- 11-12-13-15-127-143-144-145-146-179-190-191-195
أحمد بن يعقوب.....72
أحمد بن مرزوق.....72

"ب"

بربروس.....78

باركلاري مارتن 109

بيبرس.....72

"ت"

التنسي 20-45-46-47-77-87-81-82-85-87-88-98-201

"ح"

حدوش العبد الوادي 197

الحميري محمد عبد المنعم.....182

"خ"

خاييم الثاني.....20-31

خالد بلعربي.....47

خالد بن عامر 119-120

"د"

داوود بن سليمان..... 24

دعد 173

"س"

سليمان عليه السلام..... 24

سالم بن إبراهيم 5- 60

سوط النساء 167

السعيد الموحدي 2-15

السنوسي عبد الرحمن 180-193

"ع"

عبد العزيز فيلالي.....47

عبد الله بن مسلم الزردالي.....90-91-116-155-166

عبد الله بن منصور الحوتي 194

عبد الله المجاصي (البكاء) 199

عبد الملك العبد الوادي.....91-96

علي بن منصور بن خلوف اليابابني..... 67

علي بن تاكرارت..... 17

عمر بن عبد الله 151-152

"ف"

فرج بن عبد الله..... 17

فرناند 121

فارس بن يغمراسن.....90-106

"ك"

كاربخال مارمول 6-11-12-35-49-55-58- 62-63-78-80

الكونت دالكوديت.....63-76

"ل"

لطيفة بشاري..... 7

لسان الدين بن الخطيب.....92

"م"

محمد بن أبي حمو 115-197

محمد بن أبي تاشفين.....72

محمد بن عطية بن عبد القوي.....52-121-192

محمد بن يوسف الثغري.....38

محمد ابن صعد الأنصاري 77-194

محمد بن يعقوب بن علي الريحاني 155

محمد بن عمر الهواري 196

"و"

وهب بن منبه 198

الوزان حسن بن محمد الفاسي 10-11-12-21-33-34-45-46-55-57-63-65-66-71-80-95-140-175

الونشريسي أحمد 53

5-فهرس الأعلام الجغرافية

"أ"

اسبانيا..... 12-16-30-32-33-35

افريقية 6-161-195-196

أرزيو 9- 10-19-21

أوربا 6-9-10-30-32-33-36

الأندلس 5-17-25- 27-114-128-143-144-145-157-159-160-163-179-183

أرشقول 9

أشبيلية.....20

الأقاليم الشرقية.....4-54-96-97-115-117-145-153-164

الأقاليم الغربية.....96

"ب"

بجاية 5-58-116-132-148-153-155-163-169

بلنسية.....20

برشك.....61-112-166

بونة.....18-153

باب الجياد 200

باب العقبة 200

باب القرمدين 200
البطحاء.....184-61-65

"ت"

تلمسان 3-5-6-7-9-10-12-13-15-17-18-19-20-22-23-25-26-27-30-31-32-33-34-36-37-41-
42-45-46-47-48-49-52-53-54-56-57-58-60-62-63-64-66-67-70-71-72-73-74-75-76-78-
79-80-81-82-84-86-87-90-91-125-126-127-148-149-150-151-154-155-156-157-158-159-
160-161-163-165-166-167-169-170-172-173-174-175-178-179-180-182-183-185-186-
190-191-192-193-194-195-196-197-198-200-201
تلمسن 139
تفسرة 18-19-61
تنس 9-42-119
تدلّس 26-61-77-116-148-153-156-166
تستاسة.....6
تبحريت.....61-62
تونس 9- 10-16-19-69-78-79-113-132-146-147-156-157-160

"ج"

جليقية 16-17
جبل أوراس 2
جبل ونشريس 3- 8-16-18-38-66-67-98-327
جبل ترارة 18-19
جبل أغبال 62-66-76-82
جبل بني ورنيد 5-66
جنوب أوربا 7- 8-9-35
جنوب الصحراء.....7
جزائر بني مزغنة 5- 19-42-58-60-79-89-113-117-120-132-146-151-164

"خ"

خزرورة 100-144

"د"

دمشق 159
الدّوسن 119-165

"ز"

الزاب 119-165

"س"

سجلماسة 7-8-27-91-92-96-103-106-117-132-152
سرقسطة.....20
السودان الغربي 6-7-9-17-25

"ش"

شرشال 6-16-42-62-65

الشلف.....58-119

الشام 160

"ط"

طروادة.....41

طليطلة 83

"ع"

العباد.....26-77-189-201

العدوة الأندلسية 145

"ف"

فاس 7-12-13-18-37-67-74-95-113-126-138-152

فرنسا.....16-30-32

فرجيوة 169

"ق"

قسنطينة 4-17-46-116-147-153-169-182

قشتالة.....32-145

قطلونية.....16-30

"م"

مستغانم ..... 16 -55-57-65-75-107

مراكش 5-11-23-96

مازونة..... 16-55-58-60-65-66-200

مالقة 144

ميلة 6

مرسى هنين 9- 63

مرسى مستغانم 9-10

ميناء أرزيو 9- 63

ميناء وهران 8-9- 57-66

المرسى الكبير 8-9-10

المنصورة 16-18-130

المغرب الأوسط 6-7-13-17-18-20-22-23-33-35-40-50-51-53-56-57-58-64-65-66-76-80-81-82-
97-99-103-108-109-113-114-116-162-163-178-180-181-183-188-190-191

المغرب الأقصى 4-6-62-151-152

المغرب الأدنى 6-136

المغرب الإسلامي 6-17-23-25-26-27-46-47-58-107-108-113-132-133-159-184

هنين 9-10-18-19-32-34-65-75

"و"

وهران 12-14- 16-18-27-32-42-55-65-75-76-78-90-117-120-121-151
وادي الشلف ..... 20 -72-168
وادي ايسلي.....53-70-72-75-100-106
وادي تلاغ.....69-75-100-143-172

6–فهرس الأمم والقبائل والجماعات

"أ"

أمراء بني عبد الواد 11-13-17
الأتراك 12-16-17-21-27
الأراغونيين 14-15
الأندلسيون 10-11-17-18-19-20-21-22-27
الأفرنج 15
الأغزاز 10-11-16-17
الأعلاج 10-11-17-27
الأشراف 37
الأسرى المسيحيين 14-19-20
الأسرى الزيانيون.....67-74-75-76-150-151-152-192
الأولياء 48-148-161-162-180-188-190-191-192-193-194-195-196-197-198-200-201
الأطفال.....65-71-99-104-105-106-108-121-122-124-182-193

"ب"

بربر زناتة 12
البنادقة 10
بنو برزال 11
بنو توجين.....3-11-12-30-52-53-55-119-144
بنو راشد 11-12-13-80-100-106-117-166
بنو عامر 13-14-85-103-120-165
بنو ورنيد 11-116
بنو عبد الوادي 10-11-12-13-14-17-41-52-121-124-130-132-133-151-152-154-166-170

"ت"

تجار تلمسان 10-33
تجار الصحراء 7
تجار أوربا 32-33
التلمسانون 37-182-185

"ث"

الثعالبة.....5-13-164

"ج"

جراوة..... 11
جند الروم.....14-15-16-36-100-101
الجيش الزياني 2-10-11-12-13-14--16-24-28-30-35-36--101-102-107--116-117--120-164
الجيش المريني.....27-52-71-96-79-118-119-124-165-173
الجيش الحفصي 105-124-167-180-193

"ح"

حريم السلطان.....17- 69 -70-71-78-88-173-174
حصين 13-14

الحفصيون 9-10-11-12-13-26-67-75-77-132-133-135-153-156-167-178-197-200
الحرفيون.....22-50 -59

"ذ"

الذواودة 163-164-165

"ز"

زناتة 10-11-12-74-108-143
الزيانيون 2-6-10-13-16-26-27-41-65-72-74-82-83-95-108-116-127-128-129-132-136-138-143-145-148-152-158-171-173-174-191

"س"

سلاطين بني زيان 2-6-10-12-13-16-18-25-28- 32-88-92-94-96-97-98-101-103-125--146
سلاطين بني مرين 81-94-95-96-97-108-138-153-182-183-188-189-190-197-178-198
سويد 13-14
سُليم 13
السجناء 195

"ع"

العطاف 14
العامة.....36-63-101-102-108-178-179-180-191-192-193
العلماء.....72-166-176-178-180-189
العبيد.....7-33- 99
العسفاء 104

"غ"

غلمان 37
الغرناطيون.....65
الغزاة 12

"ف"

الفلاحون.....50-52-55-59-60-66
الفقراء.....51-71-91-95-175-176-177-194
الفقهاء.....51-102-150-151-162-163-166-176-178-179-186

"ق"

قادة الجيش.....16-25-33-37-38- 90-102-162-171-198
القطالونيين 10-14-15
القبائل البربرية 3-10-11-13-15-38-52-55-78-98-116-119-163
القبائل العربية 3-10-11-12-13-58-60-61-64-65-75-78-89-107-111-119-120-124-143-163
القشتاليين 14-15
القضاة 102-121

"م"

مغراوة 3-11-12-13-30-33-55-58-80-98-116-117-120-144
ملوك المغرب 14-15-24-38-158
ملوك تونس.....60-65-66-96-180-198
الموحدون 2-15-16-17-23-97-128-132-191
المرابطون 2
المرينيون 3-8-9-10--12-15-21-83-84-88-90-132-133--143-144--173-178--183-197
المجتمع الزياني 40-42-47-51-56-5-112-127-175-178-181-182-184-187-188-197-201
المتصوفة.....73-74-176-189-191-136

القـــائمـــة

البـبليـــوغرافيـــة

القــائمـــة الببليــوغرافيــة

أولا: قائمة المصادر المخطوطة

1- ابن البناء التلمساني: **شرح التلمسانية**، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس.

2- المازوني، أبو زكريا يحي بن موسى التلمساني (ت883هـ/1478م): **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، مج1، رقم 1335.

3- المشرفي: الياقوتة، النسب الوهاجة، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم .2163

4- ابن هيدور، علي بن عبد الله التادلي: الأمراض الوبائية، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم 9605.

ثانيا: المصــادر المطبــوعة

1-ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: **روضة النسرين في دولة بني مرين**، الرباط: المطبعة الملكية، 1962م.

2-الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2003.

3- البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**، ط1، بيروت: بيت الأفكار الدولية، 1998م.

4- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي(404-487هـ/1014-1094م): **المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب**، تقديم: حماه الله ولد السالم، بيروت: دار الكتب العلمية، 2013.

5- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت779هـ/1377م): **رحلة ابن بطوطة تحفة النُظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، جزءان، بيروت: دار إحياء العلوم،1987.

6- التنسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت899هـ/1493م): **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان** ، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، 2011.

7- التنبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت الصنهاجي السوداني (963-1036هـ/1555-1626م): **نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج**، تحقيق وتقديم: حماه الله ولد السّالم، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2013.

8- الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1423هـ/2002م.

9- أبو حمو موسى، يوسف بن يعقوب بن يحي يغمراسن (ت791هـ/1388م): **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: محمود بوترعة، الجزائر: دار الشيماء للنشر والتوزيع- الجزائر: دار النعمان للطباعة والنشر، 2012.

10- الحميري، محمد عبد المنعم (ت727هـ/1326م): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت: منشورات مكتبة لبنان، 1984.

11- ابن الخطيب لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (713-776هـ/1313-1374م): **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: يوسف علي طويل، 4 أجزاء، لبنان: دار الكتب العلمية، ج2-ج3.

12- ـــــــــــــــــــــ **نُفاظة الجراب في عُلالة الاغتراب**، تحقيق: حماه الله ولد سالم، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2014.

13- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن (732-808هـ/1331-1405م): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، 8 أجزاء، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 2006، ج6-ج7.

14- ـــــــــــــــــــــ **مقدمة ابن خلدون**، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.

15- ـــــــــــــــــــــ **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.

16- ابن خلدون، أبو زكريا يحي (ولد بعد 732هـ-ت780هـ/1331-1378م): **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، جزءان، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011، ج1-ج2.

17- ابن رضوان، أبي القاسم المالقي (ت783هـ/1381م): الشُّهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، ط1، المغرب: منشورات الشركة الجديدة دار الثقافة، 1984.

18- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي (ت617هـ/ 1220م): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي** العباس السّبتي، عناية: عاصم إبراهيم الكيالي، ط2، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997.

19- ابن أبي زرع، علي الفاسي (كان حيا سنة 726هـ/1325م): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

20- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت بعد 894هـ/1488م): **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق: محمد ماضور، تونس: منشورات المكتبة العتيقة، (د.ت.ن).

21- الزبيدي، محمد مرتضى الحسني: **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مصطفى حجازي، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1389هـ/1969م.

22- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (685هـ/1286م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1955، ج.2

23- ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حيا سنة 861هـ/1457م): **الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.

24- ابن الصباح، الحاج عبد الله: **أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار –رحلة المدجن–**، تحقيق: محمد بن شريفة، ط2، الرباط: دار أبي الرقراق، 2008.

25- ابن صعد، محمد الأنصاري التلمساني (ت901هـ/1496م): **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، تحقيق: يحي بوعزيز، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.

26- ـــــــــــــــ **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، تحقيق: محمد أحمد الدياجي، 03 أجزاء، ط2، بيروت: دار صادر، 1432هـ/2011م، ج1-2.

27- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر: المطبوعات الجميلة، (د.ت.ن).

28- العقباني، أبو عثمان سعيد بن محمد التجيبي التلمساني (ت871هـ/1467م): تحفة الناظر، تحقيق: على الشنّوفي، (د.ب.ن): منشورات المعهد الفرنسي، 1967.

29- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن سعد (ت760هـ/1358م): رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كروي، ط2، دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

30- العمري ابن فضل الله، شهاب الدين أحمد بن يحي (ت 749هـ/1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، 27 جزء، بيروت: دار الكتب العلمية، 2010، ج4.

31- ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله (543هـ/1148م): أحكام القرآن، مراجعة: محمد عبد القادر عطا، 04 أجزاء، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج1.

32- الغبريني، أبي العباس أحمد بن عبد الله: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2006.

33- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت): **القاموس المحيط**، مراجعة: محمد الإسكندراني، بيروت: دار الكتاب العربي، 2001.

34- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، (د.ب.ن): دار الكتاب العربي، 1967.

35- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت810هـ/1407م): **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م.

36- ـــــــــــــــ **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، إعداد: عبد الرحمن حمّاد الكتبي، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة، 2015.

37- ـــــــــــــــ **وفيات ابن قنفذ القسنطيني**، عناية: عبد الرحمن حمادو الكُتُبي، الجزائر: دار عالم المعرفة 2015.

38- ـــــــــــــــ **الأرجوزة في الطب، المسماة أنس الحبيب عند عجز الطبيب في منافع الأغذية والأشربة**، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2015.

39- ابن القاضي، أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي: **لقط القرائد من لفاظة حقق الفوائد**، تحقيق: محمد حجي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.

40- ـــــــــــــــ **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، 03 أجزاء، القاهرة: دار التراث، (د.ت.ن).

41- كاربخال، مارمول (ت أواخر القرن 10هـ/16م): **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي وآخرون، جزءان، الرباط: مطابع المعارف الجديدة، 1409هـ/ 1989م، ج2.

42- مجهول: **زهر البستان في دولة بني زيان (760-764هـ/1359-1363م)**، عناية وتقديم: محمد بن أحمد باغلي، 03 أجزاء، تلمسان: الأصالة للنشر والتوزيع، (د.ت.ن)، ج2.

43- مجهول (كان حيا بين 710-731هـ/1310-1330م): **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**، مراجعة: الربعي بن سلامة والسعيد بحري، قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2012.

44- المقري، أبو العباس أحمد (986-1041هـ/1578-1631م) : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق: إحساس عباس، 08 أجزاء، بيروت: دار صادر، 1988، ج5-ج6.

45- المقري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد (ت758هـ/1357م): **الكليات الفقهية**، تحقيق: محمد بن الهادي أبو الأجفان، (د.ب): الدار العربية للكتاب، (د.ت).

46- الماوردي، علي بن محمد (450هـ/1058م): **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: سمير مصطفى رباب، ط1، بيروت: المكتبة العصرية، 2000م.

47-ـــــــــــ **نصيحة الملوك**، تحقيق: خضر محمد خضر، ط1، (د.ب.ن): منشورات مكتبة الفلاح، 1983.

48- المازوني، أبو عمران موسى بن عيسى: **مناقب صلحاء الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**، تحقيق: عبد القادر بوباية، الجزائر: الرشاد للطباعة والنشر، 1439هـ/2017.

49- الملالي، أبو عبد الله محمد بن عمر التلمساني (كان حيا سنة 897هـ/1492م): **المواهب القدسية في المناقب السنوسية**، تحقيق: علال بوربيق، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2011.

50- مسلم، ابن الحجاج القشيري (ت261هـ): صحيح مسلم، ط2، السعودية: منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، 1421هـ/2000م.

51- ابن مرزوق، أبي عبد الله محمد التلمساني (ت781هـ/1379م): **المناقب المرزوقية**، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2008.

52- ـــــــــــ : **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومعاني مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود آغا بوعياد، الجزائر: موفم للنشر، 2011.

53-ـــــــــــ: **نُفاضة الجِراب في عُلَالة الاغتراب**، تقديم: حماه الله ولد السَّالم، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2014.

54- ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني (كان حيا سنة 1025هـ/1616م): **البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية، 2014.

55- ابن منظور أبو عبد الله محمد الأفريقي المصري (630-711هـ/ 1232-1311م): **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، 06 أجزاء، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ج1، ج8.

56- النميري، أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن الحاج (ت بعد 774هـ/1372م): **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق: محمد ابن شقرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

57- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، 5 أجزاء، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954، ج3-ج4-ج5.

58- الوزان، حسن بن محمد الفاسي (كان حيا 957هـ/1550م): **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ج1-ج2.

59- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي (783-914هـ/1381-1508م): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق: جماعة من الفقهاء إشراف: محمد حجي، 13 جزء، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981، ج2، ج3، ج6، ج8، ج9، ج10.

60-ـــــــــــ **وفيات الونشريسي**، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011.

61-ـــــــــــ **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد مالك**، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1467هـ/2006م.

62 ـــــــــــ **عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق**، تحقيق: حمزة أبو فارس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

63- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي، 05 أجزاء، لبنان: دار صادر، (د.ت.ن).

ثالثا: المراجـــع باللغة العربية

1-استيتو، محمد: **الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16و17م**، ط1، وجدة: منشورات مؤسسة النخلة للكتاب، 2004.

2- إحسان، محمد الحسن: **علم الاجتماع العسكري –دراسة تحليلية في النظم والمؤسسات العسكرية المقارنة–**، ط1، الأردن: دار وائل للنشر، 2005.

3- بوتشيش، إبراهيم القادري: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين –المجتمع– الذهنيات– الأولياء**، ط1، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993.

4- بونابي، الطاهر: **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6–7 الهجريين/ 12–13 الميلاديين**، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

5- تيتاو، حميد: **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني 609–869هـ/1212–1465م**، الدار البيضاء: منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2009.

6- توات، طاهر: **ابن خميس وشعره**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011.

7- جواد، علي: **المفصل في تاريخ العرب**، بيروت: دار العلم للملايين، 1996، ج5-ج7.

8- حاجيات، عبد الحميد: **أبو حمو موسى الزياني –حياته وآثاره–**، ط1، تلمسان: دار النشر بن مرابط، 2011.

9- حمّيش، عبد الحق وبوكراع بن ساعد، محفوظ: **موسوعة تراجم علماء الجزائر علماء تلمسان وتوات**، الجزائر: دار زمورة للنشر والتوزيع، 2011.

10- حساني، مختار: **تاريخ الدولة الزيانية**، 3ج، ط1، الجزائر: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.

11- حقي، محمد: **الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**، المغرب: مطبعة مانيبال، 2007.

12- الحداد، حميد: **السلطة والعنف في الغرب الإسلامي**، ط1، دمشق: دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، 2011.

13- ـــــــــــ **النفي والعنف في الغرب الإسلامي**، المغرب: أفريقيا الشرق، 2013.

14- الحفناوي، أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي: **تعريف الخلف برجال السلف**، تحقيق: خير الدين شترة، بوسعادة: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2012.

15- الحريري، محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1987.

15- خلفات، مفتاح: **قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرنين (6–9هـ/12–15م) دراسة في دورها السياسي والحضاري**، الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2011.

16- رمضان، عاطف منصور محمد: **الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في الغرب والأندلس**، القاهرة: منشورات مكتبة زهراء الشرق، 2002.

17- الزحيلي، وهبة: **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ط3، دمشق: دار الفكر، 1419هـ/1998م.

18- الزعنوني، عبد الصمد: **بدائل العقوبة السالبة للحرية: مقاربة قانونية، مقارنة إشكالية السجن والحرية**، الرباط: مكتبة دار السلام، 1999.

19- أبو زهرة، محمد: **العلاقات الدولية في الإسلام**، المملكة العربية السعودية: دار الفكر العربي، (د.ت).

20-ـــــــــــ **نظرية الحرب في الإسلام**، ط2، القاهرة: منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2008.

21- سعد الله، أبو القاسم: **تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري**، جزءان، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2014، ج2.

22- سعد الله، فوزي: **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.

23- شاوش، الحاج محمد بن رمضان: **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، جزءان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، ج1.

24- شيخة، جمعة: **الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي (من سقوط الخلافة ق5هـ/11م إلى سقوط غرناطة ق9هـ/ 15م)**، 03 أجزاء، ط1، تونس: المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار،1997، ج3.

25- الصلابي، محمد: **دولة الموحدين**، ط1، بيروت: مكتبة حسين العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 1429هـ/2009م.

26- الطمار، محمد: **تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر**، الجزاءر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.

27- الطبابي، بلقاسم: **الموت في مصر والشام (1250–1517) النكبات الديموغرافية في العهد المملوكي**، جزءان، ط1، تونس: الدار التونسية للكتاب، 2014، ج1.

28-عبدلي، لخضر: **التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد**، ط1، الجزائر: دار ابن النديم للنشر والتوزيع، 2011.

29- عمار، عبد الرزاق: **السلطة والعنف والجنس**، ط1، تونس: دار نقوش عربية، 2014م.

30- عزاوي، أحمد: **رجال الإدارة والأعيان في العصر المريني –من خلال رسائل شخصية لابن الخطيب–**، ط1، الرباط: ربانيت ديور الجامع، 2010.

31- عاطف، منصور محمد رمضان: **الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في الغرب والأندلس**، القاهرة: منشورات مكتبة زهراء الشرق، 2002.

32- عزّاوي، أحمد: **الغرب الإسلامي خلال القرنين 7–8هـ، دراسة وتحليل لرسائله**، (د.د.ن)، (د.ب)، 2006.

33- العامري، نللي سلامة: **الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي**، ط2، بيروت: دار الفارابي، 2006.

34- العلوي، الهادي: **من تاريخ التعذيب في الإسلام**، ط4، دمشق: دار الثقافة والنشر، 2004.

35- غمق، ضو مفتاح: **نظرية الحرب في الإسلام وأثرها في القانون الدولي العام**، ط1، ليبيا: دار الكتب الوطنية، 1426هـ.

36- فيلالي، عبد العزيز: **تلمسان في العهد الزياني –دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية–**، جزءان، الجزائر: موفم للنشر، 2002، ج1-ج2.

37- ـــــــــــــ دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، .2012

38- كريستين، نصار: **واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل حالة خاصة الطفل اللبناني**، ط1، لبنان: منشورات جروس برس، 1411هـ/1991م.

39- الميلي، مبارك بن محمد: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، 03 أجزاء، الجزائر: منشورات مكتبة النهضة الجزائرية، 2004، ج2.

40- مؤنس، حسين: **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، (د.ب): دار العصر الحديث للنشر والتوزيع، (د.ت).

41- المدني، توفيق أحمد: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492–1792**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ت).

42- نشاط، مصطفى: **السجن والسجناء**، (د.ب.م): منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012.

43- الهندي، إحسان: **أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام**، ط1، دمشق: دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ/1993م.

رابعا: المراجـع المعربـة

1- أوسطاش، دنيال،: **تاريخ النقود الإسلامية وموازينها في المشرق وبلاد المغارب من البدايات الأولى إلى الآن**، ترجمة: محمد معتصم، ط1، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

2- برنشفيك، روبار: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15م**، تعريب: حمادي الساحلي، جزءان، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988، ج1-ج2.

3- بوتول، جاستون: **الحرب والمجتمع –تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية**، ترجمة: عباس الشربيني، بيروت: دار النهضة العربية، 1983.

4- بروفنسال، ليقي: الإسلام في المغرب والأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، .1990

5- الزعفراني، حاييم: **يهود الأندلس والمغرب**، ترجمة: أحمد شحلان، 03 أجزاء، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ج1.

6- قازان، وليم: **المسكوكات الإسلامية**، مجموعة خاصة، بنك بيروت،بيروت . لبنان، 1983.

خامسا: مقال ضمن كتاب

1- بلعربي، خالد: **"النظام العسكري بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني"**، ضمن كتاب –ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني–، الجزائر: دار هومة، 2014.

2-ـــــــــ **"المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698–845هـ/1442–1299م)"**، ضمن كتاب –ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني–، الجزائر: دار هومة، 2014.

3-ـــــــــ**"حركة التصوف بتلمسان في العهد الزياني (633–962هـ/1235–1554م)"**، ضمن كتاب –ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني–، الجزائر: دار هومة، 2014.

4- بشاري، لطيفة: **"إسهامات التلمسانيين قي المجاليين الإقتصادي والديني بالسودان الغربي"**، ضمن كتاب –تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الغني–، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ج2.

5- حاج عيسى، إلياس: **"الحرف اليدوية في المغرب الأوسط (تلمسان أنموذجا)"**، ضمن كتاب– تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والميراث الفني–، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، ج2.

6- حبيدة، محمد: **"تاريخ الأغذية"** ضمن كتاب "كتابة التاريخ قراءات وتأويلات"، ط1، المغرب: دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، 2013.

7- ـــــــــ **"تاريخ الموت"** ضمن كتاب "كتابة التاريخ قراءة وتأويلات"، د.ب): دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013.

8- فيلالي، عبد العزيز: **"الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان (تأثير الأمراض والظواهر الطبيعية والأزمات السياسية على السكان)"**، ضمن كتاب –بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط–، الجزائر: دار الهدى، 2014.

9- القاضي، وداد: **"النظرية السياسية للسلطان أبي حمّو موسى الزياني الثاني ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها"**، ضمن كتاب –مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا–، الجزائر: القافلة للنشر والتوزيع، 2011.

10- الهلالي ، محمد ياسر محمد: "اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة)"، مقال ضمن كتاب التاريخ والفقه أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2002.

خامسا: الأطاريح والمذكرات

1- بشاري، لطيفة: "**التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين**"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، الجزائر، 1986-1987.

2- بلطي، ظافر: "**النجاسة والطهارة من خلال المعيار المعرب للونشريسي**"، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، تونس (منوبة)، 2010-2011.

3- بكاي، هوارية: "العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، قسم التاريخ، الجزائر (تلمسان)، 2007-2008.

3- بونابي، الطاهر: "**الحركة الصوفية في المغرب الاوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15 الميلاديين** "، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، الجزائر العاصمة، 2008-2009.

4- بوعمامة، فاطمة: "اليهود في المغرب الاسلامي خلال القرنين (7-9هـ/13-15م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة بن يوسف بن خدة، قسم التاريخ، (الجزائر العاصمة)، 2008-.2009

5- زيتوني، فائزة: "**نصوص الكرامات في كتاب البستان لابن مريم الشريف مقاربة سيميائية**"، رسالة مقدمة لنيل درجة ماجستير في الأدب الجزائري القديم، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر (بورقلة)، 2008.

6-شريخي، نبيل: "**دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م)**"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم التاريخ، جامعة بوزريعة، (الجزائر العاصمة)، 1430-1431هـ/2009-2010م.

7- صدوق، وسام وابن طالب، عصام: "**الاغتيال السياسي في مغرب العصر الوسيط من خلال كتب الحوليات التاريخية**"، بحث في نيل شهادة الإجازة في التاريخ والحضارة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب: 2011-2012.

8- عامر، سليمان علي جمال: **"الحرف والصناعات اليدوية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام**"، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في حضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى قسم شبه الجزيرة العربية، مصر، (د.ت).

9- بن قربة، صالح: "**المسكوكات المغربية على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين خلال القرون السادس والسابع والثامن للهجرة (12/13/14 للميلاد)**"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الجزائر، معهد الآثار، (الجزائر العاصمة)، 1994/1995.

10- عبد الفتاح، بن عبد الله: "**الأسلحة ببلاد المغرب في العصر الوسيط**"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس(منوبة)، 2004-2005م.

11- مزدور، سمية: "**المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)**"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة منتوري بقسنطينة، الجزائر (قسنطينة)، 1429-1430هـ/2008-2009م.

12- بن ميلاد، لطفي:"**افريقية وشرق البحر المتوسط من أواسط القرن 5هـ/11م-10هـ/16م**"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تونس، تونس، 2007-2008.

13- نميش، سميرة: "دور أهل الذمة بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني (7-10هـ/13-16م)"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أبو بكر بلقايد، قسم التاريخ والآثار، الجزائر (تلمسان)، 1434-1435هـ/2013-2014.

14- "**العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوربا في الفترة (7-10هـ/13-16م)**"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم التاريخ وعلم الآثار، الجزائر (تلمسان)، 2013-2014.

سادسا: منشورات

1-بشاري، لطيفة: "مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني"، **مجلة دراسات تراثية**، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ع1، 2007.

2- بلهواري، فاطمة:"التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن 4هـ/10م"، مجلة إنسانيات، ع42، 2008، (61-82).

3- بوعزيز، يحي: "المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236-1554م"، **مجلة الأصالة**، قسنطينة، ع26، جويلية- أوت 1975، (3-29).

4- بوداود، عبيد: "تلمسان في مواجهة الحملات الحفصية"، **مجلة عصور**، معسكر، ع10، جوان 2005.

5- بونابي، الطاهر: " الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط من خلال نص المناقب"، **مجلة الناصرية**، معسكر، ع4، جوان 2013، (165-211).

6- بولطيف، لخضر: "الفقهاء والسلطة في الغرب الإسلامي بين منطق الولاء ومنطق البراء"، مجلة منار الهدى، ع15، 2010، (61-76).

7- بودالية، تواتية: "الانتماء الحرفي لأهل الصناعات في المغرب الأوسط"، **مجلة الناصرية**، معسكر، ع4، جوان 2013، (253-276).

8- الجميل، سيار: "الحرب ظاهرة تاريخية. مدخل من أجل فهم سوسيولوجي"، **مجلة عالم الفكر**، الكويت، ع2، المجلد 36، أكتوبر- ديسمبر، 2007، (5 -35).

9- حاجيات، عبد الحميد: "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، **مجلة الأصالة**، ع26، (د.ت)، (136-156).

10- الحداد، يحي فايز: "الحروب وآثارها النفسية على الأطفال"، **مجلة عالم الفكر**، ع2، المجلد 36، الكويت، أكتوبر – ديسمبر، 2007، (271-289).

11- الزكراكي، سعيد: ظاهرة العنف من منظور سوسيولوجي، مجلة المنطلق الجديد، ع6، شتاء-ربيع 2003، (107-134).

12- سالم عطية، آمال: "دور العلماء والفقهاء في السفارة بين دول المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م)"، مجلة عصور الجديدة، ع26-27، جويلية –ديسمبر 2015، (179-199).

13- عزرودي، نصيرة: "الدولة الزيانية ودورها في تفعيل النشاط الحرفي بالمغرب الأوسط"، **مجلة الناصرية**، معسكر، ع4، جوان 2013، (237-251).

14- العربي، لخضر: "الحرف وتنظيماتها في مدينة تلمسان الزيانية"، **مجلة الناصرية**، معسكر، ع4، جوان 2013، (311-339).

15- علام، عز الدين: "ملاحظات حول الرعية في الأدب السياسي السلطاني"، **مجلة الاجتهاد**، ع22، 1994.

16- غوانمة، يوسف درويش: "الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي"، **مجلة دراسات تاريخية**، عدد مزدوج، 13-14، دمشق، أكتوبر، 1983.

17- بن قربة، صالح: "الرايات والأعلام في تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان"، العدد المزدوج (3-4)، أفريل –ماي، 2011، (95-103).

18- لعرج، عبد العزيز: "تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية"، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3-4، تلمسان، جمادى الأولى والثانية 1432هـ/أفريل-ماي 2011، (22-35).

19- مكيوي، محمد: "دور يغمراسن بن زيان في تأسيس الدولة الزيانية"، **دورية القرطاس**، الدراسات الحضارية والفكرية، العدد التحريبي، 3008.

20- يحياوي، جمال: "آثار الهجرة الأندلسية على تلمسان"، مجلة الوعي، العدد المزدوج (3-4)، أفريل-ماي 2011.

21- بن يحي، أم كلثوم: "نظرية العمل في الإسلام ودورها في تنمية المجتمع"، **مجلة الناصرية**، معسكر، ع4، جوان 2013، (33-57).

سابعا: أعمال ملتقى

1- بلطي، ظافر: "**من فتاوى الطّعام الونشريسي منطلقا**"، ضمن أعمال اليوم الدراسي خطاب الطعام في الثقافة الإسلامية، تونس: 15 فيفري 2013، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، (67-82).

2- مصطفى، أسامة أحمد مختار حسن: "**العلاقات السياسية بين دولتي بني مرين وبني زيان في القرن 8هـ/14م كما تعكسها النقود، ضمن أعمال ملتقى دولي "تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني"**، ج2، تلمسان، أيام 3-4-5 أكتوبر 2011.

ثامنا: مراجع باللغة الفرنسية

1- Baider, L. et Rosenfeld, E. Effect of parental Fears on children in a wartime.social Casework.
2- Fur;qn, E: On trauma: When is the death of a parent traumatic Psychoanalyticstudy of the child.
3- Hazar Hary W: the Numismatic History of late medieval North Afriqua. New Yorth, 1952.
4- Lavoix, Henre: Catalogue des Monnes Musulmanes de la Bibotheque Nationale. Vol. II, Espagne Et Afrique. Paris 1891.
5- Kaffman, M. & Elizur, E.(1984); Children's Bereavement Reactions Following Death of the Father.
6- Mitchiner, Michael : the World of Islam, Oriental. Coins and Their Values. London. 1977.
7- Mols (R), Introduction de la démographiehistorique des villesd'Erope du (XIV au XVIII siècle), T2, Louvain, Belgique, 1954.
8- Provencal, « complément de l'histoire de gualàa de beni abbas, R.S.A.C. 1913.
9- Special Issue: Family Psychiatry in the Kibbutz. International Journal of Family Therapy. 6 (4).
10- Schirmer, J.(1986); Chile: The Loss of Childhood. Cultural Survival Quarterly; 10 (4).
11- vayssette , « notice sur les canons de la Kalàa des Bani Abbes » R.S.A . 1865.

Séminaire:

1- Fardeheb, "la contribution espagnol dans les techniques guerièrre algérienne: les premiers arquebusiers du royaume de telemcen", Séminaire internationale sue les sources espagnol pour l'histoire de L'algérie, 20-21-22 Avril, 1981, université de Oran.

فهرس الموضوعات

الإهداء	
شكر وعرفان	
مقدمة	أ –ط
الفصل الأول: مصادر الدولة الزيانية وأهميتها في تمويل الحروب	43– 1
المبحث الأول: الدولة الزيانية والحرب، المقوم المالي والبشري	19–2
المبحث الثاني: نفقات الحرب	43 – 20
الفصل الثاني: تداعيات الحرب على المجتمع	156– 44
المبحث الأول:تداعيات الحرب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي	73 – 44
المبحث الثاني: تداعيات الحرب على المستوى الجسدي	121 – 74
المبحث الثالث: تداعيات الحرب على المستوى النفسي	156 – 122
الفصل الثالث: سلوكات المجتمع الزياني لمواجهة الحروب والحُصُر	220 – 157
المبحث الأول: الاجراءات السياسية لمواجهة الحرب	192 – 157
المبحث الثاني: سلوكات المجتمع في المجال الاجتماعي	199 – 192
المبحث الثالث: سلوكات المجتمع في المجال الاقتصادي	205 – 199
المبحث الرابع: سلوكات المجتمع في الحياة الدينية	220 – 206
خاتمة	226 – 221
الملاحق	230 – 227
الفهارس	243 – 231
قائمة المصادر والمراجع	249 – 243
فهرس الموضوعات	250

ملخص

لا يزال البحث في موضوع الحرب والمجتمع في العهد الزياني قائما من خلال دراسات وأبحاث أنجزها باحثون أكاديميون جزائريون تناولت مجالات شتى منها سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وفكرية. لكن الجديد في موضوعي هذا هو التطرق إلى جانب مهم وهو جانب الأفكار والذهنيات فجاءت دراستي الموسومة ب **"انعكاسات الحرب في السلوك والذهنية لمجتمع المغرب الأوسط في العهد الزياني (633-962ه/1235- 1555م)"** كأول دراسة في حقل الأفكار والذهنيات بحثت خلالها في العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع تناولتُ خلالها مختلف التداعيات والتأثيرات للحروب والحصارات التي تواترت خلال مرحلة البحث وكيف أثرت على سلوكيات وأفكار المجتمع.

وبعد عملية البحث والتقصي كشفت الدراسة على أنّ الحرب كانت ظاهرة بنيوية في تاريخ الدولة الزيانية الطويل الذي يزيد على ثلاثة قرون، وهو ما أثّر سلبا على المجتمع فقد كانت تداعيات هذه الحروب والحصارات وخيمة وقاسية على كافة شرائح المجتمع دون استثناء وعلى كافة المستويات.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط ـ العهد الزياني ـ الحرب – الحصار – الأفكار – الذهنيات – السلوكيات.

Résumé

Les recherches sur le thème de la guerre et de la société à l'époque des Zianides se poursuivent de nos jours. C'est ainsi que des chercheurs algériens ont mené des études et recherches ayant trait à ce sujet et touchant divers domaines : Politique, militaire, économique, social et intellectuel. Cependant la nouveauté de notre approche consiste à aborder l'aspect des idées et des mentalités au Maghreb central au cours de cette époque (633 – 962 H / 1235 – 1555) en y traitant la relation dialectique entre la guerre et la société ainsi les conséquences et influences de la guerre et des sièges sur les idées et les comportements sociaux.

A l'issue de nos recherches, nous sommes arrivés à la conclusion que la guerre durant cette période était un phénomène structurel dans la longue histoire de l'état Zianides qui s'étale sur plus de trois (03) siècles et qui a eu un impact négatif sur tous les segments de la société et ce, à tous les niveaux.

Mots clés: **Maghreb central – Epoque Zianides – Guerre – Sièges – Idées – Mentalités – Comportements.**

Abstract

The research on the subject of war and society is still conducted through studies and researches carried out by Algerian researchers and academics dealing with various fields, including political, military, economic, social and intellectual.

However, my new approach on the topic is ideas and ideologies, there for, my study on the period (633-963AH/1235-1555) is considered as a first in the field of ideologies, in which I discussed the dialectical relationship between war and society, focusing on the effects and repercussion of the war that happened during the given period and how they affected the behavior and ideas of the society.

After the thorough search and investigation, the study revealed that the war was a structural phenomenon in the history of the Zayanit state for more than three centuries, which negatively affected the society, and their consequences were severe and bitter on all segments of society without exception and at all levels.

Keywords: **Middle West- the Covenant of Zayanit- the War- the embargo- Ideas- Minds.**